

## الكتاب : تفسير الشعراوي

فلو رأيت إنساناً يقضي حاجة وآخر يتقيأ الطعام ، فالنفس تتقزز من الذي يتقيأ أكثر مما تتقزز من الذي يقضي حاجته؛ لأن « الترجيع » يخرج طعاماً خرج من شهوة المضغ والاستمتاع . ولم يصل إلى مسألة التمثيل .

ولذلك نسمع المثل « كل ما فات اللسان صار نتان » . و « الرّكس » هو الرجيع الذي يرجعه الإنسان بعد الطعام قبل أن يتمثله . فالطعام بعد أن يتمثل ويخرج من المكان المخصص له يصبح روثاً ، وغائطاً وبرازاً . والحق سبحانه وتعالى قد جاء بالكلمة التي تصفهم : { وَاللّٰهُ اَرْكَسَهُمْ } أي أنهم ارتدوا من قبل أن ينتفعوا بأي شيء من الإيمان .

هذا هو التعبير القرآني الذي جاء بالعبارة التي تؤدي هذا المعنى ، وتؤدي إلى نفرتنا منهم ، فيكون الإركاس هو الرد ، وهل هو مطلق الرد ، أو رد له كيفية؟ هو رد بإهانة أيضاً ، كيف؟ لأن الشيء إن كان قوامه أن يقف رأسياً ، يكون الركس أن تجعل رأسه في مكان قدمه وقدمه في مكان رأسه . وعلى ذلك فالرد ليس رداً عادياً بل إنّه رد جعل المردود هُزواً . وإن كانت استقامة الأمر على الامتداد الطولي ، يكون الركس بأن تأتي بما في الخلف إلى الأمام ، وبما في الأمام إلى الخلف ، فتقلب له كيانه ، وتعكس حاله .

والقرآن يصف الكافرين والمنافقين : { ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ } [ الأنبياء : 65 ] . لماذا ، لأن الرأس مبني على القامة والهامة والارتفاع . هذا الرأس يُجعلُ مكان القدم ، والقدم يكون محل الرأس . إذن فقوله : { وَاللّٰهُ اَرْكَسَهُمْ } أي لم يردهم مطلق الرد ، بل ردهم رداً مهيناً ، رداً يقلب أوضاعهم .

{ وَاللّٰهُ اَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا } إذن فلا يقولن أحد : ما دام الله قد أركسهم فما ذنبهم؟ إن الله قد أركسهم { بِمَا كَسَبُوا } ، فهم كانوا فاعلين لا منفعلين .

وإليكم هذا المثل - والله المثل الأعلى - حين تضع المدرسة أو الجامعة درجات للنجاح في كل مادة . تجد مادة يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة ستين في المائة . وأخرى على سبعين في المائة ، ويدخل التلاميذ الامتحان ، وعندما يرسب أحدهم لا يقال : إن المدرسة قد جعلته يرسب ، صحيح هي أرسبته ولكن وفق القوانين التي وضعتها المدرسة أو الجامعة من قبل أن يدخل التلميذ الامتحان ، ولأنه لم يبذل الجهد الكافي للنجاح ، فقد أرسب نفسه .

إذن ، فالله لم يأت بالركس ورماه عليهم . بل هم الذين كسبوا كسباً جعل قضية السنة الكونية هي التي تؤدي بهم إلى الركب ، مثلهم مثل التلميذ الذي لم يستذكر فلم يُجِب في الامتحان ، فلا يقال عن هذا التلميذ : إن المدرسة أرسبته .

ولكنه هو الذي أرسب نفسه .

ولذلك عندما يقال : الله هو الذي أضلهم ، فما ذنبهم؟ هذه هي القضية التي يقول بها المسرفون على أنفسهم . وهؤلاء نقول هذه الآية : { وَاللّٰهُ اَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوْا } وكذلك أضل الله الضالين بفعلهم ، كيف؟ .

نحن عرفنا أن الهداية تأتي بمعنيين ، هداية الدلالة وهداية المعونة ، ويأتي المسرفون على أنفسهم الذين يودون أن تكون قضية الدين كاذبة - والعياذ بالله - لأن قضية الدين عندما تكون صدقاً فإن الذين أسرفوا على أنفسهم يتيقنون أنهم ذاهبون إلى داهية وأمر منكر شاق عليهم؛ لذلك نجد الواحد منهم يتمحك في محاولة عدم التصديق ، والدخول إلى متاهات يصنعها الفهم السطحي للدين . ولذلك نجد المناقشات التي يناقشونها تدل على أنها مناقشات المسرف على نفسه ، فيقول الواحد منهم : ما دام الله هو الذي كتب عليّ كل شيء فلماذا يعذبني وهو الذي كتب عليّ المعاصي؟

نقول له : ولماذا آمنت في هذا الموقف بالذات أن الله هو الذي كتب؟ وما دمت قد آمنت بأن الله هو الذي كتب فلماذا لا تؤمن به وترتضي أحكام منهجه؟ . ولكن الواحد منهم يحاول أن يقف وقفة ليست عقلية ، فالوقفة العقلية الصحيحة تقتضي أن تأتي بالقضية المقابلة وهي أن الله إذا كان قد كتب على العبد الطاعة فلماذا يثيبه؟ . لماذا تناسي قضية الطاعة والثواب عليها؟؛ لأنه يعرف أنها القضية التي تجلب الخير ، ووقف في القضية المقابلة التي تأتي بالشرّ ، ولا يقول هذا القول إلا مسرف على نفسه . ولا نرى ملتزماً بمنهج الإيمان يقول مثل هذه القضية ، فالؤمن يجب أن تسير الأمور على ضوء منهج الله ، ولذلك أنا إلى الآن - وليسألني الله وليغفر لي - أتعجب من أن العلماء الذين سبقونا جعلوا من هذه المسألة محل خلاف . وقالوا : معتزلة وأهل سنة ( !! ) .

المسألة كلها يجب أن تفهم على أساس أن الإسلام دين فطرة؛ ولم يأت للفلاسفة فقط ، إنّه جاء للعقل الفطري ، وراعى الشاة في الإسلام كالفيلسوف ، ومن يكنس الشارع أو يمسخ الأحذية مساوٍ لمن درس الفلسفة أو الحقوق؛ لأن الإيمان لم يأت لطائفة خاصة ، ولكن المنهج قد جاء للجميع ، ولا بد أن تكون أدلته واضحة للجميع ، فعندما يقال لنا : إن الله يعلم كل شيء فيك ، لا يدخل معك في متاهة ، هو - سبحانه - يقول لك : { اَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف

الخبير } [ الملك : 14 ] .

فالذي صنع الكرسي - والله المثل الأعلى - ألا يعرف أن الكرسي مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب « زان » أو « أرو » أو « مجنة » ، وأن المسمار الذي يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسي أي صنف من الغراء استعمل في لصق أجزاء الكرسي ، وكذلك مواد الدهان التي تم دهن الكرسي بها .

إذن فقول الحق : { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } لا يحتاج إلى جدال ولذلك نجد النجار الذي يرغب أن تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشتري : سوف أصنع الكرسي من خشب الزان وعليك أن تمر يوماً لترى مراحل فعله . ويبدأ صناعة الكرسي مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون . وكذلك يعرف البدوي كيف يتكون الرحل . وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، العربي يعرف كيف يتكون الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشَّعْر . وقد جاء سبحانه بما يدحض أي جدل ، وبدون الدخول في أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال . جاء الحق بهذا القول الفصل : { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [ الملك : 14 ] .

هو يعلم وهذا أمر سهل عليه ، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة في متاهة فلسفية ، فالإسلام دين الفطرة . ولذلك نجد العلماء الذين ناقشوا هذه المسألة - جزاهم الله خيراً - جاءوا في آخر مطافهم ، وقالوا :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال  
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا  
وأنا أريد أن أعرف ماذا قدمت الفلسفة النظرية للعالم من خير؟ . لقد انفصلت عنها الفلسفة  
المادية ودخلت المعمل وأخرجوا لنا الابتكارات التي انتفع بها الخلق ، فماذا فعلت الفلسفة  
النظرية؟ . لا شيء . ونقول : جاء الإسلام بالعقيدة الفطرية ، ومعنى العقيدة الفطرية أن الناس  
فيها سواء ، فالأدلة العقلية تقتضي الوضوح لمن تَعَلَّم ولمن لم يتعلم .  
والفلاسفة هم الذين قالوا : بأدلة الغاية وأدلة العناية وأدلة القصد . لكن البدوي الذي سار في  
الصحراء وجد بعير ووجد الرمل وعليه أثر قدم ، فقال : إذا كانت البعرة تدل على البعير  
والقدم تدل على المسير أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟ . هو لم يدخل في فلسفة أو  
متاهة مثلما دخل الفلاسفة مع بعضهم في متاهات عقلية وحلها البدوي في جملة واحدة .  
وكذلك نجد واحداً من الناس يسأل واحداً من أهل الإشراق : ألا تشتاق إلى الله؟ . فيقول له :  
إنما يُشتاق إلى غائب ، ومتى غاب الله حتى يشتاق إليه!؟

لذلك نقول لمن اختلفوا في أمر رد الله هؤلاء : نريد أن نكرم عقولكم وننظر لماذا اختلفتم في هذه

الحكاية { أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا } .

نقول مع حسن الظن بهم ، إن كل واحد منهم تعصب لصفة من صفات الحق ، فواحد منهم يقول : { اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } فنقول له : أنت قد تعصبت لصفة القدرة وطلاقتها في الحق . وجاء ثانياً وقال : ولكن الله عادل . ولا يمكن أن يخلق في الكافر كفره ثم يعذبه عليه . إنه متعصب لصفة العدل . وكل منهما ذاهب إلى صفة واحدة من صفات الحق . وتناسي الاثنان أن هذه الصفات إنما هي لذاته - تعالى - فسبحانه قادر وعادل معاً .

فلا هذه تفلت منه ولا تلك .

ونقول لمن يقول : إنه الله خالق كل شيء وخالق كل فعل . ما الفعل؟ . الفعل هو توجيه جارحة لإحداث حدث ، فالذي يمسخ وجهه بيديه يوجه يديه لوجهه حتى يمسخه ، وهذا الفعل لا يفعله صاحب الفعل ، ودليلنا على ذلك الإنسان الآلي نضغط على أكثر من زر ليتحقق هذا الفعل ، هذا الإنسان الآلي حتى يتحرك حركة واحدة لا بد من ضغط وتحريك عدد آخر من القوى ، لكن الإنسان حتى يمسخ وجهه بيديه اكتفى بأنه بمجرد أن أراد مسخ الوجه باليد مسخ الوجه . فهل أمسك من يمسخ وجهه بشيء وضغط عليه ليمسخ وجهه؟

إنه بمجرد أن أراد فعل . وسائق جرافة التراب يحرك عدداً من الأذرع الحديدية حتى يحرك الجرافة إلى أسفل ، ثم حركة أخرى ليفتح كباشة التراب ، وحركة تقبض أسنان الكباشة وحركة أخرى ترفع التراب ، كل ذلك من أجل أن يرفع التراب من مكان ما إلى مكان آخر ، والواحد منا بمجرد أن يريد أن يمسخ وجهه فهو يمسخ وجهه ولا يعرف أي عضلات تحركت ، فمن الذي فعل كل ذلك؟ . إنه الله .

فيا من تتعصب لصفة القدرة . فالله هو الذي فعل والعبء هو الذي وجه الطاقة التي تنفعل بالله . فإذا كانت إلى غير مراد الله يصير العبد عاصياً ، وإن وجهها إلى مراد الله فيكون طائعاً ، ويكون له الكسب فقط ، فالذي يقتل واحداً ، هو لم يقتله؛ لأنه لم يقل له : « كن قتيلاً » فيكون قتيلاً ، ولكن القاتل يأتي بسكين أو سيف أو مسدس ويرتكب فعل القتل . فأداة القتل هي التي قامت بالفعل ، والقاتل إنما أخذ الآلة الصالحة لفعل ما ولغيره ، فوجهها لذلك الفعل . فيا من تريد العدل ، إن الله يعذب على المعصية؛ لأن الإنسان استعمل أداة مخلوقة للفعل ولعدمه ، فجعلها تؤدي فعلاً غير مرادٍ لله أي لا يرضى عنه الله ولا يحبه ، ومع ذلك فالله هو الفاعل لكل شيء .

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا } وما دام هو سبحانه الذي أركسهم بما كسبوا ، وأنتم مؤمنون بالله فلا بد أن يكون الرأي فيهم واحداً؛ لذلك يتساءل الحق : { أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ } ؟ وسبحانه لا يريد

أن يقدم لهم العذر ، إنما يريد أن يظهر لهم هدايته سبحانه وهي هداية لا تتأتى لهم؛ لأنه قد أضلهم فأتى لهم الهداية . فلماذا يقف جانب من المؤمنين في صفهم؟ .  
لأن الله حين يهدي فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء بوضع القوانين الموضحة للهداية أو الضلال . ونحن إن سمعنا « أن الله هدى » نفهمها على معنيين؛ المعنى الأول أنه « دل » ، والمعنى الثاني أنه « أعان ومكّن » .

ف « هدى » تكون بمعنى « دل » ، وهدى تكون بمعنى « أعان » . وسبق أن قلنا : إذا كان هناك إنسان يمشي في الطريق ويريد الاتجاه إلى الإسكندرية وهو لا يعرف الطريق الموصل . فيسأل شرطي المرور فيشير الشرطي : هذا هو الطريق الموصل إلى الإسكندرية . إن الشرطي هدى هذا الإنسان ودله على الطريق ، لكنه لم يحمل الإنسان على أن يسير في الطريق ، فإذا ما صدق المسافر قول الشرطي وقال له : إنني أشكرك وأكثر الله من خيرك والحمد لله أنني وجدتك ، فلولا وجودك لتعبت ، هنا يقول الشرطي : أنت رجل طيب والطريق إلى الإسكندرية به « مطب » وعقبه ، سأركب معك حتى أدلك على مكان هذه العقبة . وبذلك يتجاوز الشرطي مرحلة « الدلالة » إلى مرحلة « المعونة » وسبحانه أوضح : سأهدي الناس جميعاً وأرشدهم وأدلمهم ، فالذي يقبل على الإيمان بي سأعونه على ذلك .

ولذلك يقول : { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } [ فصلت : 17 ] .  
و « هديناهم » هنا بمعن « دللناهم » فقط ، أما أن يسلكوا سبل الهداية أو لا فالأمر متروك لهم . والهداية - إذن - ترد بمعنى الدلالة ، وترد بمعنى الإعانة . والحق يعين من؟ . يعين من آمن به ولكن من يكفر به لا يعينه : { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [ التوبة : 37 ] .  
وكذلك : { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [ التوبة : 24 ] .

إذن فلله هدايتان : هداية عم الناس بها جميعاً وهي هداية الدلالة ، وأخرى خص بها من جاءه مؤمناً به ، وهي هداية « المعونة » . ولذلك قال الحق للرسول صلى الله عليه وسلم : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [ القصص : 56 ] .  
وهذا القول فيه نفي الهداية عن الرسول ، وهو سبحانه القائل أيضاً : { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [ الشورى : 52 ] .

وليس من المعقول أن ينفي الحق الهداية عن الرسول ثم يثبتها له . ونفهم من ذلك : إنك يا رسول الله تدل على الحق ، ولكنك لا تعين عليه . فالله هدى الناس جميعاً فدلهم على طريق الخير . فمن آمن به وأقبل عليه يسر له الأمر .

وبذلك نكون قد عرفنا تماماً معنى قوله الحق : { وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا } . فالذي يضلله الله هو من اكتسب ما يوجب أن

يضلله فلا تجد له سبيلاً . وكان من الممكن أن يقول الله : أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلا تستطيعون أن تهدوه ، ولكن الأبلغ هو ما يوضحه سبحانه لنا : أنتم لا تستطيعون هداية هذا المكتسب للضلال؛ ذلك أنه لا يوجد سبيل حتى تهدوه إليه . فالسبيل هو الممتنع وليس الهداية فقط .

والسبيل هو الطريق الذي يعطيك حقاً في الهداية ، فإذا ما امتنع السبيل فماذا تفعل؟ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً في أن ينقض هذا القرار ، أي لا حجة له على الإطلاق .

ولذلك أخذنا المعنيين هنا ، فالذين ينافقون يظهرون الإيمان مرة وينقلبون إلى الكفر مرة ، هم ينكرون الإيمان بقلوبهم والذي يقولون بألسنتهم هو الإسلام ، أما الإيمان فلماً يدخل في قلوبهم . وما هو الأعز على النفس البشرية؟ مكونات القلب أم مقولة اللسان؟ الأعز هو مكونات القلب . وما داموا هم لا يؤمنون بقلوبهم ويقولون فقط بألسنتهم ، فالعقيدة داخلهم معقودة على الكفر ، وما دامت العقيدة معقودة على الكفر فهم لا يريدون أن يأتوا إلى صف الإيمان ، ولكنهم يريدون جر المؤمنين إلى معسكر الكفر؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك : { وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ . . . } .

وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89)

و { وَدُوا } ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ، وحكم الله في صالح الفئة التي أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش والجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : { وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا } ثم إن تفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره؛ لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين به ، فيحاولون أن يظهروا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذبيوعه ، فهم في كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار في رءوسهم : يقولون نعلن أمام المسلمين أننا مسلمون ، ونعلن أمام الكافرين أننا كافرون . وما الذي أجأهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وتيرة واحدة ، ألسنتهم مع قلوبهم قبل أن يجيء الإسلام؟ إذن فالذي يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسي وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضرتهم ومستقبلهم هو أن تنتهي قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل كافراً .

{ وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا } والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن قدرت ، فما داموا يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقفون في سبيل انتصار المسلمين ،

وسيضعون العقبات التي تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك فاحذروهم ، سأفصح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

{ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } ونعرف أن كلمة « الكفر » تعني « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق في ذاته هو أنه لا يمكن أبداً أن يطمسه خصومه ، فاللفظ الذي جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله . فعندما نقول : « كفر بالله » أي « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان ، فلفظ « الكفر » في ذاته تعني إيماناً موجوداً يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستتره .

{ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا } . وهذا القول جاء بعد أن قال الحق : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ } [ النساء : 88 ] .

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين . وسماهم الله في آية ب « المنافقين » ويصفهم الحق في هذه الآية بأنهم كفروا { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا } والكفر الذي يجيء وصفه هنا يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار في الآخرة؛ وإن كانوا في الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

لكن الله يعاملهم في الآخرة معاملة الكافرين ، ويزيد عليها أنهم في الدرك الأسفل من النار . إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم في الجهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريحة في كلا الموقعين . فالمرح لهم ألا توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم : { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } . فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلما نقول : مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين في مصلحة حكومية ، ويكون في بينهم واحد مختلس أو لا يؤدي عمله على الشكل الراقي المطلوب ، لذلك فهو لا يجب أن يؤدي الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يغيرهم بالفساد حتى يكونوا مثله؛ كي لا يظهره أمام نفسه بمظهر النقبضة . وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نجد الذي يسرق يحترم الأمين ، وكثيراً ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كأمانة . وقول الحق عن أمنية المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم { فَتَكُونُونَ سَوَاءً } . وهذه شهادة في أن صاحب الباطل يجب من صاحب الحق أن يكون معه؛ لأنه حين يجده في

الحق ، فصاحب الباطل يحتقر نفسه ، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحابته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فهذا هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة وخلف « علياً » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التي عنده . هم كذبوه في الرسالة ، ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً؛ لذلك أودعوا عنده الأمانات . إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة . وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع في مشكلة ، سبّ أحداً من الناس ورفع المعتدي عليه دعوى فضائية على هذا المعتدي الذي سبّه ، ولهذا المعتدي صديق عزيز ، استشهد به المعتدي عليه ، فيقول المعتدي : أتشهد علي؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا يقول صديقي مثل هذا السباب » . وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدي قد تاب وأتاب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذي شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته؟ طبعاً لا .

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إضلاله ، وينطبق على ذلك قول الحق : { وَذُو لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } وما دام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم ، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر .

وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم لا يقفون من الإيمان موقف الحياء ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة . { وَذُو لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } وفي هذا تحذير واضح للمؤمنين هو : إياكم أن تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم .

ويصدر الحق الحكم في هذه القضية بمنتهى الوضوح : { فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ } أي إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة؛ لأن الله سبحانه فضح لكم دخائل نفوسهم ، وهذه المسألة ليست ضربة لازب ، فإن آب الواحد منهم وأتاب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يردّه الله ، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحداً مجرد أنه ارتكب الذنب؛ لأنه الحق غفور ورحيم ، فما دام قد عاد الإنسان إلى الصواب وبتعد عن الخطأ ، فعلى المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ، فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ؛ لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ ، وليست موجهة ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أقلعوا عن الخطأ؛ فهم مقبولون من المؤمنين .

وها هوذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له بعض الناس ها هوذا قاتل أخيك زيد . فيقول عمر بن الخطاب : وماذا أفعل به وقد هداه الله

للإسلام!؟

وهكذا نرى أن الكراهية لم تتعد إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ، فإن أقلعت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها . وهكذا يصدر الحكم الرباني : { فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } .

والهجرة في سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن أهله ، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة ، وفي هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وآن له الأوان أن يدخل في حوزة الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا الذوات عن الأفعال . لماذا؟ لأن الذوات في ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره فعل الذات إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحي الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح : سنسخر منكم غداً كما تسخرون منا . ويأتي له ابن ليس على منهجه ، فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن : « لا » . ويركب نوح السفينة ويقول لله : لقد وعدتني أن تنجيني أنا وأهلي . وهنا يوضح الحق : صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذي جعلك تعتبر ابنك من أهلك ، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأعمال : { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [ هود : 46 ] .

إن العمل هو الذي يتم تقييمه . ولذلك يقول الحق : { فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } والهجرة من « هجر » ، و « هجر » يعني أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذي يهجر عادة يتجنى على من « هجر » ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى في كتابه عندما يأتي بالحدث . يأتي ب « هاجر » ، ولم يأت بالحدث « هجر » ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إليّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » .

فالهجرة جاءت؛ لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . و « هاجر » على وزن « فاعل » . والمتنبى يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون همو

ولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة . لقد كرهوا دعوته . واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

ويوضح سبحانه أن الذي يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتخذ المؤمنون منهم

أولياء هو : أن يهاجروا في سبيل الله؛ لأن ذلك هو حيثية صدق الإيمان . فالمهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة في سبيل الله .

ولذلك نرى القاعدة الإيمانية في الحديث النبوي : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولى المنافقون؟ . { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءً وَلَا نَصِيرًا } والأخذ إذا جاء في مقام النزاع فمعناه الأسر . وقتلهم في ساحة أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء؛ لأن الواحد من المنافقين يكون دسيسة على المؤمنين ، ويحاول أن يعرف أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفذ منه العدو إلى المسلمين . ويستमित ليعرف ما يببب المسلمون للكافرين .

واتخاذ الولي أو النصير ممن نعلم أنه لا يجب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك في صدق بصيرة الإنسان الذي يتولى ويود غير المسلمين المخلصين . فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراك تثق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكاره : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما في قلبي لما فعل ذلك .

فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون : إن المسلمين فاقدوا البصيرة وهم لا يعلمون ما في قلوبنا ، لذلك ينير الحق بصيرة المؤمنين حتى لا تأخذ رأياً من المنافقين ينال منا .

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم رب يبصرهم ، فلماذا يدعون أن لهم إلهاً؟ لو كان لهم إله لبصرهم بما في نفوسنا . ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق : { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ } [ المجادلة : 8 ] .

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سد يركونها فيما بعد . فمن هؤلاء من سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فها هو ذا ابن الوليد يهتدي ، وها هو ذا عمرو بن العاص ، وها هو ذا عكرمة بن أبي جهل ، هؤلاء سيكونون سيوفاً للإسلام ، ولا يظن منهم أحد أنه ستر مكنون نفسه عن الله : { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ } [ المجادلة : 8 ] .

هذا القول قد أدى أمرين :

الأمر الأول : وضح أن هناك رباً مطلعاً على خائنة الأعين وخفايا الصدور . والأمر الثاني :  
أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفاً للإسلام وسيخرج  
من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم وقد جاء جبريل  
وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره  
بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا  
ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك ليأمرني بأمرك مما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .  
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا  
يشرك به شيئاً » .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله في هذه الآية بما يلي : هم قوم الكفر  
يسكن القلب منهم ومظهرهم يدعي الإسلام ويتمنون أن يكون المؤمنون على شاكلتهم ، فلذلك  
لا يتخذ المسلم ولياً من المنافقين ولا نصيراً .

ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له ، أما إن تولى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب  
المعاملة يكون كما يحدده الله : { فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ  
مِنْهُمْ وُلياً وَلَا نَصِيراً } لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عقبة في تنفيذه ، إنها عقبة الأحلاف  
والعهود والمواثيق التي كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تنلخص في أن  
الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك  
يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف .

إن الحق يوضح لنا : لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه؛ لأن الإسلام دين الوفاء  
بالعهود ، وقد أعطيت بعض القبائل عهداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل في حمايتهم ،  
وكذلك الذي يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه .  
لذلك قال الحق في هذا الاستثناء : { إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ . . . } .

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ  
يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ  
السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90)

والآية تبدأ باستدراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاهد ، فالذين  
يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق لا ينطبق عليهم ما جاء في الآية  
السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينوه ولا يعينوا  
عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذي لهلال . والاستثناء يشمل أيضاً

من جاءوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى من عاهده المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يُؤمّن الرسول من جاءه من المنافقين وقال من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعلى الرغم من نفاقة يؤمنه الإسلام .

{ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ } كأن يقول الواحد منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم ، ولا أقدر أن أقاتل قومي فاعفر لي هذا واقبلني معكم . هؤلاء يقبلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين فيعملون في معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخذوا موقفاً حاسماً حازماً بين المسلمين والكافرين ، فهم يقرّون بضعفهم ، ويعترفون به .

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ } . فما الذي يجعلهم يلوذون إلى قوم يتحالفون مع المسلمين بميثاق حتى يهتموا فيهم؟ أو يقرون أن صدورهم ضيقة وأنهم غير قادرين على التصرف ، ويعلمون : لا نستطيع أن نقاتلكم ولا أن نقاتل قومنا . ويوضح الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب في نفوسهم ، ولو شئت لسلطتهم وجرأتهم عليكم ، وقاتلوكم ، إذن فسبحانه ينصرنا بالرعب ويمنع قتالهم لنا .

{ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا } . إن اعترلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا السلم واعترفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختيار بين قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم؛ فالاعتداء عليهم في مثل هذه الحالة ينهى الله عنه وعين الحق لا تقتصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أدق التفاصيل؛ فهي عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التي لا نعرفها ، فيقول سبحانه : { سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ . . . } .

سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَدُّوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91)

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : { سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ } . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لنزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر؟ . لو لم يجدوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا في القرآن . وسبحانه يوضح أي عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إلى أذهانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم في رعايتي وفي عنايتي .

{ سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ } وهؤلاء القوم هم قوم من بني أسد وعطفان ، وكانوا

على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أي معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : { سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا } . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار { أُرْكَسُوا فِيهَا } . أي فشلوا في الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، وما زالوا في حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما في أعماقهم ازدادت حيرتهم ، فالفتنة هي اختبار ، وليست الفتنة شيئاً مذموماً ، وعندما يقال : إن فلانا في فتنة فعلى المؤمن أن يدعو بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسان في الفتنة . ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسي ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هي صهر الذهب في البوتقة حتى ينصهر؛ فتطفو كالزبد كلُّ العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنفصل الذرات المتماسكة بعضها عن بعض . ويطفو الخبث . ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا خبث فهو صلب . وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من الخسرات إلى المعاني ، وصارت الفتنة هي الاختبار الذي ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهي ليست ضارة في ذاتها ، ولكنها ضارة لمن يرسب فيها . وهكذا كان تنبؤ القرآن الذي يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، تجعلهم الفتنة لا يقوون على الإيمان ، أي فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتال المسلمين رُدُّوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًّا من كل عدو عليكم ، ويشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين في الفتنة : { فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا فَمِنْكُمْ السُّلْطَانُ وَإِنْ كَفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } ونلاحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال في الآية السابقة :

{ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا } [ النساء : 90 ] .

وهذا إنصاف وتنبية إلهي من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء . أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلقوا بالسلم للمسلمين ويكفوا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأتي فيهم الأمر الإلهي : خذوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطان المبين . والسلطان – كما نعرف – هو القوة ، والقوة تأخذ لونين : هناك قوة تقهر الإنسان على الفعل كأن يأتي واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأن يأمر القوي الضعيف بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذي يقهر القالب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثاني هو سلطان الحجة ،

وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التي تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالافتناع . والسلطان المبين الذي جعله الله للمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تفعلون بها ما تريدون من هؤلاء ما داموا حاولوا القتال وإلحاق الأذى بالمسلمين ، فالجزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحتى نفهم معنى السلطان جيداً فلنتذكر الجدل الذي سيحدث في الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سنجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم ، هذا صحيح ، وأنتم اتبعتموني ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لي عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع : { وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } [ إبراهيم : 22 ] .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال ومشروعيته ، وقاتل المنافقين ، وقاتل الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . فأوضح لهم : المسألة أنني أنا الذي عملت البنيان الآدمي ، والحياة أنا الذي أهبها ، وليس من السهل لباني البنيان أن يحرص على هدمه ، إنما أنا أحرص على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم؛ لكي يسلم باقي البنيان لكم ، وإياكم أن تجترئوا على بنيانات الناس ، فملعون من يهدم بنيان الله؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الحياة وهو الذي يأخذ الحياة ، وحياة الناس ليست ملكاً لهم؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً ، عُذواناً دون حق نقص منه ، وأما إن كان ذلك قد قتل خطأ فناًخذ منه الدية ، وتنتهي المسألة . لكن قاتل نفسه تحرم عليه الجنة .

إذن فقبل أن يقول لي : لا تقتل غيرك قال لي : إياك وأن تقتل نفسك . إذن فسبحانه ليس بغيور فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فحين شرع سبحانه القصاص في القتل شرعة ليحميك لا ليجرئك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه : أن من قَتَلَ يُقْتَل . فهو يقسط و يعدل ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين؛ لأنك إن علمت أنك إن قَتَلْتَهُ قُتِلْتَ لا تقتل .

وما دمت لا تقتل فقد حميت حياتين حياة من كنت ستقتله وحياتك من أن يُقتص منك وهذا هو معنى قوله : { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [ البقرة : 179 ] .

إذن فالذي يتفلسف ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذي يشرع القصاص أيريد أن يقتل؟ لا ، بل يريد أن يحمي حياتك؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قَتَلَ يُقْتَل فلا يقتل ، وما دام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياة الآخر . إذن فقوله : { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ } قول صدق .

وعندما تكلم الحق عن القتال والقتل بينهما : إياكم وأن تجترئوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل الخطور في الإيمان والإسلام ويقول : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَفْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً . . . } .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَفْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)

جاء هذا القول بعد أن تكلم سبحانه عن القتال لتثبيت أمر الدعوة ، ولما كان القتال يتطلب قتل نفس مؤمنة نفساً كافرة ، ناسب ذلك أن يتكلم الحق سبحانه عن القتل . والقتل - كما نعلم - محاولة إزهاق روح الحي بنقض بنيته . والحي وإن لم ينقض بنيته حين يأتي أجله يموت . إذن فنقض البنية من الإنسان الذي يريد أن يقضي على إنسان عمل غايته إنهاء الحياة ، فلا يظن ظان أن القاتل الذي أراد أن ينقض بنية شخص يملك أن ينهي حياته ، ولكنه يصادف انقضاء الحياة ، فالذي ينهي الحياة هو الحق سبحانه وتعالى . ولذلك قلنا : إن الجزاء إنما وقع على القاتل لا لأنه أमत القتل ولكن لأن القاتل تعجل في أمر استأثر الله وحده به ، والقتيل ميت بأجله ، فالحق سبحانه وتعالى هو الذي استخلف الإنسان في الكون ، والاستخلاف شرحة الحق في قوله : { واستعمركم فيها } [ هود : 61 ] .

فالله هو الذي جعل الإنسان خليفة في الكون ليعمر هذا الكون ، وعمارة الكون تنشأ بالتفكير في الارتقاء والصالح في الكون ، فالصالح نتركه صالحاً ، وإن استطعنا أن نزيد في صلاحه فلننفع .

الأرض - على سبيل المثال - تنبت الزرع ، وإن لم يزرعها الإنسان فهو يجد زرعاً خارجاً منها ، والحق يريد من الإنسان أن ينمي في الأرض هذه الخاصة فيأتي الإنسان بالبذور ويحراث الأرض ويزرعها . فهذا يزيد الأمر الصالح صلاحاً . وهذا كله فرع وجود الحياة . إذن فالاستخلاف في الأرض لإعمارها يتطلب حياة واستبقاء حياة للخليفة . وما دام استبقاء الحياة أمراً ضرورياً فلا تأتي أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لتنهى حياته فتعطل إحياء للأرض واستعمارها لها . فالقتال إنما شرع للمؤمنين ضد الكافرين؛ لأن حركة الكافرين في الحياة حركات مفسدة ، ودرء المفسدة دائماً مقدم على جلب المصلحة . فالذي يفسد الحياة يقاتله المؤمنون كي ننهي الحياة فيه ، ونُحَلِّص الحياة من معوق فيها .

إذن فيريد الحق أن تكون الحياة لمن تصلح الأرض بحياته . والكافرون يعيشون في الأرض فساداً ، ويعيشون على غير منهج ، ويأخذون خير الضعيف ليصيروا هم به أقوىاء ، فشرع الله القتال إما

ليؤمنوا فيخضعوا للمنهج ، وإما ليخلص الحياة من شرهم . فإذا ما وجه الإنسان القتل لمؤمن - وهو في ذاته صالح للاستعمار في الحياة - يكون قد جنى على الحياة ، وأيضاً لو قتل الإنسان نفسه يكون قد جنى على الحياة كذلك ، لماذا؟ لأنه أفقد الحياة واحداً كان من الممكن أن يعمر بحركته الأرض .

فإن اجتراً على حياته أو على حياة سواه فلا بد أن نؤدبه . كيف؟ قال سبحانه : { والذين كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِّمِّثْلَهَا } [ يونس : 27 ] .  
والتشريع الإسلامي وضع للقاتل عن سبق إصرار وترصد عقاباً هو القتل . وبذلك يحمي التشريع الحياة ولا ينمي القتل ، بل يمنع القتل .

إذن ، فالحدود والقصاصات إنما وضعت لتعطي الحياة سعة في مقوماتها لا تضيقها في هذه المقومات ، والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن القتال المشروع أراد أن يوضح لنا : إياكم أن تتعدوا بهذه المسألة ، وتستعملوا القتال في غير الأمر المشروع ، فإذا ما اجتراً إنسان على إنسان لينهي حياته في غير حرب إيمانية شرعية فماذا يكون الموقف؟  
يقول التشريع : إنه يقتل ، وكان يجب أن يكون في بالك ألا تجترى على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك ، ولكن إن أنت فعلت خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل . فماذا يكون الأمر؟ هناك منفعل لك وهو القتل وأنت القاتل ولكن لم تكن تقصده ، هما - إذن - أمران :  
عدم القصد في ارتكاب القتل الخطأ ، والأمر الثاني هو حدوث القتل .

يقول التشريع في هذه المسألة : إن القاتل بدون قصد قد أزهق حياة إنسان ، وحياة هذا الإنسان لها ارتباطات شتى في بيئته الإيمانية العامة ، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كعائلته ، العائلة له أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع ، فكم دائرة إذن؟ دائرة إيمانية عامة ، ودائرة الأهل في عمومها الواسع ، ودائرة الأسرة ، ودائرة خصوصية الأسرة في الأصل والفرع . وحين تنهي حياة إنسان في البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بنقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج الله ومفيد في حركته؛ لأن الدائرة الإيمانية فيها نفع عام .  
لكن دائرة الأهلية يكون فيها نفع خاص قليلاً والدائرة الأسرية نجد أن نفعه فيها كان خاصاً بشكل ما ، وفي الأصل والفرع نجده نفعاً مهماً وخاصاً جداً . إذن فهذا القتل يشمل تفرعاً لبيئة عامة وليئة أسرة وليئة أصل وفرع .

ولذلك أريد أن تلاحظوا في أحداث الحياة شيئاً يمر علينا جميعاً ، ولعل كثيراً منا لا يلتفت إليه ، مع أنه كثير الحدوث ، مثلاً : إذا كنا جالسين في مجتمع وجاء واحد وقال : « فلان مات » ، وفي هذا المجتمع أناس يعرفونه معرفة عامة . وآخرون يعرفونه معرفة خاصة ولهم به صلة ، وأناس من أهله ، وفيه والد الميت أو ابنه ، انظروا إلى أثر النعي أو الخبر في وجوه القوم ، فكل واحد

سينفعل بالقدر الذي يصله ويربطه بمن مات . فواحد يقول : « يرحمه الله » وثانٍ يتساءل بفرع : « كيف حدث ذلك »؟ وثالث يبكي بكاءً مرّاً ، ورابع يبكي جاريّاً ليرى الميت . والخبر واحد فلماذا يتعدد أثر وصدى الانفعالات ، ولماذا لم يكن الانفعال واحداً؟  
نقول : إن الانفعال إنما نشأ قهراً بعملية لا شعورية على مقدار نفع الفقيده لمن ينفعل لموته؛ فالذي كان يلتقي به لِمَماً ويسيراً في أحيان متباعدة يقول : « رحمه الله » . والذي كان يجالسه كل عيد يفكر في ذكرياته معه ، وحتى نصل إلى أولاده فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذي يدرس ، أو البنت الصغيرة التي مازالت تتلقى التعليم ، هؤلاء الأولاد يختلف تلقيهم للخبر بانفعالات شتى ، فالابن الذي له أسرة وله سكن يتلقى الخبر بانفعال مختلف عن الابن الذي مازال في الدراسة ، وانفعال الابنة التي تزوجت ولها أسرة يختلف عن انفعال الابنة التي مازالت لم تجهز بعد .

إذن فالانفعال يحدث على مقدار النفعية ، ولذلك قد نجد على صديق أكثر مما نجد على شقيق . وقالوا : من أحب إليك ، أخوك أم صديقك؟ . قال : النافع . إذن تلقى خبر انتهاء الحياة يكون مختلفاً ، فالحزن عليه والأسف لفراقه إنما يكون على قدر إشاعة نفعه في المجتمع . وهناك واحد يكون وطنه أسرته يعمل على قدر نفعها ، وواحد يكون وطنه عائلته وقريته ، وواحد وطنه أمتة . وواحد وطنه العالم كله . إذن فعندما يفجع المجتمع في واحد فالهزة تأتي على قدر وطنه ، وعندما يفاجأ الناس بواحد يُقتل عن طريق الخطأ فالفاعل معذور . ولكن عذره لم يمنع أن تعدى فعله وأن الآخر قد قتل؟ . فالأثر قد حصل ، وتحديث الهزة للأقرب له في الانتفاع ، ولأن القتل خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته؛ لأن هناك قاعدة تقول : « بسط النفع وقبض الضرر » . إنك ساعة ترى شيئاً سينفعلك فإن النفس تنبسط ، وعندما ترى شيئاً سيضرك فإن النفس تنقبض . وعندما يأتي للإنسان خبر موت عزيز عليه فإن نفسه تنقبض ، وساعة يأتيه من بعد ذلك خير وهو حصوله على جزء من دية القاتل فالنفس تنبسط ، وبذلك يتم علاج الأثر الحادث عن القتل الخطأ .

والدية بحكم الشرع تأتي من العاقلة ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم وهم بذلك يفرعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة في الدية . كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التي صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن في المجتمع . فمن يقتل خطأ لا يقتص منه المجتمع ولكن هناك الدية . ومن أجل إشاعة المسؤولية فالقاتل لا يدفعها ، ولكن تدفعها العاقلة؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من يجني من أهلها جناية وأنها ستتحمل معه فإنها تعلم أفرادها في صيانة حقوق غيرهم؛ لأن

كل واحد منها سيدفع ، وبذلك يحدث التوازن في المجتمع .  
والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نستبعد أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا عن خطأ ، فلا يستقيم أن يحدث ذلك عمداً فيقول : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً } ومعنى هذا أن مثل هذا القتل لا يصح أن يحدث عن قصد؛ لأن اللحمة - بضم اللام - الإيمانية تمنع هذا .

لكن إن حدث هذا فما العلاج؟ . { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ } .

ولا يذكر سبحانه هنا القصاص ، فالقصاص قد تقدم في سورة البقرة في قوله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى } [ البقرة : 178 ] .  
والقصاص حق الولي فله أن يعفو أو أن يأخذ الدية ، كأن يقول : عفوت عن القصاص إلى الدية . ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص . فالقصاص حق الولي ، والحد حق الله . وللولي أن يتنازل في القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق الله .

إذن فالقتل الخطأ قال فيه : { فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة؟ . هل يعود ذلك على أهل القتل بسط في النفعية؟ . قد لا تفيدهم في شيء ، لكنها تفيد المجتمع؛ لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمة هو مملوك لسيدته ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون العبد حرّاً فهو حر الحركة؛ فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفي حريته حركة مفيدة للمجتمع .

إذن فالقبض الذي حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط في حرية واحد كان محكوماً في حركته فنقول له : انطلق في حركتك لتخدم كل مجتمعك . ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التي جعلها الإسلام لذلك .

وبعد هذا القول { وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ } لكي تصنع البسط في نفوس أهله ليعقب القبض نتيجة خبر القتل . ولذلك نجد أسرة قد فجعت في أحد أفرادها بمحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن في ذلك شيئاً من السلوى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مزهوداً فيها لقالوا : « نحن لا نريد ذلك » ، ولكن ذلك لا يحدث .

وبعد ذلك نجد الذي فقد حياة حبيب لا يظل في حالة حزن ليفقد حياة نفسه ، ففي الواقع يكون الحزن من الحزين على نفسه بمقدار ما فات عليه من نفع عندما قُتل له القليل ، والحزين إنما حزن لأن القليل كان يثري حياته ، فلما مات صارت حياة النفع منه بلا إثراء .  
ولو رأينا إنساناً يحزن لفقد واحد وقلنا له : احتفظ بجثمانه لمدة أسبوع لترتوي من أشواقك إليه ،

وبعد ذلك تأخذه منك لندفنه أيرضى؟ . لن يرضى أبداً بذلك . أو نقول للحزين : « لن نقدم لك طعاماً لمدة أسبوع لأنك في حالة حزن هنا لن يوافق الحزين ، وزوجة الفقيد تذرّف عينها الدمع وتبكي عليه لكنها تأكل وتشرب .  
إذن فالمسألة يجب أن تكون واضحة لاستقبال أقضية الحق وهي أقضية لا تنقض نواميس الله في الكون .

وبعد ذلك يريد الحق أن يشيع التعاطف بين الناس ، فإذا قال أهل القتل لأهل القاتل : نحن لا نريد دية ، لأن مصيبتكم في القتل مثل مصيبتنا فيه ، وكلنا إخوة فما الذي يجري في المجتمع؟ . الذي يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤدية الدية ، إذن فهذا تريبب للدية ، فساعة يعرف الطفل في العائلة أنه كان مطلوباً منهم دية لأن أباه قد قُتل ، وعفا أهل القتل فلم يأخذوا الدية ، هذا الطفل سيعرف عندما يَشَبُّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتج من هذا العفو وهذه العفة ، فيحدث الود .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربب إشاعة المودة والصفاء والنفعية . فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فينتفع ، وإن لم يأخذها فهو ينتفع أكثر؛ لذلك يقول الحق : { وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا } .

وهذا ما يحدث إذا ما قتل مؤمن مؤمناً خطأ في بيئة إيمانية ، ولكن ما الذي يحدث عندما يتم قتل مؤمن لواحد من قوم أعداء والمقتول مؤمن ويعيش بين الكفار؟ . ها نحن أولاء نرى عدالة التشريع الإلهي ، وحتى نزداد يقيناً بأن الله هو رب الجميع؛ لذلك قال الحق : { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } أي كان المقتول من قوم في حالة عداة مع المسلمين فهو لا يستحق الدية؛ لأنه يحيا في قوم كافرين .

هكذا نجد التشريع هنا قد شرع لثلاث حالات : شرع لواحد في البيئة الإيمانية ، وشرع لواحد مؤمن في قوم هم أعداء للمؤمنين ، وشرع لواحد قد قُتل وهو من قوم متحالفين مع المسلمين . وكل واحدة لها حكم ، والحكم في حالة أن يكون القتل من قوم بينهم وبين المسلمين عداة وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وذلك للتعويض الإيماني فينطلق عبد كان محدود الحركة لأنّ هناك من مات وانتهت حركته ، وفي هذا تعويض للمجتمع عندما تشيع حركة العبد . وماذا نفع في الدية؟ لا يأخذون الدية؛ لأن الدية موروثة ، وهم من الكفار وليس بين الكفار والمسلمين توارث أي فليس هنا دية .

وعندما ننظر إلى قول الحق : { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } نجد أن كلمة « عدو » مفردة في ذاتها ، ولكنها تشمل كل القوم ، وفي اللغة نقول : « هو عدو » و « هما عدو » و « هم عدو » وإن تنوعت عداوتهم فهم أعداء ، ولكن عندما يتحد مصدر العداة فهم عدو واحد . والحق

يقول : { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } ولم يورد سبحانه هنا الدية لأن القوم على عداء للإسلام فلا دية لهم؛ لأنه لا توارث .

ويقول الحق : { وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من اليهود فلا بد من الوفاء .

هذا الوفاء يقتضي تسليم دية لأهله؛ لأن هذا احترام للعهد ، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم . . . .  
والدية - كما نعلم - تدفعها العاقلة ، ويقول الحق في بيان حق الله في أمر القتل الخطأ : { وَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ } أي فمن لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشرائها فصيام الشهرين بكل أيامهما ، فلا يفصل بينهما إلا فاصل معذر كأن يكون القاتل - دون قصد - على مرض أو على سفر . وبمجرد أن ينتهي المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم .

ولماذا هذا التتابع الحكمي؟ . لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المسألة شاغلة لذهن القاتل ، وما دامت تشغل ذهنه فالصيام لا بد أن يكون متتابعاً ، فلو لم يكن الصيام متتابعاً لأصاب القاتل غفلة . { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ } .

ولماذا قال الحق : { تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ } ؟ . والتوبة - كما نعرف - قد تكون من العبد فنقول : « تاب العبد » .

وقد تسند التوبة إلى الحق فيقال : « تاب الله عليه » ومراحل التوبة ثلاث : حين يشرع الله التوبة نقول : تاب الله على العباد فشرع لهم التوبة فلا أحد يتوب إلا من باطن أن الله شرع التوبة؛ لأنه لو لم يشرع الله التوبة لتراكمت على العباد الذنوب والخطايا .

وتشريع التوبة هو تضييق شديد لنوازع الشر ، فلو لم يشرع الله التوبة لكان كل من ارتكب ذنباً يبعث في الأرض بالفساد ، فحين شرع الله التوبة عصم المجتمع من الأشرار . فلأنه شرع التوبة ، فهو - سبحانه - يتوب ، هذه هي المرحلة الأولى . وما دام الله قد شرع التوبة فالمذنب يتوب ، هذه هي المرحلة الثانية ، وساعة شرع الله التوبة ويتوب المذنب فالله يقبل التوبة ، هذه هي المرحلة الثالثة .

وهكذا نرى دقة القرآن حين قال : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [ التوبة : 118 ] .

وبعد أن يتوبوا فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

إذن فالتوبة الأولى من الله تشريع . والتوبة الثانية من الله قبول ، والوسط بينهما هي توبة الإنسان .

ويذيل الحق الآية : { تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } فسبحانه يشرع التشريع الذي يجعل

النفوس تحيا في مُناخ طبيعي وفي تكوينها الطبيعي ، فلو تصورنا أن إنساناً قد قُتل خطأ وتركنا أهل المقتول بلا ترضية فلن يستفيد المجتمع الإيماني من قتله .

إذن فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل خطأ يُفيد المجتمع الإيماني بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية؛ لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة في الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة؛ لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرها عاماً .

وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لننشرها على كل مفرغ في منفعتة فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا نجمع عليهم مصيبتين القتل الذي قام به أصلهم أو فرعهم؛ لأن ذلك - لا شك - سيصيبهم بالفرع والخوف عن والاشفاق على مَنْ جنى منهم . وأن يشتركوا في تحمل الدية . وذلك العمل ناشيء عن حكمه . فإذا كان الذي يضع الأشياء في موضعها هو خالقها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور .

وفي المجال البشرى نجد أن أي آلة من الآلات - على سبيل المثال - مكونة من خمسين قطعة ، وكل قطعة ترتبط بالأخرى بمسامير أو غير ذلك ، وما دامت كل قطعة في مكانها فالآلة تسير سيراً حسناً ، أما إذا توقفت الآلة فإننا نستدعي المهندس ليضع كل قطعة في مكانها ، وكل شيء حين يكون في موضعه فالآلة تمشي باستقامة ، وكل حركة في الوجود مبنية على الحكمة لا ينشأ فيها فساد؛ فالفساد إنما ينشأ من حركات تحدث بدون أن تكون على حكمة . والحكمة مقولة بالتشكيك ، فهناك حكيم وهناك .

أحكم . وقديماً - على سبيل المثال - كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها « ماس » كهربائي . وعندما اكتشفنا العوازل استخدمناها وعدلنا من تصنيعنا للأشياء . وكنا نجد الأسلاك في السيارة - مثلاً - ذات لون وحجم واحد ، فكان يحدث الارتباك عند الإصلاح ، لكن عندما تمت صناعة كل سلك بلون معين ، فسهل هذا عملية الإصلاح . فالحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، فما بالنأ حين يكون من يضع الشيء في موضعه هو خالقنا؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك .

فإذا ما رأينا خللاً في المجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله . وعندما نبحث عن العطب سوف نجده ، تماماً مثلما تبحث عن العطب في أي آلة وتأتي لها بالمهندس الذي يصلحها . ويجب أن نرده إلى من خلق المجتمع ، ونبحث عن علاج الخلل بحكم من أحكام الله . ولذلك أرشدنا الحق إلى أننا إن اختلفنا في شيء فلنرده إلى الله وإلى الرسول حتى لا نضل في تعب . وبعد ذلك يتكلم الحق عن القتل العمد ، وقد يقول قائل : أما كان يجب أن يحدثنا الله عن القتل العمد أولاً؟ ونقول : الحق لو تكلم عن القتل العمد أولاً لكان ذلك موحياً أنه يحدث أولاً ،

ولكن الحق يوضح : لا يصح أن تأتي هذه على خيال المؤمن .

ويسأل سائل : لماذا لم يقل الحق : « وما كان لمسلم » . ونقول : يجب أن ننتبه إلى أن الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبي ، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين؛ لأن الإسلام أمر ظاهري ، فقد يقتل إنسان يتظاهر بالإسلام إنساناً مؤمناً . لهذا نادى الحق بالنداء الذي يشمل المظهر والجوهر وهو الإيمان .  
وحين يشع الحق فلا بد أن يأتي بالجزاء والعقاب للذي يقتل عمداً . وهو يقول : { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا . . . } .

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا  
(93)

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذي لا يدري به القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً . هكذا يبشع الحق لنا جريمة القتل العمد . لأن التعمد يعني أن القاتل قد عاش في فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال في القانون : « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أي أن القاتل قد عاش القتل في تخيله ثم فعله ، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الديني ، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة ، وما دام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فلو جاء الله في باله لتراجع ، وما دام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته .

{ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا } وقالوا في سبب هذه الآية : إن واحداً اسمه مقيس بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً في بني النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة . فلما وجد هشاماً قتيلاً ذهب مقيس إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بني فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مقيس قاتل أخيه ، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلا ، ولكننا نؤدي الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة فعدا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتدداً وجعل ينشد :

قتلت به فهراً وحملت عقله ... سراة بني النجار أرباب فارع  
حللت به وترى وأدركت ثورتي ... وكنت إلى الأوثان أول راجع  
فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر دمه » أباح دمه ، أي أن من يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد « مقيس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمي بها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } .

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب : جزاء جهنم ، خُلود في النار ، غَضَب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكأن جهنم ليست كل العذاب؛ ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيد بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض عن أن هناك ألواناً متعددة من العذاب . وفي الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل هذا القاتل توبة؟ واختلف العلماء في ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن العباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله : ألقاتل عمداً توبة؟ قال ابن العباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العباس : ألقاتل عمداً توبة؟ فقال ابن العباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن العباس : سائلي أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سائلي ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول أرهبته والثاني لم أقتطه من رحمة الله .

وكيف فرق ابن العباس بين الحالتين؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التي يبسطها الله على المفتي . فساعة يوجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته يسأله واحد قائلاً : « أي الإسلام خير »؟ فيقول صلوات الله عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . . ويسأله عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : « أي الأعمال أفضل؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك » .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكير حول نصها « فجزاء جهنم خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد . . بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهي؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهي لما وصف الحق المكث في النار مرة بقوله : { خَالِدِينَ فِيهَا } [ آل عمران : 88 ] .

ومرة أخرى بقوله : { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } [ النساء : 169 ] .

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد في « أبداً » فيه ملحوظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشيء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منز

عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طويلاً لا ينتهي ، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين » حين وردت في القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في خلود النار : { يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ \* فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ \* خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ }

[ هود : 105-107 ] .

فكان الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود : { إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ } تفيد أن الخلود عندهم تنتهي . ما دام هناك استثناء؛ فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيدياً .

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفي هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد في العصر العباسي هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المنتسبين إلى العلم : « كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد » وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلق على صغائر الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأي ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية : كنت في مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول : « يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي : لم قلت بأن قاتل العمدة لا توبة له . قال : فقرأت الآية : { فَجَزَأُوهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا } وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذي جاءه أو الرؤيا التي أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بألا توبة لقاتل العمدة ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمدة توبة؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب في ذلك .

نقول ذلك لنعرف أن الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذي علم عليماً . . ولكن عمراً ذكر ما جاء في قول الحق : { فَجَزَأُوهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا } . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سنًا ، فقلت له : لو كنت معك لقلت كما قلت : { فَجَزَأُوهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا } وقلت أيضاً : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [ النساء : 48 ] .

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت : ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد . ماذا تفيد هذه؟ . تفيد ألا نأخذ كلمة { خَالِدًا فِيهَا } بمعنى التأبيد الذي لا نهاية له؛ لأن الله قد استثنى من الخلود في آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمدة والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن

هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أي أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتي إنسان إنساناً آخر ويضربه بآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التي لا تقتل غالباً ، وقال العلماء : القتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثتكم عن القتل بكل صورته وألوانه سواء أكان القتل مباحاً كقتل المسلمين الكافرين في الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينهنا : يجب أن تحتاطوا في هذه المسألة احتياطاً لتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ . . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)

فياأيها المؤمنون حين تضربون في سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعمل سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تثبتوا : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعاني ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يبدأها بقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } ، والخطاب الإيماني حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا } ، فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وما داموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك في متاهة . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو في أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شيء ، ولذلك نقول : الشيء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى الآن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يجلل الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر - على سبيل المثال - نجده قد تليف ، وأن أي جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر . لماذا امتنع؟ . لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهي؟ . لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حُرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى في الأشياء غير الضارة ، فمن الذي قال : إن الله لا يجرم إلا الشيء

الضار؟ إنه قد يحرم أمراً تأديباً للإنسان . ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد الزوج يقول لزوجته : إياك أن تعطي ابناً بعضاً من الحلوى التي أحضرتها . هو يحرم على ابنه الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } [ النساء : 160 ] . فالذي يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمة الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير في كثير من الأوقات حكمته في الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللانهائية لحكمة الله التي خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف في حكمة كذا ، ثم بينت لي الأحداث والأيام صدق الله فيما قال .

وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلم بها .  
والحق يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } والإيمان هو الحيثية ، يا من آمنت بي إلهاً قادراً حكيماً . .  
اسمع مني ما أريده منك : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } والضرب - كما نعرف - هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة . وقوله : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ } [ النساء : 101 ] .

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب في الأرض؟ . لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يجبون أن يُخرجوا خيراتها؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها ، ويرموا البذور ، وبعد ذلك الري . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هي عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة ، والحق يقول : { وَأَخْرُوجُ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ } [ المزمل : 20 ] .

وما دامت المسألة ضرباً في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .  
ولذلك يقال : الأرض تحب من يهينها بالعزق والحراث . وكلما اشتدت حركة الإنسان في الأرض أخرجت له خيراً . والضرب في سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ } [ الأنفال : 60 ] .

فالإعداد هو أمر يسبق المعارك ، وكيف يتم الإعداد؟  
أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد العُدَد .  
والعدد تحتاج إلى بحث في عناصر الأرض ، وبحث في الصناعات المختلفة لاختار الأفضل منها .  
وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصناعة . ولذلك يقال في الأثر الصالح :  
« إن السهم الواحد في سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذي يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان

وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الإمام ، وهناك واضع النبل ، وهناك من يرمي السهم بالقوس

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قويا ، فيقول : { إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا } ونعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة؛ لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . و « تبيينوا » تعني ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تثبتتم وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم

ولهذا الأمر قصة ، « كان هناك رجل اسمه « محلم بن جثامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأضبط الأشجعي » إحن - أي شيء من البغضاء - وبعد ذلك كان « محلم » في سرية ، وهي بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعي » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلم » فقال « محلم » : « إن عامراً قد أسلم ليهرب مني . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تبيين؟ . ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنه يقول : « السلام عليكم » لينتقد نفسه من القتل؟ فقال : « محلم » : استغفر لي يا رسول الله .

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لي يا رسول الله . فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حال طالب الاستغفار ، فإن قال رسول الله : « غفر الله لك » فهو يعلم أنه كان معذوراً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و « عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك »؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإحن والبغضاء هي التي جعلته لا يدقق في أمر « عامر » .

وقال الرواة : ومات محلم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : « إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صديفي جبل وألقوا عليه الحجارة » .

وعندما كانت تأتي آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبي يريد ألا يفتتن الناس في هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبي . . انكسفت الشمس . . وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبه قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله » .  
لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتتن أحد ولا يقولن أحد . إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لمثلها ، ولو لم يقل ذلك ، فماذا كان يحدث؟ . قد تحدث هزة قليلة في جزئية ولظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، وكان أبو جهل في حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور في وضعها الصحيح؛ لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألا يعودوا .  
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا } .

وعلى ذكر ذلك قال لي أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا ( فتبتوا ) بدل من ( فتبينوا ) في قوله الحق : { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } [ الحجرات : 6 ] .  
وأقول : هذه قراءة من القراءات ، والمعاني دائماً ملتقبة ، ف « تين » معناها « طلب البيان ليثبت » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذا حال غير حالنا؛ حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة . ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة الصورة . ف « الباء » تتشابه مع كل من « الياء » ، وال « نون » وال « تاء » وال « ثاء » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفي ، وكانوا يقرأون من ملكة العربية ومن تلقين واتباع للوحي ، ولذلك : « فتبينوا » ممن تتكون؟ تتكون من : « ال » فاء « ولم يحدث فيها خلاف ، وال « تاء » وبقية الحروف هي ال « باء » وال « ياء » وال « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تبينوا » ، إنه خلاف في النقط . ولو حذفنا النقط لقرآناها على أكثر من صورة ، والذي نتبعه في ذلك هو ما ورد عن الوحي الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : ( صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة ) .

ولم يحدث خلاف في ال « صاد » ولكن حدث خلاف في ال « باء » فهي صالحة لتكون باءً أو نوناً ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عيناً » وقراءة هذه الآية في قراءة « حفص » . {

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً { [ البقرة : 138 ] .

وعندما قرأها الإنسان الذي لا يجيد حفظ القرآن قال : ( صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة ) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحي الذي نزل به جبريل - عليه السلام - من عند الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركاناً هي :  
1 - أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .

2 - أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .

3 - أن يصح إسنادها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق يقيني متواتر لا يشتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي

وصح إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى : { قَالَ عِزَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ } [ الأعراف : 156 ] .

هذه هي قراءة « حفص » وقرأ الحسن : ( قال عِزَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهي من الإساءة فيها ملحوظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُفَرِّقُ مرة « فتثبتوا » ومرة تَقْرَأُ « فتبينوا » ، سواء في هذه الآية التي نحن بصدددها ، أو في الآية التي يقول فيها الحق : { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَبَيَّنُوا } [ الحجرات : 6 ] .

و « التبين » القصد منه التثبت ، والتبين يقتضي الذكاء والفطنة فيرى ملامح إيمان من ألقى إليه

بالسلام : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ } [ النساء : 94 ] .

فالمسلم يجب أن يفطن كيلاً يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبي يجزم الأمر مع أسامة بن زيد الذي قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه » .

ويقول إسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمني نفسه من الموت . وتكون الإجابة : هل

شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله؟! فلقول : « لا إله إلا الله » حرمة .

وقد روى أن الذي نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضي الله عنهما { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا } وقال : كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا

غنيمته ، فأنزل الله في ذلك : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا } .

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق .

وجاء في بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيما رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضي

الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ، والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لي المقداد .

يا مقداد أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا؟ قال : فأنزل الله {

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ {

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ

مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } و « ألقى إليكم السلام » يعني جاءكم مستسلماً ، أو قال

تحية المسلمين ، وليس من حق أن يلقي الاتهام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول

بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها في المعنى اللغوي : كل ما يعرض ويزول وليس له

دوام أو استقرار أو ثبات . ونحن البشر أعراض؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان

عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون؛ لأن الكون لا يتم بناؤه على الإنسان؛

فالكون كله الذي نراه هو عرض وسيأتي يوم ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة

عرضاً وكذلك المرض ، وكذلك السمنة والنحافة ، ولون البشرة إذا ما لوحته الشمس قد يتغير

أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر . وكل شيء يمكن أن يذهب في الإنسان ويحيى هو عرض

بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له . فإذا قسنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه

، فالإنسان عرض ، فهذا أمر نسبي ، وإلا فكل شيء عرض ، وكل شيء زائل { ويبقى وَجْهُهُ

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } .

{ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } . وعرض الحياة

الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيما يملكه الذي يلقي السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا -

هنا - هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحن أو بغضاء .

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض في « الحياة الدنيا » نفهم - إذن - أنه عرض فيما لا

قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده ،

وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أي للذهاب عن الدنيا فيقول :  
نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة ... فكيف آسى على شيء لها ذهباً  
وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهى من « الدنو »  
ومقابلته « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقَوِّم عرض الحياة الدنيا التقويم  
الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفتنة؛ لذلك لا يأخذ هذا العرض ممن سيقتله عندما يلقي  
إليه بالسلام؛ لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها .

والعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان  
مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه؛ بدليل أنه معرض للقتل .  
{ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ } والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس  
البشرية التى خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التى تنفعها أو تطيل نفعها ، مثال ذلك : أن  
الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غداه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغداء والعشاء ،  
ويكون أكثر سعادة واطمئناناً عندما يملك فى مخزن طعامه ما يقيت شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر  
إشراقاً عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويجب امتداد حياته فى غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا  
يكون له أولاد؛ فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة فى ابنه  
، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر؛ لأن ذكره يوجد فى جيلين . ونقول  
لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك فى الآخرة ، ألا تُنْشَى  
ولذلك على الصلاح حتى يدعو لك؟

ولذلك يفاجئ الحق النفس البشرية التى تهفو إلى المغام ، ويكشفها أمام صاحبها ، فىأتى بالحكم  
الذى يُظهر الخواطر التى تجول فى النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يُحرم دخول  
المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام  
بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادي يبيعون فيه البضائع التى يعيشون  
من ريعها وربحها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن  
أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال : { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ  
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [ التوبة : 28 ] .

وقبل أن يقول أهل الحرم فى أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا؟ ، يتابع سبحانه : { وَإِنْ  
خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [ التوبة : 28 ] .

وبذلك يكشف الحق أمام النفوس خواطرها الدفينة؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذى  
سيحدث فى أذهان سامعيه؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق!

وقوله الحق : { تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ينطبق في كل عصر وفي كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : { فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَاثٌ كَثِيرَةٌ } . فسبحانه الرزاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومسكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [ التوبة : 28 ] .

وكذلك قول الحق : { تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَاثٌ كَثِيرَةٌ } [ النساء : 94 ] . لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلنفتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : { كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } . وفي هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجعوا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذي يلقي السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذي ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين .

وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تداري إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترئ على التفتيش على النوايا؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم . { كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } والحق يمين عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشي عزيز الجانب ولا يجروء واحد أن يوجه إليه أي شيء . ويأتي سبحانه هنا بكلمة « فتبينوا » مرة أخرى بعد أن قالها في صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام مجرد أن المسلم يفكر في المسألة الاقتصادية ، وها هوذا يعيد سبحانه كلمة « تبينوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحثية ، وهي قوله : { تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } وتأتي هاهنا نتيجة للحثية { فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلاء ، لكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقدن أحد أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا في نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذي يحيا في رحاب المنهج تدين له الدنيا . { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } . كأن الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمراً غير حقيقي؛ لأن الذي تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحسب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذي قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يُسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاً ، وعليه أن يعرف أن الله عليهم بما في النفوس .

ويريد الحق أن يتثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك في إسلامه أو في إيمانه ، وحسبه من التيقن أن يبدأه صاحبه بالسلام ، ويُذكر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كنتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا تمام الثقة أن الله عليم خبير ، لا يجوز عليه - سبحانه - ولا يخفي عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية ليُبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .  
وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية في الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا في اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى الحكم في الآية رقم 92 من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد في سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه : { لَأَيَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . . . } .

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95)

ولهذه الآية قصة . . . واقتناص الخواطر من هذه القصة يتطلب يقظة تعلمنا كيف يخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابه وحي رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللخاف ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :  
- كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيت السكينة - وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحي على رسول الله - فوقع فخذته على فخذي حتى خشيت أن ترُضَّها .  
أي أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحي ساعة كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّما كان يصنع في كيماوية رسول الله تأثيراً مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه؛ لأن الدابة كانت تتط تحتها فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ زيد بن ثابت ، فلا بد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحي . قال زيد : خشيت أن ترُضَّ فخذته فخذي - أي تصيبها بالذق الشديد أو الكسر . فلما سُري عنه قال أكتب : « لَأَيَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ » ، فقال سيدنا ابن أم مكتوم ، وكان - كما نعلم - ضريباً مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله؟

إنها البقطة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستويّاً مع من جاهد ، ولهذا قال قوله اليقظة : فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانيةً ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب :  
{ لَأَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } .  
فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم ، . ولقائل أن يقول : وهل  
كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا؟ .  
ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يبينه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من الله أن يتدبر  
ويتبين موقعه من هذه الكلمة؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن  
ربه فهو يعلمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها . وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأي  
موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريد الحق من خلقه .  
وقال زيد بن ثابت : فكتبتها .

إنها الدقة في أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً { لَأَسْتَوِي  
الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ } ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون » بكلمة «  
المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } فأين تكتب؟  
كأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } بين كلمة { مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ } وكلمة { وَالْمُجَاهِدُونَ } .

قال سيدنا زيد بن ثابت : لقد نزلت { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } وحدها وكأني أنظر إلى ملحقها عند  
صدع الكتف - فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم - والكتف التي كتب عليها سيدنا زيد بن  
ثابت كانت مشروخة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن يبينه المؤمنين إلى أنهم حين يتلقون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية  
بحيث لا تسمع آذانهم إلا ما يمر على عقولهم أولاً ليفهم كل مؤمن موقفه منها ، وقر الآية على  
قلوبهم ثانية لتستقر في ذاتهم عقيدة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحي في هذه الآية :  
{ لَأَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ } .  
وهناك حالات يأتي الفعل فلا يصلح له فاعل واحد بل لا بد له من اثنين . . مثال ذلك عندما  
نقول : تشارك زيد وعمرو . وعندما نصف لاعبي الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد  
الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل .

وعندما يقول الحق : { لَأَسْتَوِي } فهذا يدل على أن هناك شيئاً لا يتساويان ، فأيهما غير  
المساوي للآخر؟ . كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان في الإعراب « فاعلاً » ،  
فلا يساوي المجاهدون القاعدين ولا يساوي القاعدون المجاهدين؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول .  
وعندما يقول : { لَأَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } فما هو مقابل « القاعدين » في الآية

الكريمة؟ إنه « المجاهدون » ، لكن المقابل في الحياة العادية لل « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول . لا يستوي القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوي المجاهدون وغير المجاهدون . فما الحكمة في مجيء القاعدين والمجاهدين؟

إن الحق يريد أن يبين أنه في بداية الإسلام كان كالمؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جندياً في حالة تأهب ، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً؛ فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء ، بل في تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبي النداء ، وكأن القاعد هو الذي ليس من صفوف المؤمنين ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعه طار إليها بينغي القتل والموت مَظَانَّهُ ، أو رجل في غنيمة في رأس شعبة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير » .

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد ، والقاعد - كما نعرف - هو ضد القائم .

والحق يقول : { فاذكروا الله قِيَاماً وَقُعُوداً } [ النساء : 103 ] .

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنىً محددًا ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجُلوس ، ولكن الدقة تقتضي أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائماً فقعد .

وعندما يقول الحق هنا : { لَأَيَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرْرِ } فالقعود مقابل القيام ، فكأن المجاهد حالته القيام دائماً ، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم ، لكنه في انتباه واستعداد . ويوسع الحديث الشريف الدائرة في مسئوليات المجاهد فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة .

وهل كانت هناك مظنة أن يستوي القاعد والمجاهد؟ . لا ، ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام .

ونحن نقول للطالب : « إن من يستذكر ينجح ومن لا يستذكر يرسب » وهذه مسألة بديهية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة في بؤرة شعور التلميذ فيلتفت لمسئوليته .

وعندما يقول الحق : { لَأَيَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرْرِ } والمجاهدون في سبيل الله { هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً في زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد؟ لا ، ولكن الحق يريدنا قضية إيمانية في بلاغ إيماني من الله . وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستوون مع المجاهدين فيقول : { غَيْرُ أُولِي الضَّرْرِ } . والضرر هو الذي يفسد

الشيء مثل المرض ، وهذا ما يوضحه قوله الحق : { لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* } وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } [ التوبة : 91-92 ] .

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرض ضرر ، والذين لا يجدون مالاً ينفقون منه ، ولا الذين يجيئون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يجزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال : { وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } [ التوبة : 92 ] .

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولوا » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق : إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولي ، هم لا يدمعون أمام النبي ، ولكنهم يدمعون في حالة توليهم ، وهذا انفعال نفسي من فرط التأثر؛ لأنهم لا يشتركون في القتال .

وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يصطنعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم؛ لأن الذي يتصنع ذلك يقوم بتعصير عينيه ويبدل جهداً للمراءاة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التي لا يطالب فيها المؤمن بالقتال : { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [ الفتح : 17 ] .  
هؤلاء - إذن - هم أولو الضرر .

{ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } وما داموا لا يستوون فمن الذي فيهم يكون هو الأفضل؟ .

ذلك ما توضحه بقية الآية التي تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : { فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى } . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية؛ لأن كلاً منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر بالحسنى؟ وهنا أقول : علينا أن ننتبه وأن نحسن الفهم والتدبر عندما نقرأ القرآن؛ لأن الذي أصابته آفة فناله منها ضرر ، فصبر لحكم الله في نفسه ، ألا يأخذ ثواباً على هذه؟ .

لقد أخذ الثواب ولا بد - إذن - أن يعطي الحق من لم يأخذ ثواباً مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر

حتى يكون الجميع في الاستطراق الإيماني سواء . لذلك يقول سبحانه :  
{ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى } .

والحسنى في أولى الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التي أصابته ، والذي لم يصب بضرر  
سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .  
{ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } .  
وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففي صدر الآية جاء ب « درجة » أعلى  
للقائم مجاهداً ، وهنا { أَجْرًا عَظِيمًا } . ما تفسير هذا الأجر العظيم؟ . التفسير يجيء في قوله :  
{ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً . . . } .

### دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)

فسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفضل المجاهد في سبيل الله على القاعد من غير أولى  
الضرر درجات عدة . وساعة نسمع كلمة « درجة » فهي المنزلة ، والمنزلة لا تكفي فقط  
للإيضاح الشامل للمعنى ، ولكن هي المنزلة الارتقائية . أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل  
وأدنى ، فنحن نقول : « درجات » ولا نقول :  
« درجات » .

ولكن هل الدرجات هي لكل المجاهدين؟ . لا؛ لأننا لا بد أن نلاحظ الفرق بين الخروج من الوطن  
وترك الأهل للجهاد؛ وعملية الجهاد في ذاتها؛ فعملية الجهاد في ذاتها تحتاج إلى همة إيمانية ،  
ولذلك جاء الحق بنص في سورة التوبة : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ  
يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا  
مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفْرَانَ وَلَا يُنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ  
صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ \* وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا  
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [ التوبة : 120-121 ] .

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع  
رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في  
الشدّة والمشقة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا؛ لأن الثواب كبير ، فلا يصيبهم تعب  
إلا وهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا وهم أجر العمل الصالح ، ولا يسبغون  
في مكان يغيظ الكفار إلا وهم أجر العمل الصالح . ولا ينالون من عدو نيلًا إلا ويكتبه الله لهم  
عملاً صالحاً ، فسبحانه يجزي بأحسن ما كانوا يعملون .

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر  
أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ ، فأخذ درجة النصب أي التعب ، وثالث أصابته مخمصة ،

ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات .

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها : الإصابة بالظماً ، النَّصَب - أي التعب - الجوع ، ولا يطأون موطننا يغيط الكفار أي لا ينزلون في مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويسطون سلطاتهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر ، النَّيْل : التنكيل بالعدو ، النفقة الصغيرة أو الكبيرة ، وقطع أي واد في سبيل الله ، وهذه هي الدرجات السبع التي يجزي الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرها العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات .

وعندما نقرأ الآيتين معاً :

{ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا \* دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } [ النساء : 95-96 ] .

نجد أن الله يُرغَّب المؤمن في أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هي العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيماني؛ لأنه ما دام قد تقع نفسه بالإيمان فلم لا ينضم إلى ركب من ينفع سواه بالإيمان؟ . ويريد الله أن يعبئ كل مَنْ مسَّ الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً في مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وليخرج منضمّاً إلى إخوانه المؤمنين . وليشيع الإيمان لسواه ويعبر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال في سبيل الله . فيأتي القرآن بقطع العذر لأي إنسان يتخلف عن ركب الجهاد في سبيل الله وسبيل نصره دين الله فيقول الحق : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة في الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم . و « التوفي » معناه « القبض »؛ فيقال : « توفيت ديني » أي قبضته مستوفياً . ويقال : « توفي الله الإنسان » أي قبضه إليه مستوفياً . والقبض له أمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهي تنسب مرة لله ، فالله يتوفى : لأنه الأمر الأعلى ، وتنسب

الوفاة للملائكة في قوله : { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [ الأنعام : 61 ] .  
وتنسب الوفاة إلى عزرائيل . { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [ السجدة : 11 ] .  
وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة في وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض  
وتضارب في أساليب القرآن؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التي صنعها الله ، فهو الأمر  
الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده . وفي حياتنا ما يشرح لنا هذا  
المثل - والله المثل الأعلى - فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى  
بيته قائلاً : لقد وجدت نفسي راسباً ، والسبب في ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم  
إنجاحي .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح التي وضعتها الوزارة لتصحيح  
الامتحانات هي التي جعلتك راسباً . فيرد التلميذ : لقد جعلني الناظر راسباً . وهذا قول  
صحيح؛ لأن الناظر يطبق القوانين التي يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحاً أو راسباً .  
وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلني راسباً . وهذا أيضاً صحيح؛ لأن  
الوزير يرسم مع معاونة الخطوط الأساسية التي يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، فإذا قال  
التلميذ : لقد جعلتني الدولة راسباً ، فهو قول صحيح؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل  
العلو المختلفة ، وأي حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون فاعلاً . ومن هنا نفهم أن الحق  
سبحانه حين يقول : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } [ الزمر : 42 ] .  
فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [ السجدة : 11 ] .

ومثل قوله سبحانه : { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [ الأنعام : 61 ] .  
كل هذه الأقوال صحيحة؛ لأنها تتعلق بمدارج الأمر .  
{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } والظلم هو أن تأتي لغير ذي الحق وتعطيه ما تأخذ  
من ذي الحق ، والظلم يقتضي ظالماً ومظلوماً وأمرًا وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً  
لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك؟ لا بد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك . فساعة تأتي للإنسان  
الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ، ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه  
صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانية التي تَقَبَّلَ بها المنهج من الله ، ووازع النفس التي  
تلح عليه بالانحراف .

ويدور ما هو أشبه بالحوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف . وعندما تتغلب  
النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه : إنك إن  
طاوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة ستكوى بها في آخر الأمر ، وأنت برفضك

للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طawعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .  
ومثل ذلك يحدث في حياتنا العادية : عندما تدلل الأم ابنها بينما يطلب منه والده الاستدكار  
ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئوليته الدراسية ، إن هذه الأم تظلم ابنها ، وكذلك يعطينا الحق فكرة  
عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التي تريد الهوى فقط فيقول : { واتل  
عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَ يُتَقَبَّلُ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ  
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [ المائدة : 27 ] .  
هنا يقول هايبيل لقاييل :

- ولماذا تقتلني؟ . إنني لست أنا الذي تقبل القربان ولكن الذي تقبله هو الله فما ذنبي؟ .  
ويأتي بعد ذلك الحوار : { لئن بسطت إِيَّيْكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي  
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } [ المائدة : 28 ] .

ولنلتفت إلى هذا القول الحكيم : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ } [ المائدة : 30 ] .  
كأن هناك صراعاً في نفس قاييل بين أمرين « اقتل » و « لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : «  
لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .  
وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ،  
وضاعت شرة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيشيات تظهر وتتضح . ويبعث الله غراباً  
يبحث ويحفر في الأرض ليواري جثة غراب آخر . هنا قال قاييل : { أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا  
الغراب فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي } [ المائدة : 31 ] .

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن  
النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذي لا خلود له ، وعندما يحقق  
الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ } إذن فالملائكة تسأل ظالمي أنفسهم  
: { فِيمَ كُنْتُمْ } أي في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أي لماذا  
ظلمتم أنفسكم؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم وانضمتم لموكب الإيمان وموكب  
الجهاد؟ . ، ولماذا ظللتم في أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون  
الفكاك؟ وتكون إجابة الذين ظلموا أنفسهم : { قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ } . وباللغة عندما  
يحكي لنا الله هذه الصورة التي تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندنا وقت للاستفادة منها؟ .  
طبعاً لا؛ لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لنصح الخطأ .

والحق حين يقص علينا هذا المشهد فذلك من لطفه بنا ، وتنبه لكل منا : احذروا أن يأتي موقف  
ويحدث فيه ما أوضحته لكم ولن يستطيع أحد أن يستدرك الحياة ليصنع العمل الطيب .

وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ }  
وكلمة { كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ } تفيد أن قوماً استضعفواهم ، أي أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفواهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هي بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا } .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها؛ لأن الذي يمسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يقينه بالأسباب . أما الذي يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شيء فهذا هو الذي وثق بالله لأنه هو المسبب وهو مانح ومعطي الأسباب .

{ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا } وهذا القول على لسان الملائكة قادم من القانون الأعلى ، فقد خلق الحق الخلق جميعاً واسكنهم في الأرض ، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعتوه قد صنع تحديداً للمكان ، فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التي تحول دون الانتقال من مكان إلى مكان ، فذلك مناقضة لقضية الخلافة في الأرض؛ لأن الخلافة لم توزع كل جماعة على أرض ما . ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة في الأرض كل الأرض ، مصداقاً لقول الحق : { وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ } [ الرحمن : 10 ] .

فقد جعل الله الأرض متضعة مسخرة مذللة للإنسان ، والأرض هي أي أرض ، والأنام هم كل الأنام . وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم في فساد وشقاء . فالذي يجعل الحياة في الأرض فاسدة هو خروج بعض الآراء التي تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام لسكان بلد ما . يقولون ذلك في حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيدٍ عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض في بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس من بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التي بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التي لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذي يعلو في الكون سببه أنه يوجد في كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعلية أن يعرف أنه يأخذ الخلافة في الأرض

بغير شروطها ، فالذي يفسد الأمر في الأرض أن الإنسان الخليفة في الأرض نسي أنه خليفة  
واعتر نفسه أصيلاً في الكون .

وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً في الكون فهذا هو الفساد .

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا  
أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [ النساء : 97 ] .

إذن ، فإن أقام الإنسان على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى  
الأرض التي تسعه فيها فاعلية أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير؛ لأن الله قد جعل له  
الكون كله ليكون فيه خليفة ، أما الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم  
ساعة الوفاة فهم من يقول عنهم الحق في الآية التالية : { إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ . . . } .

**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98)**

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى ومستضعف حقيقي » ، فهناك  
مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً . هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقي » فهو من هؤلاء الذين يحدد لهم الحق :

{ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا } . هؤلاء  
هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .  
هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً؟ نعم؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون  
ذاتياً؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء؛  
فالمرأة لا تستطيع أن تمشي وحدها وتحمي نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج  
أن محرم لها ، وكذلك الولدان؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف  
من الملائكة لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة في الأداء القرآني ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيايل ،  
والاحتيايل هو إعمال الفكر إعمالاً يعطي للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد  
تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتيايل قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك :  
الإنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه يأتي بقضيب من الحديد  
ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة عجلة ، ليدرج الصخرة ، هذه هي حيلة من الحيل ،  
وكذلك السقالات التي نبي عليها ، إنها حيلة .

والذي قام ببناء الهرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة؟ لقد فعل ذلك بالحيله ، والذي جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة الأمتار ، ثم نقلها وأقامها إنّه فعل ذلك بالحيله . فالحيله هو فكر يعطي الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة في زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمناهاة ، وحينما قال الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير في مثل هذه الأرض بلا دليل . ولننظر إلى قول الحق سبحانه : { فأولئك عسى . . . } .

### فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)

{ فأولئك } إشارة إلى من جاء ذكرهم في الآية السابقة لهذه الآية : { إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً } [ النساء : 98 ] . ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال : { فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم } [ النساء : 99 ] . وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء ب « عسى » ليحثهم على رجاء أن يعفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتي بعدها أمر محبوب نحب أن يقع . فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان : عساي أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذي يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته؛ لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفي هذا الاعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذي يقول : { عسى الله أن يعفو عنهم } ، فهذا إطماع من كريم قادر . وبعد أن يذكر لنا القصة التي تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل في أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها؛ ومع ذلك فالذي يضع في نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معان عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول : { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . } .

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)

الذي يهاجر في سبيل الله سيجد السعة إن كان قد وضع في نفسه العملية الإيمانية . وفي البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة؛ لأنهم لم يكونوا آمنين في مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة في الكون ، فلم يقبل النبي إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة ، ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة في ذلك الزمان هي أرض بلا فتنة .  
وقد يقول قائل : ولماذا لم يختار النبي أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية في الجنوب أو في الشمال؟

لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبايلها ، فكل القبائل تحج عند قريش ولم تكن هناك أي بيئة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش . ولذلك استعرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد جميعاً إلى أن أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والعلة في الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل في ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان . وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار الإيمان .  
وعليها أن نعرف نحن الذين نعيش في هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

وهناك هجرة باقية لنا وهي الحج ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يضيق الحكام فيه على الذهاب إلى المسجد ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه الإنسان حرية أداء الفروض الدينية ، كل هذه هجرات إلى الله . والنية في هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط في طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس ما يشغلهم في هذا الزمان هو سعة العيش .

وها هو ذا الإمام على - كرم الله وجهه - يقول : عجبت للقوم يَسْعُونَ فيما ضَمِنَ - بالبناء للمفعول - لهم ويتزكون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا : { وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [ النساء : 100 ] .

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله ، والشاعر يقول :  
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد يقول الإنسان : إنني أطلب سعة الرزق بالهجرة ، ونقول : أنت تبحث عن وظيفة لها شكل العمل وباطنها هو الكسل لأنك في مجال حياتك تجد أعمالاً كثيرة .

ونجد بعضاً ممن يطلبون سعة الرزق يريد الواحد منهم أن يجلس على مكتب ويقبض مرتباً ، بينما يبحث المجتمع عن العامل الفني بصعوبة ، كأن الذين يبحثون عن سعة الرزق يريدون هذه السعة

مع الكسل ، لا مع بذل الجهد .

{ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا } وساعة تقرأ كلمة « مراغم » تعرف أنها تفتح الجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون . ومادة « مراغم » هي « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرغام » أي « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أي أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه . وما دام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر ، فمعناه أن الثاني كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شيء ، لكنه رفض وفعل ما يريد .

وعندما يرى الإنسان جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانه هذا الأنف في التراب ، ويقال في المثل الشعبي : أريد أن أكسر أنف فلان .  
وعندما يهاجر من كان مستعضفا ويعاني من الذلة في بلده ، سيجد أرضاً يعثر فيها على ما يرغم أنف عدوه . فيقول العدو : برغم أنن ضيقت عليه راح إلى أحسن مما كنت أتوقع . ويرغم الإنسان بهجرته أنف الجبارين .

وكلمة « مراغم » هي اسم مفعول ، وتعني مكاناً إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذي كان يستضعفك ، فهل هناك أفضل من هذا؟ .

{ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا } أي أنه سبحانه يعطي المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذله يشعر بالخزي إلى درجة أن تكون أنفه في الرغام .  
والمستضعف في أرضٍ ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر في سبيل الله سيجد سعة ورزقاً .

ويتابع الحق الآية : { وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان في سبيل الله فقد لا يصل إلى المرغام؛ لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر في سبيله بالمكان الذي يرغم أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

{ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } وكلمة { وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } أي سقط أجره على الله .

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمرغام ، فأنت تذهب إلى رحابي . والمرغام سبب من أسبابي وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : { وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } علينا أن نقرأ قوله الحق : { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ }  
[ النمل : 82 ]

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذي نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا  
يستخدم الحق هنا « وقع » بمعنى « سقط » ؟  
هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ،  
فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ، ويعرف الجزاء من يذهب إليه معرفة  
كاملة .

وهكذا يجب أن نفهم قوله الحق : { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً  
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا } [ النساء : 100 ]

والله غفور رحيم حتى لمن تواني قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيماني ويتدارك ما فاتته؛ لأن  
الله يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه . والهجرة تقتضي ضرباً في الأرض ، وتقتضي الجهاد .  
وبعد أن جعل الله الإسلام أركاناً ، جاء فحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان ،  
فأركان الإسلام هي : الشهادة؛ والصلاة؛ والصوم؛ والزكاة؛ والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ،  
والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدي الصلاة ، ولكنه قد لا يملك مالاً؛ لذلك يعفيه الحق من الزكاة .  
وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده  
القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقد  
لا يقوها المسلم في العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان  
أبداً ما دامت فيه الصلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة »

ولأن الصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند إقامة الصلاة  
يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام  
والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضاً ، وهكذا نجد الصلاة أوسع في  
الإمساك عن ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها  
وهو صائم ، فالصوم - مثلاً - لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أي مكان لكن الصلاة تمنع  
الإنسان إلا من الوقوف بين يدي الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن في الصيام . والزكاة هي إخراج جزء  
من المال ، والمال يأتي به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين  
يصلي المسلم فهو يزكي بالأصل ، إنه يزكي ببذل الوقت الذي هو وعاء الحركة ، إذن ففي

الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود في الصلاة؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة في كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحي ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هي منزلة الصلاة نجد الحق يحذرننا من أن يشغلنا الضرب في الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقولن أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففي الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتحم بمنهج ربه .

كذلك في السفر يشرع الحق قصر الصلوات : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ . . . }

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (101)

والضرب في الأرض مقصود به أن يمشي المؤمن في الأرض بصلافة وعزم وقوة . والقصر في الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفي اللغة « اختصار » و « اقتصار » . « الاقتصار » أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً ، و « الاختصار » هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثال ذلك عندما تختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعاني التي فيه في عدد أقل من الكلمات . وقد يفكر إنسان في أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية في الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معاني كثيرة في ألفاظ موجزة . والإسهاب – كما نعلم – لا يأخذ من الوقت مثلما يأخذ الإيجاز؛ فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يقدر ذهنه – في وقت أطول – ليصل إلى المعاني في كلمات أقل . ويحكى عن سعد زغلول – زعيم ثورة 1919 المصرية – أنه كتب رسالة لصديق فأطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

وإني أعتذر إليك عن التطويل فليس عندي الوقت الكافي للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذي أراد أن يهدد قائد الروم . . فكتب إليه؛ أما بعد : فسأتيك بجيش أوله عندك وآخره عندي . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذي سيواجه ملك الروم من جيش عرمرم سيملاً الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالي الذي كان صعباً في « دومة الجندل » أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما « إياك أريد » ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التي يعانيتها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر في الصلاة هو أن يؤدي المؤمن كُلاً من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة في وقت الحرب تقتضي ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضا عن قول الحق : { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا } [ النساء : 103 ]

فإذا شرع الله للخوف صلاة ، وللحرب صلاة فمعنى ذلك أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة . وإذا كانت الصلاة واجبة في الحرب فلن تكون هناك مشاغل في الحياة أكثر من مشاغل الحرب والسيوف . وصلاة الحرب - أي صلاة الخوف - جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة أيضا ، وفيها يقصر المؤمن صلواته أيضاً : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا } [ النساء : 101 ]

ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعاً في الصلاة فقد يهجمون عليهم هجمة واحدة . ولذلك شرع الحق قصر الصلاة .

ويكون الخطاب من بعد ذلك موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم : { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ . . . } {

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102)

وحين يقول الحق : { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ } نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين : طائفة تصلي مع رسول الله ، وأخرى ترقب العدو وتحمي المؤمنين .

ولكن كيف تصلي طائفة خلف رسول الله ولا تصلي أخرى وكلهم مؤمنون يطلبون شرف الصلاة مع رسول الله؟ ويأمر الحق أن يقسم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة ليصلي بكل طائفة مرة ، ليشرف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة - كما عرفنا - ينطبق على الصلاة الرباعية وهي الظهر والعصر والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيهما ، فليس من المتصور أن يصلي أحد ركعة ونصف ركعة ، وفي علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بمئات متعددة ، ولا مانع من أن نلم بها

إماماً عاجلاً؛ لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة والعلماء الذين يصلون بالجيوش في حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقسِّم الجيش إلى قسمين؛ قسم يصلي معه وقسم يرقب العدو ، ويصلي بكل فرقة ركعتين . وهناك طريقة أخرى وهي أن يصلي بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون وتأتي الطائفة التي حمت الطائفة الأولى في أثناء الصلاة لتصلي هذه الطائفة الثانية ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصلي الطائفة الأولى الركعة الثانية التي عليها في القصر وتسلم ، ثم تصلي الطائفة الثانية التي عليها في القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهي أن تأتي الطائفة الأولى تصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ركعة ، ولا يصلي النبي صلى الله عليه وسلم معها الركعة الثانية بل يظل واقفاً قائماً إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادي الطائفة التي تقف في مواجهة العدو لتصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم الركعة الثانية بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم بينما هي الركعة بركعتها الثانية ويسلم النبي صلى الله عليه وسلم بها وتنال الطائفة الأولى بشرف بدء الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه صلى الله عليه وسلم .

وهنا نسأل : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإتماماً به لأن الصلاة معه هي الشرف؟ فكيف يصلي المقاتلون الخوف بعده صلى الله عليه وسلم ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التي جاءت في القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام .

{ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ } وهذه

الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبل أو البندقية فيأخذها

المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

{ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ } والقول القرآني هنا ليس مجرد ألفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من

رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً : تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التي سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله صلى الله

عليه وسلم فبإهم مشغول بذواتهم وبحماية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم تلهيهم المسألة؛ لذلك قال الله : { وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ

{ وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر

والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الحذر وهو عملية معنوية؟  
ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويجسمها تجسيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ،  
فكأن الحذر آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع في أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول : { والذين تَبَوَّءُوا الدار  
والإيمان مِن قَبْلِهِمْ } [ الحشر : 9 ]

والدار هي مكان باستطاعة الإنسان أن يتبوأه ويقيم به ، فما معنى أن يتبوأ الإنسان الإيمان وهو  
أمر معنوي؟ . إنه سبحانه في هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار  
- كما نعرف - هي المكان الذي يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .  
إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يُتَبَوَّى ، أي جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان  
كذلك حقاً ، والدار في هذا القول مقصود بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار  
المهاجرين . { والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُجْبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي  
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ  
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [ الحشر : 9 ]

وهكذا يجسم الحق المعنويات لفهم منها الأمر وكأنه أمر حسي ، تماماً كما قال الحق : {  
فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ  
فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً } .

وهذا ما يوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الحذر والأسلحة؛ لأن المقاتل يجب أن يخاف  
على سلاحه ومتاعه . فلو فقدوا المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت أدوات قتاله لعدوه . فحين  
يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .  
لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمتاع إلى قوة العدو؛  
لأن في ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه .

وعدو الإسلام يود أن يغفل المسلمون عن الأسلحة والمتاع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق  
بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصلي أثناء الحرب ، فلا يصح أن  
ينسى الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصلي ، فالقتال موقف لله ، فلا تفصل القتال في  
سبيل الله عن الصلاة لله .

{ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } والغفلة هي نسيان طارئ على ما لا  
يصح أن يُنسى ، وفي هذا تحذير واضح؛ لأن الغفلة أثناء القتال هي حلم للكافرين حتى يحققوا  
هدفهم المتمثل في قول الله : { فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً } . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم

على المؤمنين في لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : { فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً } .  
ولكن لنر من بعد ذلك قول الحق : { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ  
مرضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً } [ النساء : 102 ]

ونجد هنا أن كلمة « الحذر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفي ذلك بشارة منه أن الكافرين لن ينالوا من المؤمنين شيئاً ، فلماذا جاء الأمر هنا بأخذ الحذر؟ .  
إن أخذ الحذر لا يعني أن الله تخلى عن المؤمنين ، ولكن لتنبية المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سبحانه هياً وأعد العذاب المهين للكافرين . { إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ  
عَذَاباً مُّهِيناً } .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عندما نبه كثيراً بضرورة الأخذ بالحذر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها وهو القائل { إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ  
لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً } .  
ومن بعد ذلك قال الحق : { فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ . . . } .

**فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ  
الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (103)**

كأن المؤمن مطالب ألا يسوّف ويُؤخّر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً في بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو يسايف عدوه وينازله ، فهو يحمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .  
والإنسان حين يسبح الله حتى وهو في حالة الاشتباك مع العدو لا ينسأه الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة في حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففي وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً وفي كل حال ، وبعد أن يطمنن المسلم لموقفه القتالي فليقض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو في الحرب يكون ذلك منه أولى؛ لأنه في حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن الله في أوقاته تجليات ، فلا يحرم واحد نفسه من هذه التجليات في أي وقت ، وذكر الله يقرب العبد من مولاه - فسبحانه - مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشبعاً بالاطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : { فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } أي إذا انتهى الاشتباك القتالي فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التي حان ميقاتها أثناء القتال . فقد كان ذكر الله

وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلاكرامة لهذا الوقت ، وبلاكرامة للقاء العبد مع الرب . ولماذا كل ذلك؟ ويأتي القول الفصل : { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا } .

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرع سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت الصلاة في أثناء الاشتباك القتالي ، وإذا ما اتفق توقيتيه مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا سنة النبي صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة في أثناء السفر ، لماذا كل ذلك؟ لأن الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا } . أي أن الصلاة لها وقت . ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى - كما يفهمه البعض - بأن صلاة الظهر - على سبيل المثال - وقتها تمتد من الظهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا عاش حتى يصلي الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدي الصلاة مؤجلة عن موعد أدائها؟ . وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون في عمل لا أستطيع أن أتركه؛ فقد أكون في إجراء جراحة .

أو ركباً طائرة . ونقول : أسألك بالله إذا كنت في هذا العمل الذي تتخيل أنك غير قادر على تركه وأردت أن تقضي حاجة ، فماذا تصنع؟ إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضي حاجتك؟ وقد تجد قوماً كافرين يسهلون لك سؤالك عن دورة المياه لتقضي حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلي فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار؛ لأن فيهم العبودية الفطرية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويجزر لك ملاءة لتصلي فوقها ، ويقف في ارتعاش سببه العبودية الفطرية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت لا يتسع للصلاة؛ لأن الله لا يكلف أبداً عبده شيئاً ليس في سعته ، والحق كلف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذي يسعها .

ولله المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال في موقع ما يوزع العمل على عماله بما يسع وقت كل منهم ، فما بالناس بالرب الخالق ، ولذلك يقول الحق : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } [ الطلاق : 2-3 ]

والصلاة رزق عبودي يحرك من أي خوف ، وفضلها لا حدود له لأن فرضها هو الخالق المربي ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولاً ببريك؟ ويقول الحق من بعد ذلك : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ . . . } .

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ  
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

وهذه الآية تذكرة لنا بكيفية الرد على من يدعون التحرر ويحاولون إظهار الإسلام بأنه يصلح للعصر الذي نحياه عندما نؤوله ونطوّعه لمرات العصر ، ناسين مرادات الإسلام؛ فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب في الإسلام لرد العدوان . ونقول لهم : صحيح أن الحرب في الإسلام لرد العدوان ، والحرب في الإسلام أيضاً هي لتوسيع المجال لحرية الاعتقاد للإنسان . إن الذي يخيف هؤلاء أن يكون القتال في الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون الطغيان في أي مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى لا يقاوموا قهر الناس والطغيان عليهم؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام الكامنة والتي يهبها لمن يؤمن به ديناً ، وينخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء الإسلام الذين يقولون : إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول لهؤلاء وأولئك : لا؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان في الاعتقاد . والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف في وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيدة بالسيف ، إنما يحمي بالسيف حرية المعتقد ، فالحق يقول : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } أي لا تضعفوا في طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أي هدفاً وغاية ، ويجند لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات الطاقة ، كأن الإنسان لا يرد القوم الكافرين فقط ساعة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يبتغيهم أيضاً امتثالاً لقول الله : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } . فعلى المسلمين أن يُعلِّموا كلمة الله ، ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم في هذه الدعوة لا يفرضون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف في وجه الجبروت الذي يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان في ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ } [ البقرة : 216 ]

وقد خلق الله في المؤمن القدرة على أن يبتغي عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليست رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة ، والذين أدركوا الحرب العالمية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيساً لوزراء بريطانيا بعد « تشميرلن » الذي عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشميرلن » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد إنجلترا بالحرب ، وعندما استعدت إنجلترا أعلن « تشميرلن » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفة الحرب ، وقال للإنجليز :

– انتظروا أياماً سوداء وانتظروا الجوع .

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ } .

إن الحرب ترهقهم أيضاً كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تمتازون على الكافرين بما يلي : {  
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } . فأنتم وهم في الألم سواء ، ولكن  
الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعلمون لحظة دخولهم  
الحرب أن الله معهم وهو الذي ينصرهم ومن يمت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات  
والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب الفئة المؤمنة التي انتهت قضية عقيدتها إلى الإيمان بآله واحد؛ هو -  
سبحانه - أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القضية تحكم حركات حياتهم؛ إنه - سبحانه -  
- يطالبهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القضية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التي تثبت للناس  
جميعاً أنه لا معبود - أي لا مطاع - في أمر إلا الحق سبحانه وتعالى .

وحين تحكم هذه القضية أناساً فهي توحد اتجاهاتهم ولا تتضارب مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً  
متعاونين متساندين متعاضدين؛ لذلك جعل الله الطائفة المؤمنة خير أمة أخرجت للناس؛ لأن  
رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا  
الكافرين والمنافقين لتصفو رقعة الإيمان مما يكدر صفو حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنه خلقهم ويعلم طبائعهم وغرائزهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ،  
وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أغيار ، ومن الأغيار أن يصفو لهم أمر العقيدة مرة ، وأن  
تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى؛ لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً  
بالرياحين والورود ، وإنما هو مفروش بالأشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق في الأرض إلا من صبر  
على هذه البلايا وهذه الحن . فلو كانت القضية على طرف الثمام أي سهلة التناول لا مشقة في  
الحصول عليها وتدرك بدون آلام وبدون متاعب فسيذعبيها كل إنسان ويصبح غير مأمون على  
حمل العقيدة .

من أجل ذلك لم ينصر الله الإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام في أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا  
يستطيع أهله أن يحموا أنفسهم ، حتى لا يصبر على هذا الإيذاء إلا من ذاق حلاوة الإيمان مما  
يجعله لا يشعر بمرارة الاضطهاد ووطأة التعذيب ومشقته . فقال الحق سبحانه وتعالى : { وَلَا تَهِنُوا  
فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } أي لا تضعفوا في طلب القوم .

وكلمة { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ } أي في طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوباً منها  
فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يقفون في وجه الدعوة  
لتؤدبهم حتى يتركوا الناس أحراراً في أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه : ألا تهنوا ولا تضعفوا في طلب القوم الذين يقفون في وجه الدعوة . ثم  
قال سبحانه : { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } أي  
إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فأنتم أيضاً تحاربون قوماً يصيبهم ألم المواقع

والحروب والإعداد لها؛ فأنتم وهم متساوون في إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها؛ لأنها هي القوة المرجحة .

فأنتم تزيدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تُقَوِّمَ بغاياتها والثواب عليها . لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوي ذلك » . . فلا يهمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في شرح هذه المعادلة حتى تكون الأذهان على بينة منها إعداداً وخوضاً للحرب واحتمالاً لآلامها : { قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ } [ التوبة : 52 ]

عليكم أيها الكافرون أن تعلموا أن الذي ينتظرنا هو إحدى الحسينيين . . إما أن نتصر ونقهركم ، وإما أن نستشهد فنظفر بالحياة الأخرى . وماذا عن تربص المؤمنين بالكافرين : { وَتَحْنُ نَتَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا } [ التوبة : 52 ]

كفة من - إذن - هي الراجحة في المعادلة؟ إنها كفة المؤمنين؛ لذلك قال الحق : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } فلا تضعفوا أيها المؤمنون في طلب القوم لأنهم يألمون كما تألمون ، ولكن لكم مرجحاً أعلى وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون .

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك؛ فالشوكة التي تشاك بها في القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فذلك لحكمة هي أن تسير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .  
عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ ) .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في سبيل نصرته دينه لم يحرم المؤمنين من توجيهه يصفى أيضاً حركة الحياة ، لماذا؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به وينضون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انضواءكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يُطبق عليه حكم الله ، وإياكم أن تظنوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله واتباعكم لرسول الله قد أخذتم شيئاً يميزكم عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا الكفار ودافعوا المنافقين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له تميز على غيره ، ولمثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ . . }

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه؛ يتكلم فيما يتعلق بالفعل بصفة التعظيم والجمع .  
مثال ذلك قوله : { إِنَّا أَنْزَلْنَا } . وهذه « نون الجماعة » حيث يتطلب إنزال القرآن قوى  
متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك في كل الكون . ولنضرب لذلك مثلاً والله المثل الأعلى . . إننا  
نجد أن رئيس الدولة أو الملك في أي بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا القرار » .  
والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذي يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين  
معه وكل العاملين تحت رئاسته ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه وتعالى؟ لذلك فحين يتكلم  
سبحانه فيما يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } [ طه : 14 ]

ولا يأتي هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تأتي « نون التعظيم » . ولكن في هذه الآية نجد الحق يقول :  
{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } . . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ،  
ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . فسبحانه مرة يقول : { أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ } [  
العنكبوت : 47 ]

ومرة يقول : { أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتْلَى عَلَيْهِمْ } [ العنكبوت : 51 ]  
ومرة ثالثة يقول : { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [ الأنبياء : 10 ]  
ما الغاية من الإنزال؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على الأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن  
قد أنزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : { أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ } فمعنى ذلك  
نزول التكليف . وساعة نسمع كلمة { أَنْزَلْنَا } فعلينا أن نعرف أن كل شيء يجيء من الحق فهو  
ينزل إلينا منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارئ لها أن الجهة التي أنزلت هي  
جهة أعلى ، وليست مساوية لمن أنزل إليه ، وليست أدنى منه أيضاً .  
وكلمة { أَنْزَلْنَا } تدل على أن جهة أنزلت ، وجهة أنزل إليها ، وشيء أنزلته الجهة إلى المنزل إليه  
، والكتاب هو المنزل . والذي أنزله هو الله . والمنزل إليه هو رسول الله وأمتة . وهل أنزل الحق  
سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتعلق بمقومات الحياة؟

وعندما نقرأ هذا القول الكريم : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا  
وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } [ الأعراف : 26 ]

إنه لباس جاء من أعلى؛ لذلك استخدم الحق كلمة { أَنْزَلْنَا } وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً  
يزينكم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، فهو لا يوارى العورة فحسب ولكنه جميل  
أيضاً ، والأجمل منه أنه لباس التقوى .

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة سترًا ورفاهية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير .

فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القيمة والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } [ الحديد : 25 ]  
إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قِبَلِ الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إلينا بشيء يعالج مادتنا وقوامنا ، وبشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد تناولها الآن : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ } وحين يُطلق الكتاب فالمعنى ينصرف إلى الكتاب الجامع المانع المهيم على سائر الكتب وهو القرآن ، وإن كان { الكتاب } يطلق على المكتوب الذي نزل على أي رسول من الله سبحانه وتعالى .  
{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } والحق هو الشيء الثابت الذي لا يأتي واقع آخر لينقضه .  
وعلى سبيل المثال : أنت في حياتك العادية حين تقول قضية صدق تحكي بها واقعا حدث مهما تكررت روايتك لهذه التفاصيل مدة عشرين سنة فهي لا تتغير؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذي حدث أمامك . ولكن إذا حَدَّثَ إنسان بقضية كذب لا واقع له .  
فماذا يكون موقفه؟ سيحكي القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله في أول مرة فيحكي وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع؛ لذلك يقول كلاماً مغايراً لما قاله في المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذي لا ينقضه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أي أنزله بالقضايا الثابتة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع .  
ويقال في حياتنا للتلميذ الناجح من أساتذته : لقد أعطيناك المرتبة الأولى على زملائك بالحق .  
أي أن هذا التلميذ قد أخذ حقه لأنه يستحق هذه المكانة . وقوله الحق سبحانه : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } أي إن إنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليبلغه جاء ملتبسا ومرتبطا بالحق ولا ينفك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكلمات . ووجود معنى بجانب معنى في القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهي لا تتناقض ولكنها توضع بحكمة الخالق لتجلبو لنا المعاني .

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ } وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامي وعلى رأسها الحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له؛ لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين

الناس .

وأنت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطوق الواقع والحق .

تجعل الذي حُكِمَ له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذي لا حيف فيه حتى وإن كان عقاباً ، فالكافر يقرع نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذي يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وأيضاً يعرف المسلم ساعة يُحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظن أحد أن الإسلام قد جاء ليحايي مسلماً على أي إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائماً في جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطي هذه القضية لواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التي حدثت معاصرة لرسول الله بمثابة إستدرار السماء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، ولو جاءت الأحكام مبوبة وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه في الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة وقوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدعى للإذعان له؛ لأنه ثبت وأُتِدَ ووُثِقَ بواقعة تطبيقية .  
والحكم الذي نزل هو : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا } . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علمك » فلتعلم أن تعليم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تتمثل الشيء الذي يعلمه لك الله وكأنه مجسد أمامك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التي حدثت هي : كان في « بني ظفر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة درعا ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع في بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه لص ، فذهب إلى يهودي وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع في جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » وحمله صار الدقيق ينتثر من خرق في الجراب وتكوّن من الدقيق أثراً في الأرض إلى بيت اليهودي وكان اسمه « زيد بن السمين » وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخذها وما له بما علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها وقالوا : « لقد سرق ابن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندي » طعمة بن أبيرق » . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت على المسلم ضد اليهودي فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله لِيُعَدِّلَ منهج الغرائز البشرية . والغريزة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرتها قد تتصور أن الحكم على المسلم وتبرئة اليهودي هو إضعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يقيم الأمر بالقسط فينزل على رسوله : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } [ النساء :

[ 105

أي إياك أن تقول : إن هذا مسلم ولا يصح أن نلصق به الجريمة التي ارتكبتها حتى لا تكون سبة عليه ، وإياك أن تخشى ارتفاع رأس اليهودي؛ لأن هناك لصاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أي إنسان ارتكب خطأ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب . وعقاب المسلم على خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليجمال مسلماً . وعلى كل مسلم أن يعرف أنه دخل الإسلام بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : { وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } قائلين : إن كان هناك لص أو خائن أو مستغل لقوته فاتركه ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسبب لك تعباً . وهؤلاء نقول : لا ، فسبحانه وتعالى يقول : { وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } و « اللام » التي في أول « الخائنين » هي للملكية أي أن الحق يأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفاً لصالح الخائن ، بل عليه أن يخاصم لمصلحة الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهي عنه أن يقف مسلم موقفاً ينفع خائناً ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : { وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } . أي لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولماذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام »؟ نقول : إن الغاية من الدفاع عن الخصم أن ترجح أمره وتكون له لا عليه ، لذلك جاء الحق ب « اللام » هنا من أجل أن نعرف الغاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا ينفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له ، ولذلك جاء الحق بها إيضاحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف في جانب الخائن ولن يأتي له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » . والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتي باللفظ الواضح الذي يجعلنا نعرف المعنى مباشرة؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف في أي صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه مثال ذلك قوله الحق : { وَإِذَا تَنَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ }

[ سبأ : 43 ]

القائل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المنطق يقتضي أن يقول الكفار : إنك سحر مبين . وكأن الآية هي : وإذ تنلى آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحر مبين . ولنلاحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و « الحق » هنا مُحدَّث عنه وليس مخاطباً . فقالوا عنه : إنه سحر مبين .

وهناك آية أخرى يقول الحق فيها : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ

{ [ الأحقاف : 11 ]

والقائل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو : أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أوردتها : « لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك في غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبادلون هذا القول فيما بينهم . وإلا لو أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضي أن يكون : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه .  
ومن بعد ذلك يقول الحق : { واستغفر الله . . }

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106)

والأمر بالاستغفار يجيء على مجرد وجود خاطر التردد بين نصرته المسلم أو نصرته اليهودي ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخاطر يتطلب الاستغفار . والذي يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غضاضة أن يعدل لنا ربنا أمراً ما

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بني ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذي من بينهم ، وتمحكوا في الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة في ألا يفضح أمر المسلمين .  
وبعد ذلك يقول الحق : { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ . . }

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107)

وسبحانه يريد أن يشبع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفي أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يحسم مثل هذه الأمور؛ فلا مجادلة في الذين يختانون أنفسهم . والجدل كما نعرف هو الفتل .

وحين يقتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويجدها ليصنع حبلاً ، فهو يقتل هذا الغزل ليقويه ويجعله غير هش وقابلاً للشد والجذب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إننا نجدل الحبل حتى نعطيه القوة . وكذلك شأن الخصمين؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب ليّ القول ولحنه أو الفصاحة في الأسلوب . لذلك يأتي الأمر إلى الرسول : لا تقو مركز أي إنسان يختان نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً؛ لأن الخيانة هي أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أَمِنَ المعقول أن يخون الإنسان نفسه؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى افتعال كبير ، فقد يخون الإنسان نفسه غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو ليعطي نفسه شهوة ومعصية عليها عقوبة ، وهذه خيانة للنفس؛ لأن الإنسان في مثل هذه الحالة يغفل عن العقوبة الآجلة بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذي يخون الناس إنما يخون ضمناً مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويتطلب افتعالاً ، ولذلك يقول الحق : { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا } .

والآية التي تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوانين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتي الحق بكلمة خَوَّانٍ . وفيه فرق بين « خائن » ، و « خَوَّان » ، فالخائن تصدر منه الخيانة مرة واحدة ، أما الخَوَّان فتصدر منه الخيانة مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة في أمر يسير صغير ، أما الخَوَّان فتصدر منه الخيانة في أمر كبير . إذن . فمرة تأتي المبالغة في تكرير الفعل ، وأخرى في تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « خائن »؛ لأن الخائن هو من خان لمرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرج الله عن دائرة الستر إلا إذا أخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر - رضي الله عنه - امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر - رضي الله عنه - أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا عرفت في رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات؛ فالله لا يمكن أن يفضح أول سيئة؛ لأنه سبحانه يحب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستمر العبد في السيئة فيفضحها الله : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا } ، والإثم أفضح المعاصي . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفعوا عنده لابن أبيرق لكي يحكم له الرسول ضد اليهودي ، لماذا صنعوا ذلك؟ . لأنهم استفظعوا أن يفضح أمر مسلم ويبرأ يهودي ، استحيوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتي

بالحيثية التي دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقضي على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال : {  
يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ . . }

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ  
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس في أن « طعمة » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم؟ . إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون التعمية في قضاء الأرض فلن تعملوا على قضاء السماء . وهذه القضية يجب أن تحكم حركة المؤمن ، فإذا ما فكر إنسان منسوب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يغضب الله فعليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسي أو فضحت ولدي أو فضحت أسرتي أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يشين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردّه عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله؛ لذلك فأنت غير مأمون على ولاية .

{ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } و « بيت » أي أنه يفعل أمره في الليل؛ لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم في الليل ، ومعنى « بيت » أن يصنع مكيدة في البيت ليلاً ، وكل تدبير بخفاء اسمه « تبييت » حتى ولو كان في وضوح النهار ، ولا يبيت إنسان في خفاء إلا رغبة منه في أن ينفذ عنه عيون الرائيين . فنقول له : أنت تنفض العيون التي مثلك ، لكن العيون الأزلية وهي عيون الحق فلن تقدر عليها . { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } [ النساء : 108 ]

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هي تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التي هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه مآلاً وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذي لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفصيله وهو القادر فوق كل شيء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فمعناها أن الحق سبحانه وتعالى محيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته فلا يستطيع جزئيه أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من مآله شيء من الجزاء الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا : { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . }

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (109)

فالذي جادل عن ابن أبيرق كان يريد أن يرى ساحتته أمام الناس ويدين اليهودي ، وفي أنه قد جادل أمام بشر عن بشر ، فهل تنتهي المسألة بهذا اليسر؟ لا؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أفلت من عقوبة الله في الآخرة؟ لا ، إذن فالذي يجادل يريد أن يعمى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعمى على قضاء الحق ، ولم يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق يذيل الآية : { أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا } أي فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص اللبق الذي يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَمَنْ يَعْمَلْ سِوَاءَ أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ . . } .

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110)

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أغيار؛ لذلك لم يشأ أن يخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه - سبحانه - شرع التوبة للمذنب لحماية للمجتمع من استئثار شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يعاني المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع . إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هي حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمي الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا في محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم في باله أن يبرىء « ابن أبيرق » ، وقسم في باله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله؟ . لا ، فسبحانه يقول : { يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعاً أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يقيهم في الصف الإيماني ، وقد حكم رسول الله على « ابن أبيرق » لصالح اليهودي ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، وذهب إلى مكة مصاحباً لعادة الخيانة ، فنقب حائطاً على رجل ليسرق متاعه فوق الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضع المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : { وَمَنْ يَعْمَلْ سِوَاءَ أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } فيتساءلون : أليس الذي ارتكب العمل السيئ

قد ظلم نفسه؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى؛ فمعنى عمل سوءاً أضمر بهذا العمل آخرين ، إته غير الذي ارتكب شيئاً يضرّ به نفسه فقط؛ فالذي سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قذفاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأعمال هي ارتكاب للسوء؛ فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أي يلقي الناس بما يكرهون .

لكن الذي يشرب الخمر قد يكون في عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ، لكنه ظلم نفسه؛ لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحمي المسلم حتى من نفسه ، ويحمي النفس من صاحبها ، بدليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالعقوبة ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا نرى حماية المنهج للإنسان وكيف تحيطه من كل الجهات؛ لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحمي نفسه . فإن صنع سوءاً أي أضر بغيره ، فهذا اسمه « سوء »

أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ يَصِرْهُمَا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [ سورة آل عمران : 135 ]

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس؟ . إنه إساءة لغيره أيضاً ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذي يسئ إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتص نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة في الآخرة . وقد تجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره متعة ، مثال ذلك شاهد الزور الذي يعطي حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنياه غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بادروا بالأعمال ستكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ومُجسماً كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا » .

{ وَمَنْ يَعْمَلْ سِوَاءَ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } والله غفور ورحيم أولاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ . . } .

**وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111)**

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خيراً ففعله الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيئ ب « اكتسب » ، لماذا؟ لأن فعل الخير عملية فطرية في الإنسان لا يستحيي منه ، لكن

الشر دائماً هو عملية يستحيي منها الإنسان؛ لذلك يجب أن يقوم بها في خفية ، وتحتاج إلى  
افتعال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى - نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل  
ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس  
حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويجاوب التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك  
يقال عن الحلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » . .

فإذا ما جاء القرآن للسيئة وقال « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الالتفات ، فالإنسان قد  
يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يوبخ نفسه ويلومها  
ويعزم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً  
ويفخر بها متناسياً لخطر الجسيم الذي سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود ، وهو حين  
يفخر بالمعصية ففي ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور في أعماقه ، وهو يختلف عن  
ذلك الذي تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله .

{ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ } فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً  
بعمل سوء قد كسبت الدنيا؛ فوالله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضن على عدوه أن  
يظلمه . وأضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى دائماً - هب أن رجلاً له ولدان .  
وجاء ولد منهما وضرب أخاه أو خطف منه شيئاً يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فأين يكون  
قلب الأب ومع من يكون؟

إن الأب يقف مع المظلوم ، ويجاوب أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوي  
عشرة قروش ، فالأب يعوض الابن المظلوم بشيء يساوي مائة قرش . ويعيش الظالم في حسرة ،  
ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظلم قمة من قمم الغباء .  
ومن ضمن المفارقات التي تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد مغتاباً فاغتب أبويك . ولا بد أن  
يقول السامع لذلك : وكيف اغتاب أبي وأمي؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والدك أولى  
بحسناتك ، فبدلاً من أن تعطي حسناتك لعدوك ، اجث عنم تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية  
ذلك هي : لا تكن أيها المغتاب أحق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطي لعدوك  
حسناتك وهي نتيجة أعمالك؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصري ، عندما بلغه أن واحداً قد اغتابه .

فأرسل إلى المغتاب طبقاً من البلح الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى  
فلان وقل له : بلغ سيدي أنك اغتبتني بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك أثن  
من هذا الرطب . وفي هذا إيضاح كاف لدم الغيبة .

{ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } ونعلم أنه إذا جاءت أي صفة من صفات الحق داخله في صورة كينونة أي مسبوقة ب « كان » فإياكم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث في زمن ماضٍ ، ولكن لنقل « كان وما زال » . لماذا؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم؛ فالله ليس من اهل الأغيار ، والصفات ثابتة له؛ لأن الزمن في الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً في زمن ومريضاً في زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضي إلا أصحاب الأغيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا في أصحاب الأغيار . ومادام الله هو الذي يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً ، ولا يزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

وبعد ذلك يقول الحق : { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا . . } .

**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِينًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (112)**

قالوا : إن الخطيئة هي الشيء غير المتعمد ، مثال ذلك حين نعلم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، ونلتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسي القاعدة ولم يستحضرها . ونظّل نصح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة النحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطئ .

والخطيئة - إذن - هي الخطأ غير المتعمد . اما الإثم فهو الأمر المتعمد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبتها هو . . ما حكم الله في ذلك؟ { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِينًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } [ النساء : 112 ]

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، ويا ليتة أكتفى بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثانية وذلك بأن يرمي بالخطيئة أو الإثم بريناً ، إنَّ إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : { فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حمل » تؤكد لنا أن هناك علاجاً ومكابدة وشدة ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل؛ فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريناً ، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ، ويندم أيضاً على إلصاقها بريء . إذن فهي حمل على أكتافه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير سعار العداوة؛ يهون عليه أن يصنع المعصية ، ولكن بعد أن يهدأ سعار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَلَّ يَتَّقِبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَأُقْتَلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَّقِبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [ المائدة : 27 ]

هابيل - إذن - يسأل قابيل : وما ذنبي أنا في ذلك ، إن الله هو الذي يتقبل القربان وليس أنا فلماذا تقلتني؟

ويستمر القول الحكيم : { لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } [ المائدة : 28 ]

وماذا يقول الحق من بعد ذلك : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [ المائدة : 30 ]

كأن مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالبة . وعلى سبيل المثال : لن يقول أحد : « لقد طوعت الجبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوعت الحديد » . وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شيء وقت الجريمة ، وبعد أن وقعت ، وهذا سعار الغضب الذي ستر موازين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم ناصعة في النفس . ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ، وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك نفهم قول الحق : { فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمي البريء بالإثم إنما يرتكب عملاً يتطلب مشقة وتنازعه نفسه مرة بالندم؛ لأنه فعل الجريمة ، وتنازعه نفسه مرة ثانية لأنه رمى بريئاً بالجريمة؛ لذلك قال الحق : { فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } وساعة نسمع كلمة « بهتان » فهي مأخوذة من مادة « بهت » .

والبهتان هو الأمر الذي يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق في شرح قضية سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم : { فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ } [ البقرة : 258 ]

فماذا كان موقف الرجل؟ { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } [ البقرة : 258 ]  
أي أنه سمع شيئاً عجبياً يخرسه عن أن يتكلم؛ فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفرأً ، فكأن الأمور المخالفة لمنطق الحق والمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنما هي البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس . وإذا ما نظرنا إلى القضية التي نزلت الآية بسببها . وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرئ نفسه وأن يدخل في الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمله إثماً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواه فهذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحتمل ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شيء إلا إذا كان هذا الشيء مخالفاً لما هو مألوف ومعروف . وإن في الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناصعاً؛ فعندما قال النمرود : { أَنَا

## أُحْبِي وَأُمِيتُ { [ البقرة : 258 ]

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسه . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التي تبهته ولا يدخل فيها هذا التماحك اللفظي . فقال : { فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } [ البقرة : 258 ]

أي أن النمرود سمع قولاً عجبياً وليس عنده من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذي صنع الجريمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن الفطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان ذنباً فقد حمل بهتانا ، وإذا ما عدى ذلك إلى أن يحملة إلى بريء ، فذلك يعني أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : { فَكَدَّ احْتَمَلُ بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } أي أنه احتمال امرأ عجبياً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثم أيضاً .

والإثم - كما عرفنا - هو السيئة المتعمدة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية : إن الله سبحانه وتعالى يحوطك يا محمد بعنايته وبرعايته وبفضله ، وإن حاول بعض من قليلي الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزبنوا لك أن تبرئ مذنباً لتجرم آخراً بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البريء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية يوضح لنا أن الله أرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية يوضح لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم بالحق : « لتحكم بين الناس » أي ليحكم بين الناس على إطلاقهم .

فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر . أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قضايا الحق سواء .

ولذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التي جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك في قصة المخزومية حينما سرقت وأراد أن يقيم عليها الحد ، وكلمه حبيبه أسامة بن زيد في أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

« عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجروء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع في حد من حدود الله؟! ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويقول سبحانه وتعالى : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ  
وَرَحْمَتُهُ . . } .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا  
يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ  
عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)

وهنا نتساءل : هل همَّ أحد بإضلال رسول الله؟ علينا أن نفهم أن « الهمَّ » نوعان : هم إنفاذ ،  
وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنفاذ ، ودفعه الله عنه لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله  
بفضله ورحمته ويأتي بالأحداث ليعلمه حكماً جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل الهم  
منهم هم تزيين فقط وحفظ الله رسوله منه أيضاً . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار  
يقضي به من بعد ذلك في كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم  
من السماء لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليماً . {  
وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } [ النساء : 113 ]

وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم التزيين لا هم  
الإنفاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضرروا الرسول ويضلوه والعياذ بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق  
الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أن رسول الله برأ  
المذنب الذي يعلم أنه مذنب لاستقرّ في ذهن المذنب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البريء  
الذي كان مطلوباً أن يدينه رسول الله ماذا يكون موقفه؟ لا بد أن يقول لنفسه : إن دين محمد لا  
صدق فيه لأنه يعاقب بريئاً . إذن فَهَمَّ التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق  
الجرمة به . لكن الله صان رسوله بالفضل وبالرحمة عن هذا أيضاً . { هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ  
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [  
النساء : 113 ]

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل في القضية ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة إنما جاء ليبين ضمن  
ما يبين سر نزول القرآن منجماً؛ لأن القرآن يعالج أحداثاً واقعية ، فيترك الأمر إلى أن يقع  
الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذي ينزل من السماء وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف  
يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما الأحداث لم تقع؟ لذلك أراد الله أن تنزل  
الأحداث أولاً ثم يأتي الحكم . وقد سبق أن قال الكفار : { لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً }  
[ الفرقان : 32 ]

لا؛ فقد أراد الله القرآن منجماً ومتفرقاً ومقسطاً لماذا؟ { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }  
[ الفرقان : 32 ]

فكلما حدثت هزة للفؤاد من اللدد والخصومة الشديدة ومن العناد الذي كان عليه الكفار وردّهم للحق - وهم يعرفونه كما يعرفون آبائهم - ينزل نجم من القرآن ، وفي شغب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تُثَبِّتِ الفؤاد؛ فإن تعب الفؤاد من شغب الناس؛ فأيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحي تنفي عنه هذه المتاعب .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات؛ لذلك كان في كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآني بعد العراك مع الخصوم فإن حلاوة النجم القرآني تُهَوِّنُ عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو ينتظر حلاوة الوحي لتنزل عليه ، وهذا معنى قوله تعالى : { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } [ الفرقان : 32 ]

أي أنزلناه منجماً لنثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لقلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحي عندما فتر جلس الرسول يتطلع إلى السماء ويتشوق . لماذا؟ ففي بداية النزول أرهقه الوحي ، لذلك قال الرسول : « فضمني إليه حتى بلغ مني الجهد » .

ورأته خديجة - رضي الله عنها - « وإن جبينه ليتفصد عرقاً » فاتصال جبريل بملكيته ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم في بشريته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائياً في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قال عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحي أن يحس محمد حلاوة الوحي الذي نزل إليه ، وأن يشناق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحي عندما يجيء ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيراً؛ لأن الحق قال : { وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى } [ الضحى : 4 ]

أي أن الحق أوضح لرسوله : إنك ستجد شوقاً وحلاوة ولذة في أن تستقبل هذه الأشياء .  
كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً { [ الفرقان : 32 ]

وهكذا كان القرآن ينزل منجماً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبها كُتَّابُ الوحي وبعد ذلك تأتي معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرى عنه يقول للكتابة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بمواقعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة في الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذي تكون فيه كل آية في موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكي إنما يحكي صدقاً .

وإلا فقولوا لي : كيف ينزل الوحي على رسول الله بسورة بأكملها ويميلها للكتابة ، ثم يقرأها في الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق : { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } [ الفرقان : 33 ]

أي لا يأتونك بحادثة تحدث إلا جئناك بالحق فيها .

إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجماً إلا ليثبت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتابع الهزات التي يتعرض لها ، وأراد الله أن ينشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التي استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذي ينزل به القرآن فيقرأه الرسول في الصلاة مثلما نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول : { سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى } [ الأعلى : 6 ] وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة ابن أبيرق فنزل فيها الحكم والحق يقول : { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } .

فإذا ما علمك الله - يا رسول الله - ما لم تكن تعلم بنزول الكتاب ، فهل أنت يا سيدي يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب؟ لا؛ فالكتاب معجزة وفيه أصول المنهج الإيماني ، ولكن الله مع ذلك فوض رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع؛ وتلك ميزة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [ الحشر : 7 ]

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، وميز سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوضح الحق أنه علم رسوله الكتاب والحكمة .

والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل : { وَاذْكُرْ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

والحكمة } [ الأحزاب : 34 ]

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ

الكتاب والحكمة وَعَلَّمَكْ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا { ولنا أن نلاحظ أن { فَضْلُ اللَّهِ { تكرر في هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول في هذه الآية أنه عصمه من أن تضله طائفة وتأنى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانيا أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهي التفويض من الله لرسوله أن يشترع .

إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً لوجيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك في حديث رسول الله : إن الصلاة لم تأت في القرآن .

نقول سائلين الواحد منهم : هل تؤدي الصلاة أم لا . ؟

فيقول : إنني أصلي . .

فنقول له : كم فرضاً تصلي؟ .

فيقول : خمسة فروض .

فنقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . ولسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بمثلها ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصلي على ضوء قول الرسول : « صلوا كما رأيتموني أصلي » وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

{ وَعَلَّمَكْ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا { وقد نجد واحداً من اهل السطحية واللجاجة يقول : القرآن يكرر الكلمات في أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله في صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى في ذيل نفس الآية؟ .

نقول : أنت لم تلاحظ فضل الله في الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزيين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظلماً ، وفي الجزئية الثانية هو فضل في الإتمام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً .

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول في أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا مع ليتندارسوا كيف يفلت طعمة بن أبيرق من الجريمة؟ .

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واتفقوا على أن يذهبوا للرسول؛ فكانت الصلة قريبة من النجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة أي جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جائزاً لو كان الجلوس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالنجوى معناها المسارة ، والمسارة لا تكون إلا عن أمر لا يجبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى الرسول ليتكلموا عن حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يفضح الحق أمر هذه النجوى ، فينزل القول الحق : { لَأَخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ . . } .

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ  
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التي تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى  
لتعين على حق؟ إنه سبحانه يستثنيها هنا؛ لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى  
منها نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويجزى عليها حسن الثواب .  
لذلك قال : { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } . ويستخدم الحق  
هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتي القول { فسؤتيه أجراً عظيماً } لكن لدقة  
الأداء القرآني البالغة جاءت بأبعد المسافات وهي « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما  
جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا ب « سوف  
» لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإياك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطني الله الجزاء على  
الطيب في الدنيا؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : « فسؤتيه » ولكنه قال : { فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ  
أَجْرًا عَظِيمًا } مما يدل على أن الفضل والإكرام من الله؛ وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على  
هذا العمل؛ لأن جزاء الحق لعبادة المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء في الآخرة إلا  
« فسوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يمضي أمته الإيمانية بشيء فهو يمينها  
بالآخرة ، ولننظر إلى بيعة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :  
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه : « بايعوني على ألا تشركوا  
بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم  
ولا تعصوا في معروف ، فمن وثق منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به  
في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه  
» .

لقد أخذت لنفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وقينا بهذا؟ ولنر  
عظمة الجواب وإلهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لكم الجنة »  
كان في استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستنتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض  
ومغاربها وسيأتي لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبداً فقد يستشهد  
واحد منهم في قتال من أجل نصره دين الله ، فماذا سيأخذ في الدنيا؟ . إنه لن يأخذ حظه من  
التكريم في الدنيا ، ولكنه سينال الجزاء في الآخرة .

لذلك جاء بالجزاء الذي سيشمل الكل ، وهو الجنة ليدهم على أن الدنيا أتفه من أن يكون جزاء  
الله محصوراً فيها ، ويحض كل المؤمنين على أن يطلبوا جزاء الآخرة؛ ونعلم جميعاً هذه الحكاية ،

ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أتخبي؟ فأجاب الصاحب : نعم أحبك . فسأل السائل : على أي قدر تخبي؟ قال الصاحب : قدر الدنيا . أجب الرجل : ما أتفهني عندك!! .  
يقول الحق : { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } ومن صاحب « نؤتيه » والفاعل لهذا العطاء؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذي وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكان الحق يبلغنا :

– يا معشر الأمة الإيمانية التحموا بمنهج رسول الله وامترجوا به لتكونوا معه شيئاً واحداً . وإياكم أن يكون لكم رأي منفصل عن المنهج؛ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليلتحم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – ساعة حدثوه في حكاية الإسراء والمعراج نجده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . . ؟ فيقولون : بلى ، لقد قال . فيرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق؛ فالصديق أبو بكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول الله .  
ويأتي الحق بالمقابل فيقول : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ . . . }

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ  
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115)

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث في أمر كان ملتحمًا ، مثلما نشق قطعة الخشب فنجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحتمت بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدق عن الله ، فإياكم أن تشرخوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعباد بالله . أو المعنى ومن سلك غير الطريقة التي جاء بها الرسول بأن صار في شق وشرع الله في شق آخر .  
{ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ } نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر في أدلة الوجود الأعلى لله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى لله ، بقيت مرتبة ، وهي أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله؛ لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيماني على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة عالمة فيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يتعرف على مطلوباتها؛ لذلك لا بد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى في الوجود الأعلى وفي البلاغ عن الله فلا بد للإنسان أن يلتحم بالمنهج الذي جاء به المبلغ عن الله . ويفعل الإنسان مطلوب القوة العليا؛ لأن الله قد أمر به؛ ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقره . أما إذا دخل الإنسان في محادثات فإننا نقول له : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

المؤمنين نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [ النساء : 115 ]

والهدى - كما نعرف - هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعل من أفعال الخلق لا بد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمع فاقداً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يعترف على جدية هدفه وأهميته . ويبحث له عن أقصر طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتحم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه . وهكذا نعرف أن هناك سبيلاً وطريقاً للرسول ، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذي جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .  
والحق هو القائل : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ } [ الأنعام : 153 ]  
فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذي يحدث له؟ .

ها هي ذي إجابة الحق : { نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } . وقد يأتي لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَنْ يذاكُرُ ينجحُ . بالضم فيهما ، و « من » هنا هي اسم موصول؛ فالذي يذاكر هو مَنْ ينجح . وقد نقول : مَنْ يذاكُرُ ينجحُ . بالسكون وهنا « مَنْ » شرطية .

وفي الاسم الموصول نجد الجملة تسير على ما هي ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل؛ ويقتضي - أيضاً - جواباً للشرط . و « من » تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، وتعرف - عادة - على وضعها مما يأتي بعدها . مثال ذلك قوله الحق : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ } ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « مَنْ » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « مَنْ » اسم موصول؛ لأن هذا يستدعي ترك الفعل « يشاقق » في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضممة ، وكذلك يكون « يتبع » فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضممة؛ عند ذلك نقول : « نؤليه ما تولى ونصليه » . ولكن إن اعتبرنا « مَنْ » أداة شرط - وهي في هذه الآية شرطية - فلا بد من جزم الفعل فنقرأها « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : ( ويتبع ) ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله : ( نؤله ) ( ونصله ) والجواب وما عطف عليه مجزومان بحذف حرف العلة وهي الياء من آخره { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } . ومعنى « تَوَلَّى » أي قرب ، ويقال : فلان ولى فلان؛ أي صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يريده بل ويقربه من غير المؤمنين ويكمله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » .

فالذي يحتاج إلى الشرك هو من زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان يملك المال الكافي لإدارة التجارة أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » .

أي أن له مطلق القوة الفاعلة التي لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك؛ لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفاً من شريك واحتياجاً لغريب . ولذلك فمن يشاقق الرسول في أمر إيماني فالحق يوليه مع الذي كفر ويقربه من مراده .

وسبحانه يعلم أن الإنسان لن ينتفع بالشيء المشاقق لرسول الله ، بل يكون جزاء المشاقق لرسول الله والمتبع لغير سبيل المؤمنين أن يقربه الله ويدينه من أهل الكفر والمعاصي ، ويلحقه بهم ويحشره في زمرةهم . ولا يعني هذا أن الله يمنع عن العبد الرزق ، لا ، فالرزق للمؤمن وللكافر ، وقد أمر الله الأسباب أن تخدم العبد إن فعلها . ومن رحمة الله وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد ، فالشمس تعطيه الضوء والحرارة ، والهواء يهب عليه ، والأرض تعطيه من عناصرها الخير :

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } [ الشورى : 20 ]

ويقول سبحانه : { كَلَّا مُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } [ الإسراء : 20 ]

وهكذا نجد العطاء الرباني غير مقصور على المؤمنين فقط ولكنه للمؤمن وللكافر ، ولو لم يكن لله إلا هذه المسألة لكانت كافية في أن نلتحم بمنهجه ونحبه .

{ وَتَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُضَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } ولا بد أن يكون المصير المؤدي إلى جهنم غاية في السوء . وبعد ذلك تأتي سيرة الخيانة العظمى للإيمان ، إنها قول الحق سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . . } .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116)

والحق هنا يتكلم عن إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك فيؤمن؛ لأن الإيمان يجتُب ما قبله أي يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التي لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضاً . ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعيماً يفوق من عاش مؤمناً لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئات فينال عقابها .

مثال ذلك « مخيريق » فحينما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال مخيريق لليهود : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم فقالوا : اليوم يوم سبت فقال : لا سبت . وأخذ سيفه ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة ( أي لا يستطيع أن يقوم معها ) فلما حضره الموت قال : أموالي إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل في حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرتبة الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مخيريق سائق يهود وسلمان سائق فارس وبلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } والله المثل الأعلى نرى في حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يقتربون منه إلى أن يتعرض للثورة بالنقد أو يحاول أن يصنع انقلاباً ، هنا تتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، فما بالناس بالذي يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن رحمة الله بالخلق أن احتفظ هو بإرادة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصي . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ونعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ونعلم أن هناك فرقاً بين من يأتي الذنب ويفعله ويقره وهو يعلم أنه مذنب وأن حكم الله صحيح وصادق ، لكن نفسه ضعفت ، والذي يرد الحكم على الله . وقد نجد عبداً يريد أن يرتكب الذنب فيلتمس له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذي يقول : إنني أعرف أن الربا حرام ولكن ظروف قاسية وضروري ملح . فهو عبد عاصٍ فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو - والعياذ بالله - كافر .

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } ولننتبه إلى أن بعض المستشرقين الذين يريدون أن يعيشوا في الأرض فساداً .

ولكنهم بدون أن يدروا ينشرون فضيلة الإسلام ، وهم كما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

وحين يتكلمون في مثل هذه الأمور يدفعون أهل الإيمان لتلمس وجه الإعجاز القرآني وبلاغته . إنهم يقولون : بلغ محمد قومه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } لكن يبدو أن السهو قد غلبه فقال في آية أخرى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } [ الزمر : 53 ]

هم يحاولون نسبة القرآن إلى محمد لا إلى الله . ويحاولون إيجاد تضارب بين الآيتين الكريميتين . ونقول رداً عليهم : إن الواحد منكم أمة ويجهل ملكة اللغة ، فلو كانت اللغة عندكم ملكة وسليقة وطبيعة لفهم الواحد منكم قوله الحق : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا

تَفَنطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا { [ الزمر : 53 ]

وكان الواجب أن يفهم الواحد منكم أن الشرك مسألة أكبر من الذنب؛ فالذنب هو أن يعرف الإنسان قضية إيمانية ثم يخالفها ، ولكن المشرك لا يدخل في هذا الأمر كله؛ لأنه كافر في القمة . ولذلك فلا تناقض ولا تعارض ولا تخالف بين الآيتين الكريميتين . والمستشرقون إنما هم قوم لا يفقهون حقيقة المعاني القرآنية .

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } . والمشرك مهما أخذ من متع لحياته فحياته محدودة ، فإن بقيت له المتع فلسوف يتركها ، وإن لم تبق له المتع فهي تخرج منه . إذن ، هو إما تارك للمتعة بالموت ، أو المتع تاركة له بحكم الأغيار ، فهو بين أمرين : إما أن يفوتها وإما أن تفوته . وهو راجع إلى الله ، فإذا ما ذهب إلى الله في الآخرة والحساب ، فالآخرة لا زمن لها ولذلك ما أطول شقائه بجريمته ، وهذا ضلال بعيد جداً . أما الذي يضل قليلاً فهو يعود مرة أخرى إلى رشده . ومن المشركين بالله هؤلاء الذين لا يجادلون في ألوهية الحق ولكنهم يجعلون لله شركاء . وهناك بعض المشركين ينكرون الألوهية كلها وهذا هو الكفر . فهناك إذن مشرك يؤمن بالله ولكن يجعل له شركاء .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [ سورة الزمر : 3 ]

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلاً ، لكان من الجائز أن يدخلوا في عبادة الله ، ولكنهم يثبتون العبادة للأصنام؛ لذلك لا مفر من دخولهم في الشرك . ويقول سيدنا إبراهيم

عن الأصنام : { فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِإِلَهِ الْعَالَمِينَ } [ الشعراء : 77 ]

إنه يضع الاستثناء ليحدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدونه من الأصنام ، كلهم عدو لي ، إلا رب العالمين . كأن قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله : { الَّذِي خَلَقَنِي

فَهُوَ يَهْدِينِ \* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [ الشعراء : 78-79 ]

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله . ولنر من يعبدونه ويدعونهم في مصائبهم : { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا . . . } {

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117)

و « إن » هنا بمعنى ما ، ف « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله في موقع

آخر : { إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَهُمْ } [ المجادلة : 2 ]

أي إن الحق يقول : { إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَهُمْ } . وكذلك « إن » في قوله : { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا } ، وكان العرب ينسبون إلى المرأة كل ما هو هين وضعيف ولذلك قال الحق :

{ أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } [ الزخرف : 18 ]

فالإناث في عرف العرب لا تستطيع النصر أو الدفاع ، ولذلك يقول الشاعر :

وما أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلماذا تدعون مع الله إناثاً؟ .

هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات الله؟ . وكانوا يعبدون

الملائكة . وعندما تريدون القسمة لماذا تجعلون لله بنات؟ . على الرغم من أنه سبحانه خلق

البنين والبنات .

ولذلك قال الحق : { تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } [ النجم : 22 ]

أي قسمة جائزة لم يراع فيها العدل .

وعندما ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعِزَّى \* وَمَنَاةَ

الثالثة الأخرى } [ النجم : 19-20 ]

وكذلك كان هناك صنم اسمه « إساف » و « نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث؟ وكيف تدعون

النساء والنساء لا ينصرن ولا ينفعن؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هي

نساء ، أو هي ملائكة؟

والحق يقول : { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا } والأسلوب هنا أسلوب قطع . أي ما يدعون إلا

إناثاً ، تماماً مثلما نقول « ما أكرم إلا زبداً » وهذا نفي الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد .

فساعة يقول الحق : { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا } فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف

عليها الحق : { وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } .

واستخدم الحق في صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقصر الفعل على

المقصور عليه لا يتعداه إلى غيره؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا اقصر أول ، ثم قصر ثانٍ هو قوله

الحق : { وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } .

وكان خدم الأصنام يدعون أن في جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم؛ لذلك كان لا بد أن يكون

في جوف كل صنم شيطان يكلمهم . . وكان ذلك لوناً من الخداع ، فالشياطين ليست جنناً فقط

ولكن من الإنس أيضاً .

فهناك سدنة وخدم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأتي

الخير للآلهة كالتقربين والندور ويسعد السدنة بذلك؛ لذلك كانوا يستأجرون واحداً له صوت

أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : اذبحوا لي كذا . أو هاتوا لي كذا . تماماً كما يحدث من

الدجالين حتى يثبتوا لأنفسهم سلطاناً .

وهكذا كان الذي يتكلم في جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن ، وإما شيطان من الإنس .  
والشيطان من « الشطن » وهو « البعد » .

ووصف الشيطان بأنه مرید يتطلب منا أن نعرف أن هناك كلمة « مارد » وكلمة « مرید » .  
وكل الأمور التي تعيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نمسك مادة « الميم والراء  
والدال » نجد كلمات مثل « أمرد » و « امرأة مرداء » و « شجرة مرداء » ، و « صرح ممرد »

إن المادة كلها تدور حول الملمس الأملس . فأمرد تعني أملس؛ أي أن منابت الشعر فيه ناعمة .  
وصرح ممرد كصرح بلقيس أي صرح مصقول صقلاً ناعماً لدرجة أنها اشتبهت في أنه ماء ،  
ولذلك كشفت عن ساقها خوفاً أن يبتل ثوبها . والشجرة المرداء هي التي لا يمكن الصعود  
عليها من فرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون في ساق  
هذه النخلة بعض المسامير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المرید هو المتمرد الذي لا تستطيع الإمساك به . إذن . ف « مارد » و « مرید » و  
« ممرد » و « مرداء » و « أمرد » ، كلها من نعومة الملمس .  
{ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } .

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان في الآخرة يقول لهم : { وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ  
إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } [ إبراهيم : 22 ]

وهو بذلك يتملص من الذين اتبعوه؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً  
من الخلق فراغت أبصارهم واتبعوه من فرط غباهم .

والشيطان موصوف بأن الله طرده من رحمته . فالحق يقول : { لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لِأَتَّخِذَنَّ . . . }

### لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لِأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118)

لماذا هذا اللعن؟ لقد أذنب الشيطان وعصى الله . وآدم أذنب أيضاً وعصى الله .  
فلماذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم؟ نجد الإجابة في القرآن : { فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ

كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [ البقرة : 37 ]

ونعرف بهذا القول : أن هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .  
فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس : { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ  
طِينٍ } [ الأعراف : 12 ]

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالوا : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا  
{ [ الأعراف : 23 ]

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فليحذر كل

واحد أن يأتي إلى ما حرّم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراماً لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرّم الله حرام . لكني غير قادر على نفسي . وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون عاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار يذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحلل ما حرّم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك . وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله - سبحانه - : « لعنة الله » أي طرده من رحمته . وليتقظ ابن آدم لحبائل الشيطان وليحذره؛ لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أعمل فكره لفند قول الشيطان وكيده ، ذلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان : {

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُفَّارٌ لِّمَا كُنتُمْ بِلِيَّانٍ ﴿٢١﴾ [ الأعراف : 21 ]

وكانت غفلة آدم - عليه السلام - لأمر أَرَادَهُ اللهُ وهو أن يكون آدم خليفة في هذه الدنيا؛ لذلك كان من السهل أن يوسوس الشيطان لآدم ولزوجه : { فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِن سَوْءَاتِهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } [ الأعراف : 20 ]

وأغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمرا في الخلود . ولو أن آدم أعمل فكره في المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فأنت أيها الشيطان الذي قلت بخوف شديد لله : { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [ الحجر : 36 ]

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم؛ لذلك لا بد للمؤمن أن يكون يقظاً . فسبحانه يقول عن الشيطان : { لَعْنَةُ اللهِ وَقَالَ لِأَخِيذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً } . والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما فهذه القضية تحتاج إلى تدبر . ونلاحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون في المستقبل من أنه سيكون له أتباع من البشر؟ وكيف قال : { لِأَخِيذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً } ؟ .

لقد عرف أنه مادام قد قدر على أبيهم آدم وأمهم حواء فلسوف يقدر على أولادهما ويأخذ بعضاً من هؤلاء الأولاد إلى جانبه ، قال ذلك ظناً من واقع أنه قدر على آدم وعلى حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صدقوا إبليس في ظنه . وكان هذا الظن ساعة قال : { لِأَخِيذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً } .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر على آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذوا التكليف من الله مباشرة ، فما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن - كما نعلم - هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم

وهو نسبة مرجوحة : { وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } [ سبأ : 20 ]  
ولذلك قال إبليس أيضاً : { لئن أخرجتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً } [ الإسراء :

[ 62

وقال كذلك : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ ص : 82 ]  
مادام إبليس قد قال : { لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً } .  
فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض - كما نعلم - هو القطع .  
ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذي لا كلام فيه أبداً .  
وما وسيلة إبليس - إذن - لأخذ نصيب مفروض من بني آدم؟  
ويوضح الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس : { ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرهم فليبتكن  
الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراً مبيناً (119)

ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ  
الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراً مبيناً (119)

في هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لنصيب مفروض من بني آدم . فإبليس هو القائل كما  
يحكى القرآن : { لأقعدن لهم صراطك المستقيم } [ الأعراف : 16 ]  
وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب؛ لأن طريق من اختار السلوك السيئ لا  
يحتاج إلى شيطان؛ لأنه هو نفسه شيطان؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخمار ، ولكنه يقف على  
باب المسجد ليرى الناس وهي تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفي هذا إجابة لمن يقولون : إن  
الوساوس تأتي لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هي أشرف موقف للعبد؛ لأنه يقف بين  
يدي الرب؛ لذلك يحاول الشيطان أن يلهي الإنسان عنها حتى يجبس عنه الثواب . وهذه  
الوساوس ظاهرة صحية في الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة ينزع الشيطان الإنسان  
نزعة فليتذكر قول الحق : { وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله } [ الأعراف : 200 ]

وعندما نستعيد بالله فوراً يعرف الشيطان أنك منتبه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن في أثناء  
الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعد بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين  
يعرف الشيطان أنك منتبه له مرة واثنين وثلاثاً فهو يتعد عنك فلا يأتي لك من بعد ذلك إلا إذا  
أحسن منك غفلة .

ويبين لنا الحق طريقة الشيطان في أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : «  
ولأضلنهم » . والإضلال معناه ان يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للغاية الحميدة؛ لأنه  
حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى ، وأما

إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو الضلال . والحق سبحانه وتعالى بوضعه منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف في البداية يتسع حتى تنتهي إلى غير غاية .

وضرربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة في منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المتجه إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلما سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض في أن كل خطوة يخطوها تهيئ له القرب إلى الغاية . لقد ضرربنا مثلاً توضيحياً ب « الكشك » الذي يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل « الكشك » اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات في هذا « الكشك » يحرك قضيباً يكون سمكه في بعض الأحيان عدداً من المليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطار أن تنتقل من قضيب إلى آخر . الضلال - إذن - أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة في هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليبعده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتي على لسان الشيطان ما قاله الحق في هذه الآية : « ولأمنينهم » والأمني هي أن ينصب الإنسان في خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذي نراه جالساً ويمني نفسه قائلاً : سيكون عندي كذا . . وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك . ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مُنَى . . إن تكن حقاً . . تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بما زلنا رعداً

أي أنه استمتع بهذه الأمانى في أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هي أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمانى بضاعة الحمقى » والشيطان يمضي الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : { وَلَا مُرْتَهَمٌ فَلْيَبْتَئَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ } والبتك هو : القطع .

والأنعام : هي الإبل والبقر والغنم ، أي قطع آذان الأنعام . والقرآن قال في الأنعام : { تَمَانِيَةً أَرْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلَ الدَّكْرِينِ حَرَّمَ أُمَّ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبُؤُنِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلَ الدَّكْرِينِ حَرَّمَ أُمَّ

الأنثيين أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ } [ الأنعام : 143-144 ]

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآني ويوضح لنا

ان نفرق جيداً لنفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضا : كلمة « توأم » التي نظن أنها تعني « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقي أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان { وَالْمُرْتَهَمُ فَلْيَبْتَئَنَّ آذَانَ الْاَنْعَامِ } فللهذا قصة . ونحن نعرف أن المنتفعين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلحظ أحد أنه من الغباء تَقَبُّلُ فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسبابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتفعين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدنة ليأخذوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجدها وسيلة ، فيجلس في جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأتي الأغبياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها .

ولذلك كان السدنة دائماً وفي أغلب الحالات أهل سمنة لأنهم أهل بطننة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبغض الحَبْرَ السمين » .

فمثل هذا الحَبْرَ يستسهل أكل خير الناس والانتفاع به ، فهو ينتفع بضلالات الناس ، ومن ينتفع بالضلالة يرى أن حظه في أن تستمر الضلالة ، مثله في ذلك مثل المنتفع من تجارة المخدرات إنه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات . . وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات يبغض ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذي يصيبه الغم عندما تأتي البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستتر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المنتفع بالفساد هبة إصلاح يبغض ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون في الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عفريتاً ، والعفريت يطلب ناقة أو ذبيحة أو دما .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشتى الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أي واحدة منها ، فهذا يعني أنها مندورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفي آية أخرى يقول فيها الحق : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الرَّزْقِ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً

{ [ يونس : 59 ]

ويورد الحق أيضاً في هذا الأمر : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلَ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَحْنُ بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلَ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّأَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [ الأنعام : 143-144 ]

فهل المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذي اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟ .  
لا شيء من هذه كلها محرّم؛ فقد خلقها الله كلها رزقاً حلالاً . والنعمة نفسها تعرف وظيفتها ، ونلاحظ في الريف المصري عندما تُختنق جاموسة أو بقرة أو خروف بالجل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ويمد عنقه فيقال : « لقد طلب الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقني بالذبح لتستفيد من لحمي ونتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك؛ لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف فائدتها بالنسبة للإنسان فتتمد رقبتها طالبة الذبح ، كما نعرف أنها في أثناء حياتها تخدم الإنسان إما في أن تحمل الأثقال ، وإما أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهي تمد رقبتها كأنها تطلب الذبح ليستفيد الإنسان من لحمها ، فهي مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاماً وتسخييراً .

ومادام الله قد جعل لنا كل هذا . . فلم نقبل تحريم غير المحرّم وتحليل غير الحلال؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكراً يقول السدنة : يكفي أنها جاءت بأربعة بطون وأنت بالخامس فحلاً ذكراً ويشقون أذن الناقة ويتركونها؛ وعندما يراها أحد ويجد أذنها مشقوقة فالعرف يقضي ألا تستخدم في أي شيء ، لا في الرضاعة ، ولا في الحمل ولا يجلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكأ وتسمى « البحيرة » ويأخذها السدنة في أي وقت؛ لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها في الوقت الذي يتراءى لهم ، ولذلك قال الحق : { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ } [ المائدة : 103 ]

والبحيرة - إذن - هي الناقة التي تبحر آذاتها - أي تشق - فذلك يعني أنها جاءت بأربعة أبطن تبعاً ثم جاءت بالذكر في البطن الخامسة ويهبها صاحبها للأصنام . والبحيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهي وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر في البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نذراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى في أي أرض وتشرب من أي ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الغضّ . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآهنتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى لم يذبحوا الذكر لآهنتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه

هي الرصييلة؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهي وعاء النسل؛ لذلك فهبة الفحل  
للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

وإنما أمهات القوم أوعية ... مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى في المزارع أن إناث المواشي تحتاج إلى فحل واحد؛ وقد يكون في البلدة كلها فحل واحد أو  
اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال في الريف حين تلد الماشية ذكراً؛ لأنه  
سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم  
تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أي أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد في بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون :  
الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها :  
الوصيلة .

هكذا نجد البحيرة هي الناقة التي أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهي النذر من أول  
الأمر ، والوصيلة وهي التي ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أي قدمت له  
الحماية . والحام هو الذكر الذي نتجت من صلبه عشرة أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا  
يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : حمى ظهره .

وهناك من يتحذلق في عصرنا قاتلاً : أنا نباتي ، لا آكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم  
قد يذبح إنساناً ويدعي الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول لهؤلاء : انتبهوا؛ إن الله قد سخر لنا  
هذه الأنعام وهي نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : { وَلَا مُرْتَبِّئَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ } وعرفنا أنهم كانوا  
يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام  
وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا؛  
فهذا مصدر للخوف من أن يزيغ الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : { وَلَا مُرْتَبِّئَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ } .  
وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع ان الأمر يجب أن يكون لله  
وحده ، وانتساءل : كيف يغيرون من خلق الله؟ وكل شيء هو من خلق الله .

والخلق - كما نعلم - إيجاد من عدم ، وسبحانه خلق كل شيء وجعل لكل كائن وظيفة ما ، فهو  
خلق عن حكمه لغاية ، وهذه الغاية موجودة في علم الخالق أزلاً - والله المثل الأعلى - نجد  
المستحدثات الصناعي في الأسواق كغسالة الملابس مثلاً ونعرف أن الذي صممها إنما صممها من  
أجل راحة الناس ، وقد فكر في هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التي تؤدي هذا العمل  
لترريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكروفون » أراد في البداية

هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته فلن نقع في محذور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلنبحث في القرآن عن نظائره ، وقد نجد في القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا : { فَالْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ } ، وفي موقع آخر يقول : { أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأمر } [ الأعراف : 54 ]

والخلق المعروف نراه في الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به قوله الحق : { كُنْ فَيَكُونُ } [ يس : 82 ]

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع : { فَطَرَتِ اللهُ التي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهُ { [ الروم : 30 ]

وهذا يعني أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن؟ . إنها الصفء الأولي في النفس والطبيعة . ومثال ذلك حين يوجد الإنسان في بيئة لا تكذب فلن يعرف في حياته الكذب . وعندما يوجد الإنسان في بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة؛ فالإنسان إنما يتعرف على الموبقات من النقص المجتمعي ، بدليل أن البلدان التي طبقت الشريعة الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدي عقوبة وحداً في السرقة انتهت فيها السرقة .

ونشأ جيل لم ير سارقاً . ومن يترك شيئاً في مكان ما يظل في مكانه إلى أن يعود صاحبه ليجمده ، هذه هي الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة بطبيعتها هو أننا نجد أن الذي يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص ويستتر؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم . لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنه ينظر بكل ملكاته ، أما إن نظر - والعياذ بالله - إلى محارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متنافراً ومغايراً لطبيعته . والتكلف هو الإتيان بشيء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة هو تغيير خلق الله .

وصور الفساد لا تأتي إلا من هذه الناحية .

كيف؟ .

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث - أي أنه يحاول أن يكون أنثى - وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزینتها ويتخنث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهي تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد - أمدته الله بالعافية - وهو شاعر وزميل لي ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرتي من الذين اللاتي ... حرت بين الفتى وبين الفتاة  
الشاعر يعلن حيرته؛ لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفتى والفتاة ، ففي بعض الأحيان صاروا من « الذين واللاتي معاً » لأن الفتى يتشبه بالفتاة ، والفتاة تتشبه بالفتى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الحلقة ، كنزع شعر الحواجب من منابته وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويفضح ذلك نبت الشعر من جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سرّ جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفاً ، وقد يكون سرّ الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما يغطي هذه الأمزجة . ألا ترى في الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة لا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتي آخر فيعجب بالفتاة وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذي أنشأ السيل العاطفي ليتواءم الخلق بهذا السيل . وقد تحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيل العاطفي .

وقد تريد المرأة أن تجعل حمرة خديها في لون الورد فتضع عليهما بعضاً من المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها في الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون مساحيق قد خنقت مسام جلدتها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التي يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعي؟ . إن الأظافر ذات لون أرادته الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تتنفس أيضاً . وقد يفتي واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله؛ فهذه ليست أصبغاً؛ لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر - مثل الحنة - وفي هذه الحالة يصل الماء في الطهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التي على الظفر فلا تُزال إلا بمادة كيميائية ويمكن إزالتها وهي لون من الطلاء وليست

صبغة ولا يصل الماء معها في الغسل أو الوضوء إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسك ومن يُعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطي للإنسان سكناً ومنتعة ولكن بتوازن عاطفي وعقلي ، فلو أراد الله لخذ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للحدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيح الغرائز على قدر القوة التي في الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قدرة الرجل ، فسبحانه يعطي على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقا بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تغيير لخلق الله . وكذلك المرأة التي تحدث وشماً ، أو الرجل الذي يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلاها { فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ } . ويقول الحق من بعد ذلك : { وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا } والولي للشيطان هو الذي يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذي يورده مهاوي وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك : { يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ . . . } .

**يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)**

وهذا يعني أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشيء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشيء يسره أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه في الحياة العادية فالإنسان منا يجب ماله الذي قد جاء بالتعب ، والصدقة في ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق : { الشيطان يعدُّكم الفقر } [ البقرة : 268 ] لماذا؟ .

لأن الشيطان يوسوس في صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان؛ لأنه يورده موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمانى الكاذبة في الوسوس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله : { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا } [ الكهف : 36 ]

المتفاخر يقول : مادام الله قد أعطاني في الدنيا ، وما دامت مهمة الله هي العطاء الدائم فلا بد أن يعطيني ربي في الآخرة أضعاف ما في الدنيا؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد في الآخرة ، فماذا كان جزاؤه؟ .

لقد رأى انهباء زراعته وعرف سوء مصير الغرور؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً { وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } .

فما هو الغرور؟ . هناك « غرور » - بضم الغين - ، و « غرور » - بفتح الغين - . والغرور - بضم الغين - هو الشيء يُصوّر لك على أنه حقيقة وهو في الواقع وهم . والغرور - بفتح الغين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغرور - بفتح الغين - هو الشيطان؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمي ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك : { كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا } [ النور : 39 ]

وكذلك الغرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَأْهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [ النور : 39 ]

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذي كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيّب أمله ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذي يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق : { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } [ الفرقان : 23 ]

وقد يأتي واحد ويدعي لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

- هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التي أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أيصيرون إلى عذاب؟ . ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس في باله الله .

بل قام بتلك الأعمال وفي باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكرم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل به ، وينطبق عليه قول الرسول :  
عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا

أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار »

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم في الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم . ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين في باهم الله؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويُسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة ، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله في عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم ، فلا يستدلون .

{ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } وماذا يكون نصيب هؤلاء في الآخرة؟ يقول سبحانه : { أولئك مأواهم جهنم . . . }

**أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)**

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذي يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطرار يكون اندفاعاً أو جذباً؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنتطق قائلة : { هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ } [ ق : 30 ]

كأن النار ستجذب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أي لا مهرب ولا مفر ولا معدى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله في دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر . { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [ غافر : 16 ] والمقابل لذلك يورده الحق : { والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . . }

**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)**

وحين يأتي سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهياة ومستعدة لتسمع عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينفر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل : { فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [ النساء : 114 ]

وهنا يقول : { سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } . والمتيقن من الله والواثق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك « حينما سأل النبيُّ أحد الصحابة وكان اسمه

الحارث بن مالك الأنصاري : ( كيف أصبحت يا حارث؟ ) .

قال : أصبحت مؤمناً حقاً . لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعاني وهي الإيمان حقاً؛ لذلك

قال الرسول : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟

أجاب الصحابي : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت نهارى ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأني أنظر إلى أهل النار يتصاغون فيها ( يتصايحون فيها ) .

فقال : « يا حارث : عرفت فالزم ثلاثا » .

والحق ساعة يقول : « س » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على

الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . { والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } .

والجنة - كما قلنا من قبل - على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهي الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصوَّح نباتها وشجرها ويبيس ويتناثر ، أو يصيبها الجذب ، أما جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من أي قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر كقول الحق : { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ } [ القلم : 17 ]

وقوله سبحانه : { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ } [ البقرة : 265 ]

[ البقرة : 265 ]

والجنة بربوة هي البستان على مكان عال ، وهي ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع في هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة : { فَآتَتْ أُكُلَهَا

ضِعْفَيْنِ } [ البقرة : 265 ]

ويزيد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذ الرِّي من المطر للجذور ، والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } ويطمئننا سبحانه على

احتفاظها بنضرتها وخضرتها ، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } وهذا يعني أن منبع المياه بعيد . ومرة

أخرى يقول : { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } ويعني أن منبع المياه لن يحجزه أحد؛ لأن الأنهار تجري وتنبع من تحتها .

ويعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } أي أن المكث في الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد من؟ { وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } . وحين يعدك من لا يخرجك شيء عن إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق - سبحانه - . أما وعد المساوي لك في البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه ، أو لا يجد الوجد واليسار والسعة والغنى فلا يستطيع أن يوفي بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا { وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقراراً منهم بصدق ما يقوله الله ، أوجد أصدق من الله؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله؛ لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو لخوف ممن يكذب عنده ، والله منزه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق : { لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي . . . } .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا  
نَصِيرًا (123)

والأمنية - كما عرفنا - هي أن يطمح الإنسان إلى شيء ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، إن الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان في الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذي نضربه لذلك ، عندما يوجد بئر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها حواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد هذه الحوافي وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمس البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هي وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد ممتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . كأن يأتي إلى جوانب البئر ويبني حولها جداراً من الطوب كي لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاءً للبئر ، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر في راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملاًوا جرارهم وقربهم فيفكر في رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم

يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى تمتع دون عمل . . فهذه هي الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هي الأمانى التي لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إذن فالأمنية هي أن يطمح إنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شيء سبباً ، ولنلاحظ أن الحق قد قال : { فَاتَّبِعْ سَبَبًا } [ الكهف

: 85 ]

أي أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء ترقى أساليب الحياة في الأرض ، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فينزل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر في مجارٍ محددة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون في كل مجرى تراب من صخور أو طمي؛ لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها في صهاريج لتأتيه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلاً . وصنع الإنسان الكوب في البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمانى . وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمتثل الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن ينتسب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا؛ فالإنسان محكوم بما يدين به .

والمسلم أول محكوم بما دان به .

كذلك قال الحق : { لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ } والخطاب هنا لمن؟ . إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضي حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل؟ يقولون : أحسن الظن بالله . ونسمع الحسن البصري يقول هؤلاء : ليس الإيمان بالتمني ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل ، إن قوماً أهدتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل به .

وسبحانه يقول هؤلاء : { لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ } . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين؛ فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه

للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأماي بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب ب { لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ } شاملاً أيضاً للكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأماي كقول المنكر للبعث : { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا } [ الكهف : 36 ]

هذه هي أماي الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن أمايهم : { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ } [ البقرة : 111 ]

وقالوا : { لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً } [ البقرة : 80 ]

كل هذه أماي خادعة؛ لأن منهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذي جاء خاتماً فليعمل؛ لأن القضية الواضحة التي يحكم بها خلقه هي قوله سبحانه : { مَنْ يَعْمَلْ سِوَاهَا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } .

وأبو هريرة رضي الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَدَّدُوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ فِي كُلِّ مَا يَصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةً حَتَّى الشُّوْكَةِ يَشَاكُهَا وَالنَّكْبَةَ يَنْكَبُهَا » .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء في هذه الآية هو الشرك بالله؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند في ذلك إلى قوله الحق : { كَذَلِكَ نُجْزِي كُلَّ كَافِرٍ } [ فاطر : 36 ]

كأن الجزاء المؤلم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « مَنْ يَعْمَلْ سِوَاهَا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » .

ولا يقال فلان لا يجد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءاً فليبحث لنفسه عن ولي أو نصير ولن يجد .

والولي هو الذي يلي الإنسان ، أي يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلي الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوياً ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولي » ، و « النصير »؟ . والولي - كما عرفنا - هو القريب الذي يلي الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحي أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة

كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه في سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتي لنصيرته ، بينما لا يجد الكافر ولياً ولا نصيراً ، ولن يجد من يقرب منه

ولن يجد من ينصره إن عصته الأحداث ، وعض الأحداث هو الذي يجعل الناس تتعاطف مع

المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفرع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .  
ومن بعد ذلك يقول الحق : { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ . . . }

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا  
(124)

وجاءت كلمتا « ذكر » و « أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله ( يعمل ) أن المرأة معفية منه؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل ، وفي ذلك إيحاء بأن امرها مبني على الستر .  
لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ } . وجاء سبحانه هنا بلفظة ( من ) التي تدل على التبعيض . أي على جزء من كل فيقول : { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ } ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هي أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض ، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح؛ فالذي يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح .

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد . كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كصرف طرق وصناعة بعض الآلات التي ينتفع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكشفي ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو : { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } [ النساء : 124 ]

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً ونجد من يقول : من يعمل السوء هو الذي يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو القائل :  
{ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا } [ يونس : 27 ]

ومن يصنع الحسنه يأخذ عشرة أمثالها . وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلا من الله ، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتي في هذا المقام قوله تعالى : { وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري ، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل .

أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف . إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى { وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } ، فسبحانه لا يكتفي بجزاء صاحب الحسنه بحسنه ، بل يعطي جزاء الحسنه عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل؛ فالتراجع في الفضل - بالنسبة لله - هو ظلم للعبد . ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو القائل : { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [ يونس : 58 ] وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : { فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } والنقير هو : النقرة في ظهره النواة ، وهي أمر ضئيل للغاية . وهناك شيء آخر يسمى « الفئيل » وهو المادة التي تشبه الخيط في بطن نواة النمر ، وشيء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين . ومن بعد ذلك يقول الحق : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ . . . } .

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)

وساعة نسمع استفهاماً مثل قوله الحق : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } فحسن الاستنباط يقتضي أن نفهم أن الذي أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفي حديثنا اليومي نقول : ومن أكرم من زيد؟ . معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح بأن زيداً هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على صورة الاستفهام إلا إذا كان المخبر عنه محدداً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أن من يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكأن الناس ساعة تدير رأسها بحثاً عن جوابٍ للسؤال لن تجد إلا ما حدده السائل .

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } والإجابة على مثل هذا التساؤل : لا أحد أحسن ديناً

من أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقي خبراً مؤكداً في صيغة تساؤل مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصدق كله : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } [ لنساء : 122 ]

وسبحانه يلقي إلينا بالسؤال ليترك لنا حرية الجواب في الكلام ، كأنه سبحانه يقول :  
- أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة في إطار ذمتك وحكمك فقل لي من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن ممن أسلم وجهه لله فتقول :

- لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب إقراراً ، فلا إقرار - كما نعلم - سيد الأدلة .

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } ونعلم أن الكلمة إذا أطلقت في عدة مواضع فهي لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى : { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } [ آل عمران : 106 ]

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذي توجد به تميزات تبيّن وتوضح ملامح الأشخاص . لأننا لن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل نتعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } [ القصص : 88 ]

فإننا نتساءل : ما المراد بالوجه هنا؟

إن أردنا الوجه الذي يشبه وجوهنا فهذا وقوع في المحذور ، لأن كل شيء متعلق بالله سبحانه وتعالى نأخذه على ضوء « ليس كمثله شيء » نقول ذلك حتى لا يقولن قائل : مادام وجه الله هو الذي لن يهلك يوم القيامة فهل تملك يده أو غير ذلك؟ . لا؛ إن الحق حين قال : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } فالمقصود بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزّه عن التشبيه وسبحانه

القائل : { فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجَهَّ اللَّهُ } [ البقرة : 115 ]

إذن فوجه الله - هنا- هو الجهة التي يرتضيها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة في أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولي وجهك صوب الكعبة أمّا وجه الله؛ لأن الله موجود في كل الوجوه ، فأني متجه للإنسان سيجد فيه الله ، بدليل أننا نصلي حول الكعبة ، وتكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة في أثناء الطواف حول الكعبة وفي أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا لنطوف حولها ، ولتكون متجهنا إلى الله في جميع الاتجاهات .

{ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجَهَّ اللَّهُ } [ البقرة : 115 ]

أي الجهة التي ارتضاها سبحانه وتعالى .

ونحن هنا في هذه الآية نرى قول الله : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } . وأسلم وجهه

أي أسلم اتجاهه؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو غرض ، فيكون وجهه هو المتجه؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا - إذن - هو الاتجاه .

ولماذا جاء الحق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح؟؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أضرف موقع للعبد؛ لأن القامة العالية والوجه الذي يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أي أسلم وجهته واتجاهه للهن ومعنى « أسلم » من الإسلام ، ف « أسلم » تعني : سلم زمام أموره لواحد . حين يسلم الإنسان زمامه إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوي أنه يعرف في هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم لمساو إلا إن شهد له قبل أن يلقي إليه بزمامه أنه صاحب حكمة وعلم ودراية عنه . فإن لم يلمس الإنسان ذلك فلن يسلم له . وما أجدر الإنسان أن يسلم نفسه لمن خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور؟ .

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أضمن أن يبقى هذا الإنسان حكيماً؟ إنه كإنسان هو ابن أغيار ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة المسلم لها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامي لمن خلقتني فهذا منتهى الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن آمنت به إلهاً قوياً وقادراً وحكيماً وعلماً وله القيومية في كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله فلن يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله . { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } [ النساء : 125 ]

ولماذا جاءت كلمة « محسن » هنا؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، ونعرف أننا آمننا بالله غيباً ، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان ، فإننا نعبد الله كأننا نراه فإن لم نكن نراه فهو يرانا . « والحوار الذي دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له : « كيف أصبحت يا حارث؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظر ما تقول؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ » قال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت نھاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ) يتصايحون فيها ) فقال : « يا حارث عرفت فالتزم ثلاثاً » .

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنه في لقاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزة أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه ( وهو معكم أينما كنتم ) إنه يستحضر أنه لا يغيب عن الله طرفة عين فيستحيي أن يعصيه .

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما سأل حبريل - عليه السلام - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال له : فأخبرني عن الإحسان؟ قال : « أن

تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .» .

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تعصيه؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك .  
فكيف تفعله مع الله؟! .

وتتجلى العظمة في قوله الحق : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ  
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } لماذا إذن « ملة إبراهيم »؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ  
أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } [ النحل : 120 ]

ومعنى كونه « أُمَّةً » : أنه الجامع لكل خصال الخير التي لا تكاد تجتمع في فرد إلا إن وزعنا  
الخصال في امة بأكملها؛ فهذا شجاع وذلك حلِيم والثالث عالم والرابع قوي ، وهذه الصفات  
الخيرة كلها لا تجتمع في فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة . وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه  
السلام أن يكون جامعاً لخير كثير فوصفه بقوله : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [ النحل : 120 ]  
ويقول هنا عن ملة إبراهيم : { وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } . والملة هي الديانة و « حنيفاً » أي «  
مائلا عن الباطل إلى الحق » . والمعنى اللغوي لكلمة « حنيف » أنه هو « المائل » . وكان  
إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومتى تُرسل الرسل إلى الأقوام نعرف أن الرسل تأتي إذا طم الفساد  
وعمّ ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذي فيها . فالحق سبحانه يمهّل  
الناس وينظرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أوجّه ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتي الرسول إلى قوم  
ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل عن الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالا . {  
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } .

ويأتي الحق من بعد ذلك بالغاية الواضحة { واتخذ الله إبراهيم خليلاً } فما هي حيثيات الخلة؟  
لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم لله وجهه ، وكان محسناً ، واتبع الملة ، وكان حنيفاً ، هذه هي  
حيثيات الخلة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام .  
لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله في النار ، فقال  
جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة؟ .

فقال إبراهيم : « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاسأل اربك فقال : « حسبي من سؤالي  
علمه بحالي » فقال الله : « يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » أي أنه لا يطلب من جبريل  
بذاته شيئاً . وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى أنس الناس بأبنائها؛ ونعلم إن إسماعيل  
قد جاءه ولداً في آخر حياته ، وأوضح له الحق أنه مبتليه ، وكان الابتلاء غاية في الصعوبة؛  
فالابن لا يموت؛ ولا يقتله أحد ولكن يقوم الأب بذبحه ، فكم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم  
عليه السلام؟! .

وسار إبراهيم لتنفيذ أمر ربه ، ولذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام : { يا بني إني أرى في

المنام أَيُّ أَدْبَحَكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى { [ الصافات : 102 ]

ويجعل الحق ذلك برؤيا في المنام لا بالوحي المباشر . ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام . لم يقل : « افعل ما بدا لك يا أبي » ولكنه قال : { يَا أَبْتَ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [ الصافات : 102 ]

أَيُّ أَنْ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ أَسْلَمَا مَعًا لِأَمْرِ اللَّهِ .

فماذا فعل الله؟ : { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ \* وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ \* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \* وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ } [ الصافات :

[ 112-104 ]

ولا يكتفي الحق بإعطاء إبراهيم إسماعيل ابناً ، وله فداء ، ولكن رزق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق . { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } .

وجلس العلماء لبيحثوا معنى كلمة « خليلاً » ، وبيحثوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التي وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الخاء ولام ولام » . و « الخَلْ » - بفتح الخاء - هو الطريق في الرمل ، وهو ما نسميه في عرفنا « مدقاً » ، وعادة يكون ضيقاً . وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان بينهما ودّ عالٍ ، وإن لم يكن بينهما ودّ فواحد يمشي خلف الآخر . ولذلك سموا الاثنان الذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متخلل في الآخر أي متداخل فيه . والخليل أيضاً هو من يسد خلل صاحبه . والخليل هو الذي يتحد ويتوافق مع صديقه في الخلال والصفات والأخلاق . أو هو من يتخلل إليه الإنسان في مساتره ، ويتخلل هو أيضاً في مساتر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه في أي مكان سواء في الصالون أو في غرفة المكتب أو في غرفة النوم . لكن هناك من لا يستقبله إلا في الصالون أو في غرفة المكتب . { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } أي اصطفاه الحق اصطفاً خاصاً ، والحب قد يُشارك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل :

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَابِينَ } [ البقرة : 222 ]

وسبحانه القائل : { فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [ آل عمران : 76 ]

وهو يعلمنا : { وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } [ آل عمران : 146 ]

ويقول لنا : { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [ آل عمران : 148 ]

ويقول أيضاً : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ } [ الممتحنة : 8 ]

لكنه اصطفى إبراهيم خليلاً ، أي لا مشاركة لأحد في مكانته ، أما الحب فيعم ، ولكن الخلة لا مشاركة فيها . ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى قومه قائلاً : « أما بعد أيها

الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً وإن صاحبكم خليل الله تعالى ( يعني نفسه » .

وإسماعيل صبري الشاعر المصري الذي كان أسبق من أحمد شوقي وكان شيخاً للقضاة . التقط هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التي دارت عليه في القرآن ، ويقول :  
ولما التقينا قرب الشوق جهده ... خليلين زادا لوعة وعتابا  
كأن خليلاً في خلال خليله ... تسرب أثناء العناق وغابا  
وشاعر آخر يقول :

فضمنا ضمة نبقى بما واحداً ... ولكن إسماعيل صبري قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب في البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ . . . } .

**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (126)**

وسبحانه أوضح في آية سابقة أنه لا ولي ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .  
ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أن تظنوا أن هناك مهرباً أو محيصاً أو معزلاً أو مفراً؛ فله ما في السموات وما في الأرض ، فلا السموات تُؤوي هارباً منه ، ولا من في السموات يعاون هارباً منه ، وسبحانه المحيط علماً بكل شيء والقادر على كل شيء .  
ويقول الحق بعد ذلك : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ . . . } .

**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُنَالِي عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127)**

« ويستفتونك » أي يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مرّ بمراحل منها قول الحق : ( يسألونك ) .

وهي تعبير عن سؤال المؤمنين في مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هي : « ويستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين؟

لقد سألوا عن الخمر والأهلة والحيض والإنفاق . والسؤال هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

أي أنه طلب منهم ألاّ ينبشوا وألاّ يُفتشوا في أشياء قد يجلبون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة في معرفة أي حكم يحدد حركة الإنسان في الحياة . ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا يسألونه؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منهج الله فأحب أن يجعل منهج الله مسيطراً على كل أفعاله ، فالشيء الذي أجمله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه .

وأيضاً فالإسلام جاء ليجد عاداتٍ للجاهلية وللعرب ولهم أحكام يسيرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فما أحبوا أن يستمروا في ذلك مجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوك لهم من صميم أمر الإسلام؛ لذلك سألوه في أشياء كثيرة . أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوجد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد في أمر ما : فلنستفت عالماً في هذا الأمر؛ لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم في استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول : { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [ سورة النساء : 83 ]

الاستفتاء - إذن - يكون لحكم موجود ، ولكن المستفتي لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص داراً للإفتاء؛ لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات في الدين . وقد يعيش حياته ولا تمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتي فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرتيب ، أما الفتوى فهي أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتي إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ } كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيما يتعلق بالنساء حلاً وحرمة وتصرفاً . فكيف يكون الجواب؟ : { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ } ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قاله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه - سبحانه - يفتيهم من جديد . فلعل الحكم الذي نزل أولاً ليس على باهم أو ليسوا على ذكر منه .

فقال الحق : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ } [ النساء : 127 ]

أي أن الحق يفتيكم في أمرهن ، وسبق أن نزل في الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها : { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ } [ النساء : 3 ]

وتوالت آيات من بعد ذلك في أمر النساء .

فقوله الحق : { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ } .  
 إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتعجل الاستفتاء في شيء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده  
 من علم لعله يجد فيه الجواب الذي يغنيه عن أن يستفتي .  
 ومع أن الاستفتاء في أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، يتيمات وغير يتيمات فلماذا جاء  
 الجواب في يتامى النساء؛ لأن النساء الكبيرات لهن القدرة على أن يبحثن أمورهن ، ولسن  
 ضعيفات ، أما اليتيمة فهي ضعيفة الضعيفات ، وعرفنا معنى اليتيم ، واليتيم حيث لا يبلغ  
 الإنسان المبلغ الذي يصبح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حدَّ البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة  
 أنه يتيم؛ لذلك جاء الجواب خاصاً بيتامى النساء؛ لأن يتامى النساء هُنَّ دائماً تحت أولياء ،  
 هؤلاء الأولياء الذين نسميهم في عصرنا بـ « الأوصياء » حالتان : فإن كانت البنت جميلة  
 وذات مال فالوصي يجب أن ينكحها ليستمتع بجمالها ويستولي على مالها . وإن كانت دميمة  
 فالوصي لا يرغب في زواجها لذلك يعرضها ، أي يمنعها من أن تتزوج؛ لأنها إن تزوجت فسيكون  
 الزوج هو الأولى بالمال .

فاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وها نحن أولاء نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه -  
 وكانت له الفراسات التي تُسمى الفراسات الفاروقية جاءه واحد يسأله عن أمر يتيمة تحت  
 وصايته ، فقال سيدنا عمر :

- إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك ، وإن كانت دميمة فخذها زوجة وليكن مالها شقيقاً  
 لدمايتها .

ويقول الحق : { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ } [

النساء : 127 ]

والذي كتب لهن إما أن يكون مهوراً . وإما أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة  
 عسف الولي . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالي الذي لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، ونجد  
 مادة « رغب » تعني « أحب » . فإذا ما كان الحال « أحب أن يكون » يقال : « رغب فيه »  
 ، وإذا « أحب ألا يكون » فيقال : « رغب عنه » . ولذلك قال الحق : { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مَلَّةٍ

إِبْرَاهِيمَ } [ البقرة : 130 ]

ومادامت « عن » جاءت كما في الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول « رغب في »  
 فهو لأمر محبوب . وكلمة « ترغبون » في هذه الآية نجدتها محذوفة الحرف الذي يقوم بالتعددية حباً  
 أو كرهاً؛ لأنها تقصد المعنيين .

فإن كانت الرغبة في المرأة . . . تصير « ترغبون في » وإن كانت المرأة دميمة وزهد فيها القول

يكون : « ترغبون عن » ولا يقدر أحد غير الله على أن يأتي بأسلوب يجمع بين الموقفين

المتناقضين . وجاء الحق ليقنن للأمرين معاً .

ويأتي الحق من بعد ذلك بالقول : { والمستضعفين من الولدان } بجانب اليتيمات وهو الصنف المستضعف الآخر ، أي اليتيم الذي لم يبلغ مبلغ الرجال وحينما يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية على مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان ملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمة هذا الأسلوب لا يمكن أن يأتي به إلا رب كريم . فالحق قال : { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ } [ النساء : 5 ]

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هي في الأصل ملك للسفهاء؛ فالمال ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأخوة الإيمانية للتكاتف والتكافل ، وساعة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يحجرون على سلوكه حماية لماله من سفهه ، والمال يسان ويحفظ ومطلوب من الوصي والولي أن يحميه ، هذا ما قاله الحق في السفهاء .

والحق يتكلم في اليتامى . فيقول سبحانه : { وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم } [ النساء : 6 ]

لأن السفهيه أو المبذر ليس لأي منهما سلطة التصرف في المال بل سلطة التصرف تكون للوصي ، وينتسب المال في هذه الحالة للوصي لأنه القائم عليه والحافظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشده فعلى الوصي أن يرد له المال .

ونحن أمام آية تضع القواعد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان : { وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا } [ النساء :

[ 127 ]

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط؟ والقسط - بالكسر - تعني العدل . وتختلف عن « القسط » - بفتح القاف - وهو يعني الجور ، قسط - يقسط أي عدل ، وقسط يقسط ، أي جار ، فالعدل مصدره « القسط » بالكسر للقاف ، والجور مصدره « القسط » بالفتح للقاف . وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سفها بغير علم - قالوا :

- يأتي القرآن بالقسط بمعنى العدل في آيات متعددة ، ثم يأتي في موقع آخر ليقول : { وَأَمَّا

القاسطون فكأنوا لجهنم حطبا } [ الجن : 15 ]

و « القاسطون » هي اسم فاعل من قسط ، ونقول : ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط في معنى « عدل » ، إنها تستعمل في « عدل » وفي « جار » .

وسبحانه يقول عن العادلين : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ } [ المائدة : 42 ]  
القاسط يذهب إلى النار ، وهي مأخوذة من « قَسَطَ يَقْسُطُ » . والمقسط يذهب إلى الجنة ،  
ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » نراها تبدأ بهمزة الإزالة ، أي كان هناك جور فأزلناه . أما القسط -  
بالكسر - فهو العدل من البداية هو « يقسط » . بكسر السين في المضارع ، أما يقسط -  
بضم السين في المضارع - تعني « يجور ويظلم » . ومن محاسن اللغة نجد اللفظ الواحد يُستعمل  
لأكثر من معنى؛ ليتعلم الإنسان لباقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات في ضوء السياق .  
وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هي الآن في عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا  
شكلوا الكتاب إلى المرسل إليه يغضب ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك في  
قدرتي على قراءة كتابك دون تشكيل؟ . فتشكيل الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه ، وفي عصرنا  
نجد من يلقي خطاباً يطلب تشكيل الخطاب حتى ينطق النطق السليم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ } وجاء الحكم في قوله الحق : {  
وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } [ النساء : 2 ] وسبحانه يتكلم في المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى  
مرتبة اعتبار حسن التصرف في أمور اليتامى من المسؤولية الإيمانية؛ فقد تكون اليتيمة لا مال لها  
وليست جميلة حتى يُطمع فيها أو في مالها ، وفي هذه الحالة يجب على الولي أن يرعاها ويرعى  
حق الله فيها .

وقوله الحق : { وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ } هو أمر بأن يقوم المؤمن على أمر اليتامى بالعدل؛  
لأن اليتيمة قد تكون مع الولي ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شيء من الوسامة ، فيسرع إليها  
الولي بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وبينه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا  
تزيد . ويقول سبحانه :

{ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا } ليدلنا على أن أمر الفعل والقيام به ليس مناط  
الجزاء ، ولكن أمر النية في الفعل هو مناط الجزاء ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن  
قل : فعلت بنية كذا .

إن الذي يمسخ على رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم في الثواب ، ومن يكفل اليتيم فهو مع  
النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة . والذي يقدر ذلك هو الله - سبحانه - العليم بالخفايا  
حسب نية الشخص الذي يقوم بهذا العمل؛ فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان  
بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم؛ لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو في النية الدافعة والباعثة  
على العمل . ولا يكفي أن يقول الإنسان : إن نيتي طيبة ، ولا يعمل؛ فالحديث الشريف يقول :  
« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى  
الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »

أي لا بد من ارتباط واقتزان النية بالعمل؛ لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يعدي الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النية للخير وحدها لا يكفي ، وإن افتقد الإنسان النية وأدى العمل فغيره يأخذ خيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نية طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم »؛ لأنه سبحانه عليم لا بعد أن نصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا ينتظر سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم . بل إنه - جل شأنه - يعلم كل شيء علماً أزلياً؛ لذلك قال : { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا } ؛ لأن كل أمر برز في الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أولاً قبل أن يوجد الوجود .

وفي المجال البشري نرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لي قصراً صغيراً على مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسي على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقاً فطنا غايةً في الدقة فيقول للمهندس : إنني أريد أن تصنع لي نموذجاً صغيراً قبل البناء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسي مصغر ، وأن تبني الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيتها .

هكذا العالم قبل أن يوجد ، كان معلوماً علماً تفصيلياً بكل دقائقه وأبعاده عند خالقه ، والنماذج المصغرة التي يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالنجار الذي يقصر في صنع حجرة نوم من خشب الورد لندرته ، فيستعيب بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل في علم وقدره المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة؛ لأنه - سبحانه - هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا } . وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول : { وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا . . . } {

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128)

وساعة نرى « إن » وبعدها اسم مرفوع كما في قوله : { وَإِنِ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

{ [ التوبة : 6 ]

فلنعرف أن « إن » هذه داخلة على فعل ، أي أن ترتيبها الأساسي هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره . وهنا في هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت امرأة من بعلها نشوراً ، وما الخوف؟ . هو توقع أمر محزن أو مسيء؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السيء . وهكذا نجد أنّ الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون

متعباً . وقوله الحق : { وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا } أي أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفظة لكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلاحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل ، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة : { واللاتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ } [ النساء : 34 ]

ما النشوز؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول : « هذه نعمة نشاز » أي أنها نعمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والمفروض في الأرض أن تكون مبسوطة ، فإن وجدنا فيها تنوعاً فهذا اسمه نشوز . والأصل في علاقة الرجل بزوجه ، أن الرجل قد أخذ المرأة سكناً له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه ، واشترط الفقهاء في الزواج التكافؤ أي أن يكون الزوجان متقاربين؛ ولذلك قال الحق : { الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ } [ النور : 26 ]

حتى الكفاءة تكون في الطيبة أو الخبيث ، فلا يأتي واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه ، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويواجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره .

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان في الطباع والسلوك ، وفي هذا توازن ، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة ، فالخبيثة لا تخجل منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعْلِها نشوزاً أي ارتفاعاً عن المستوى المفترض في المعاملة ، في السكن والمودة والرحمة التي ينبغي أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهي قد أفضت إليه وأفضى إليها ، فإن خافت أن يستعلي عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشوز . وبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تنتبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز في الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر .

وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى .

{ وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا } والإعراض يعني أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التي بين اثنين - كما قلنا - وقال الله عنهما : { وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى

بَعْضٍ { [ النساء : 21 ]

وقال في ذلك أيضا : { هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ } [ البقرة : 187 ]

أي أن يغطي الرجل المرأة وتغطي المرأة الرجل فهي ستر له وهو ستر لها وحماية . ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهي تداري أي جزء ظاهر من جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفي شيئا .

ويعرف كل زوج متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إفضاءً متبادلاً ، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أي نعت أو وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها . ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله ، واطلع على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهي هذا الخلاف قبل أن يقع؛ لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال في الرجل بقية من فتوة . وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالتة أو يرغب في الزواج بأخرى لأي سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قسَمها ، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزواج فلتسمح له بذلك ، أو تتنازل له عن شيء من المهر ، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته ، وهي مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

{ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا } والصلح هنا مهمة الاثنین معاً؛ لأن كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذي يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويهدأ ويعود ، فتقول له الزوجة كلمة تنهي الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هنا : { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا } .

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر الاثنان قول

الحق : { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [ البقرة : 216 ]

وكذلك قول الحق سبحانه :

{ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [ النساء : 19 ]

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخيرات؛ لأن كل خصال الخير التي تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة . بل قد توجد في المرأة التي ليست على حظ من الحسن؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التي ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون أمينة ومطبعة ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل زوجها؛ لأنها تريد أن تستبقي لنفسها رصيد

استبقاء .

ولذلك نجد اللاتي ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة في حمل أعباء تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسيّ ، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه؛ لأن الجمال الحسيّ قد يأخذ بعقل الرجال ، لكن عمره قصير . وهناك زوايا من الجمال لا نهاية إلا بنهاية العمر .

وقد حدثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط عليه ، وهو رجل طيب فقال لها : آه لو رأيتني وأنا في دروس العلم والناس يستشرفون إلى سماعي . لقد ظن أنها عندما تراه في مجلس العلم سترتدع ، وتكون حنونة عليه .

وذهبت لحضور درس العلم ، ورآها ، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له في قلبها ، وعاد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيتني اليوم . فقالت : رأيتك ويا حسرة ما رأيت ، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته ، وكان المریدون يرون إشراقات الله في تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المریدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التي كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا؟ فقال : ماتت التي كان يكرمني الله من أجلها .

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذي يصبر عليها يؤتبه الله خيرها؛ ولذلك قالوا : « إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت : الحمد لله فقال لها : على أي شيء تحمدين الله؟ قالت : على أي وأنت في الجنة . قال : لم؟ . قالت : لأنك رزقت بي فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة .

ولا يظن واحد أنه سيجد امرأة هي مجمع الجمال والحسن في كل شيء ، فإن كانت متدنية المستوى في جانب فهي متميزة في جانب آخر ، فلا تضيع الامتياز الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما . وزوايا الحياة كثيرة . وقلنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابناً لله ، بل كلنا بالنسبة لله عبيد . ومادنا جميعاً بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز في جانب ، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر - هذا النقص في زاوية ما ، والامتياز في زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم .

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه في المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها في الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التي ليست كذلك ، والذي يرضى هو من ينظر إلى المحاسن . والذي يغضب هو من ينظر إلى المقايح . والعدل في الغضب والرضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا :

– لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته؛ لذلك قال سبحانه : { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا } .

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد ، والذي يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس ، والتي تتسرب إلى موضوعات أخرى؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : { أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ } وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : { وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } . يوضح لنا سبحانه : أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه ، إياكم أن يستولي الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض . وجاء الحق في آية وقال : { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } [ النساء : 21 ]

وهنا يقول : { وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } وهناك فرق بين الحقوق التي قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذي يتطوع به . ونعرف ما فعله قاضٍ فاضل عندما قال لخصمين : أأحكم بينكما بالعدل أو بما هو خير من العدل؟ فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل؟ فقال القاضي : نعم إنه الفضل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفضل ان يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه .

ويذيل الحق الآية : { وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحققها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً؛ لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع ، والمغبون هي المرأة؛ لأنها مقيدة بزواج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : سأ تزوج بثانية ، ورضيت هي بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إليّ فأقرها . إذن فالغمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية . والمرأة معذورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى - وهو الله - الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها؛ لذلك فالنساء معذورات في أن يغضبن من هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها . فهي تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عيني بدلاً من أن يدس نفسه في أعراض الناس » . إذن فالذي يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لا بد أن يأخذوه بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق في البيوتة ، ليلة لزوجته وليلة لأخرى مثلاً ، وكان - رضي الله عنه - لا يتوضأ عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في الطاعون ، أمر بدفن الاثنين في قبر واحد .

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زَمناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل ابتساماً ، ويعدل مؤانسة ومواساة ، والرجل في كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب ، وهو أمر مكتوم؛ لذلك قال الحق : { وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا . . . } .

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصَلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)

أي أن العدل الحبي مستحيل . وقال النبي عليه الصلاة والسلام : ( اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ) - يعني القلب - .

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسية والنزوع النفسي . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . . إلا إذا أراد الحب العقلي ، أما الحب العاطفي فلا . والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا الدواء من الخارج؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله .

إذن { وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ } ، ما هو كل الميل؟ ويوضحه - سبحانه - بقوله : { فَتَدْرُوهَا كَالْمَلْعَلِقَةِ } وهي المرأة التي لا هي أيم أي لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسؤوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك؛ لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكني أريد العدالة في الموضوعات الأخرى؛ كأن تسوي في البيوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أزواجك في المؤانسة . أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به .

وسبحانه حين يشرع لخلقه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وخيارات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه ، ولكنه - جل وعلا - يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة ، فحين يمنح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبعات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب . لكنه يريد منا أن نعطي مطالب الحب ، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب في الكون ليعر يد في أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شر . وعندما ننظر - مثلاً - إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف في أن يبتكر شيئاً أو يخترعه ويكتشفه حتى يربحنا نحن البشر ، ولما فكر الإنسان في أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقل .

إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلي غريزة حب الاستطلاع فينبغي أن نجعلها في مجالها المشروع فلا نجعلها تجسساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله غريزة المال في الإنسان؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنساني . إنه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يلبغ في أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز في مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاً المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج . إذن فالميل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليقدم في عمارة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه في هذا الميل ، وحين تعددون الزوجات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه في مجاله القلبي فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالي .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قلبك لتعطي من تحب خير غيره ظلماً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض . ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حينما مرّ عليه قاتل أخيه ، ولفظ نظره جليسا له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر - رضي الله عنه - : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر - رضي الله عنه . وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر ، قال له سيدنا عمر : إذا أقبلت عليّ إلو وجهك عني ، لأن قلبي لا يرتاح لك . فسأل الرجل : أو عدم حبك لي ينعني حقاً من حقوقي؟ . قال عمر : لا .

قال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء . هذا عمر وهو الخليفة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم ، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر - رضي الله عنه - قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدي ميل القلب إلى القالب ، وليكن ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك .

ولكن المنهج يضع لك القواعد التي يسير عليها سلوك قالك . وعليك أن تعدل في قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضا من الذين يجبون أن يظهروا بين الناس كفاهين للقرآن أو دعاة تجديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ونقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الراض له مدعيا أنه يفهم النص القرآني ، إننا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هي ليست من التعدد في ذاته ، ولكنها تأتي من أن المسلم يأخذ بإباحة الله للتعدد . ولا يأخذ حكم الله في العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول الواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال : { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً } [ النساء : 3 ]

ثم جاء في آية أخرى وقال : { وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ } . ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله : ( ولو حرصتم ) إنما فرع على عدم الاستطاعة في العدل فقال : { فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ } إنه - سبحانه - فرع على عدم الاستطاعة في العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذي يعلم من خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرع على « ولن تستطيعوا » لجاز هؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون؛ لذلك نقول لهم : انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

{ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَلْعَقَةِ } . وفي هذا القول أمر بالآي يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسارها في الحياة ، فلا هي بغير زوج فتتزوج ، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها في البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } . وقوله : « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقضي عليها . وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله . وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى

الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوي ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويجد الحق غفوراً لما سبق ورحيماً به .

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شيء من قسمها ترضية له تكن التفرقة - هنا - أمراً واجباً . فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا .

إن الذي يقول : لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجاً على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه؟ إن التفريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا في واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام في هذا المجال . فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والتحل يلجأون إلى الطلاق؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامي بأنها غير صالحة؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن ينفذ قضية إسلامية . فهو القائل : { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا . . . } .

**وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)**

وسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وخبيلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يغترب عنها في عمله . ولا تملأ الهواجس صدره؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال .

{ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا } فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان . فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس . وصيدلية منهنج الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون في استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً وهما كارهان؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ . . . }

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131)

وسبحانه هو الذي يُرضي الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضي الزوجة إذا افترقت عن زوجها؛ لأنه - جل وعلا - خلق الدنيا التي لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هي خير ممن فارق ، ويرزق المرأة رجلاً هو خير ممن فارقت ، فلا شيء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيراً ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الإثنان إلى معامَل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هي السبب في عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب في عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة؛ لأن المسألة كلها مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله بل هو المسبب دائماً فهو القائل : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِمَّا نثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ \* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [ الشورى : 49-50 ]

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف؟ . يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة . وعندما يهب الله المؤمن الإناث يكون سعيداً . وكذلك عندما يهبه الذكور ، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة . وإن وهب الحق لأسرة ذرية من الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن ، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها العيون عادة . والحالة التي تقر به العيون عادة مؤخرة .

إن الحالة التي ترهد النفس فيها فالحق يقر بها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } ، وبعد ذلك : { يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِمَّا نثًا } ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم يأتي بالحالة التي يكون العطاء فيها في القصة : { أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا } .

وأخيراً يأتي بالقدر الرابع الذي يجريه على بعض خلقه وهو : { وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا } .

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه - سبحانه - الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً؟ أعتقد أنك تأخذ القدر الذي تهواه ، وترد القدر الذي ليس على هواك؟ إن المواقف الأربعة هي قَدَر من الله .

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضي بها .  
أنه سبحانه يخلق ما يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً .

وأقسم لكم لو أن إنساناً - أو زوجين - أخذوا قدر الله في العقم كما أخذه في غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربّاهم غيرهم ، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق ، هو أنهم في حياتهم ساخطون على قدر الله - والعياذ بالله - فيجعل الله حياتهم سخطاً . فهو القائل في حديثه القدسي :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله تعالى :  
« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إليّ بشئ تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً ، تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة »

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق في حياتهما معاً . فهو سبحانه سيعطي عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة . وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما في السموات وكل ما في الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : مَنْ يقضي مصالحك كلها؟ .

إنه الحق سبحانه الذي سخر أشياء ليست في طوق قدرتك ، أرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة؟ . أرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقياً؟

أرغمت الريح أن تهب؟ أضربت الأرض لتقول لها : غدّي ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له واحتاج إليها لينتج النبات؟ . كل هذا ليس في طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة في أمرك ، لكنك كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه مني سأنفذه قدر استطاعتي . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير .

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } ، وهذا تذكير بأن كل شيء مملوك لله وفي طاعته ، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه يخدمك . ولتسأل نفسك : أتعيش في ضوء منهج

الله أم لا؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أي خلل في القوانين الكلية ،  
وسبحانه القائل : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ \* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ \* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ  
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [ الرحمن : 7-9 ]

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى  
الكون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتي من  
اختيارات الإنسان لغير منهج الله .

{ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ { يوضح سبحانه : لقد وصينا  
الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر  
والنواهي؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذي  
تعيشون فيه ، ويصبح كل شيء يسير منتظماً في حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين  
فقط لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول : { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ  
{ .

ولم يقل : شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا »  
. وكلمة « وصية » تشعر المتلقي لها بحب الموصي للموصى . { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ { وتقوى الله تعني أن نعمل أوامر الله وأن نتجنب نواهيها؛ لنحكم  
حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمتنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا  
مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق : { وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا  
حَمِيداً { ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فالله غني عنه ، فلا تعتقدوا أيها  
المخاطبون بمنهج الله أنني أستميلكم إلى الإيمان لأني في حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكني أريد منكم  
فقط أن تكونوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً سعيداً ، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله ، وستظل حتى  
- ولو كنت متمرداً - في قبضة مرادات ربك . فلن تتحكم في مولد أو في ممات أو في مقدورات  
. فالكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللفت إلى انتظام الكون يقول الحق : { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى

السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ \* وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ  
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ \* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا  
فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ \* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ \* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً  
مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [ ق : 6-11 ]

وفي لحظة من اللحظات يأمر الحق كوناً من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت  
، والتي قال عنها سبحانه : { وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ } [ النحل : 15 ]

وسبحانه هو الذي يملكها فيجعلها تضطرب ويُحدث في موقع منها زلزالاً ، فتندثر المباني التي عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً ألياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها مازال في قيومية المسبب ، وولتفت مرة إلى بعض من الزوابع من التراب وهي تغلق المجال الجوي كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله ، وهذا لفت من الله لنا يوضح : لقد صنعت هذه القوانين بقدرتي ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتي .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغذي الأرض ، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شبراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجر ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلي ، ويأتي الحق ليجري على هذه المنطقة قدر الجفاف فيمنع المطر وتصير الأرض الخصبية إلى جدد ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلفتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مراديات مُريد .

وفي موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل ، وفجأة تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقي الحمم وتقذف بالثار وتجري الناس لتتقذ نفسها ، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى في أن يختار مرادياته بما يتفق مع مراديات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشري القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

{ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا } و صدر الآية بالمقولة نفسها : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } وذلك لتثبيت وتأكيده ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . وتجيء المقولة مرة ثانية في الآية نفسها ليثبت الحق أنه غني ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة في الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بما في صدر الآية لتثبيت المعنى ، وجاءت في ذيل الآية لتثبيت معنى آخر ، فسبحانه هو الغني عن العباد : { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } [ الكهف : 29 ] ومجيء { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } لإثبات حيثية أن يطيع العبد خالقه . ومجيء { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } في ذيل الآية لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتي في الآية التالية حيث يقول سبحانه : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ . . . }

**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132)**

ومجيء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تتمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو يتمرد الهواء ولا يهب . أو تضن الأرض عليك عناصرها؛ لأن كل هذه الأمور مسخرة بأمر الله الذي خلقك وقد خلقها وقدّر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا : أنا الوكيل الذي أكلفكم وأكفيكم وأغنيكم عن كل وكيل .  
والوكيل هو الذي يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه  
وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحسّ بالسعادة على الرغم من أن هذا الوكيل الذي من البشر قد  
يُخطئ أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشي ، لكن الحق بكامل قدرته يطمئن العبد أنه  
الوكيل القادر ، فلتطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن  
تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . ومادام الله هو المليك فهو  
الحفيظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة .

وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم  
- فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أتى راحلته فأطلق عقابها ثم ركبها ثم نادى اللهم  
ارحمي ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «  
أتقولون هذا أضل أم بغيره ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا : بلى ، قال : « لقد حظرت رحمة واسعة  
. إن الله - عز وجل - خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها  
وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بغيره » .

هو إذن كفى بالله وكياً وهو نعم الوكيل ، وهو يطمئن عباده ويبين أنه - سبحانه - هو القيوم ،  
وتعني المبالغة في القيام ، إذن كل شيء في الكون يحتاج إلى قائم؛ لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق  
لكل إنسان : أن اجتهد في العمل وبعد أن تتعب ثم ملء جفونك؛ لأني أنا الحق لا تأخذني سنة  
ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا؟ .

{ وكفى بالله وكياً } .

ثم يأتي الحق بحيثية أخرى تؤكد لنا أنه غني عن العالمين ، فلا يكفي أن يقول : إنه غني وإنه خلق  
كل ما في السموات وما في الأرض ، وإن كفرت أيها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت  
فالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أيها البشر أن تعتقدوا أنكم خُلِقْتُمْ وشردتم وأصبحتم لا  
سلطان لله عليكم . لا . فالله سبحانه يقول : { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ . . . }

**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكِ قَدِيرًا (133)**

وبعض الفاقدين للبصيرة من الفلاسفة قالوا : صحيح أن الله قد خلقنا ولكننا خرجنا من دائرة  
نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأتى بآخرين ، وما ذلك على الله بعزيز ،  
وهو القائل : { وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكِ قَدِيرًا } .

حين نقرأ « كان » بجانب كلمة « الله » فهي لا تحمل معنى الزمن؛ فالله قدير حتى قبل أن يوجد  
مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان؛ لأن

الله سبحانه وتعالى ليس أغيار؛ لذلك يظل قديراً وموجوداً في كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .  
ومن بعد ذلك يقول الحق : { إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ . . . } .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلم الغفلة؟ ولم لا تأخذ  
الزيادة؟ ، ولماذا نذهب إلى صفقة الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا من صحة ومال وكل  
شيء ، وإن اجتهد الإنسان في الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه . فالحق يقول : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ  
حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ }  
[ الشورى : 20 ]

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » في مقابلة للدنيا؛ وأن من يأخذ الدنيا لن يأخذ الآخرة أو العكس  
، بل يريد - سبحانه للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيا من تريد ثواب الدنيا لا تحرم  
نفسك بالحمق من ثواب الآخرة . وكلمة « ثواب » فيها ملحظ؛ فهناك أشياء تفعل لك وإن لم  
تطلب منها أن تفعل ، وتنتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى  
تفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .  
مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات الناس في الدنيا تقدماً وتأخراً  
وحضارة وبداعة وقوة وضعفاً إنما تأتي من القسم الذي ينفعل للإنسان ، لا من القسم الذي  
يُفعل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر في الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا في المادة  
والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة في المعامل ، فإن أردت أن تكون متقدماً فعليك أن  
تتعامل مع العناصر التي تنفعل لك ، والأمم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما ينفعل لها ، وهم  
والمتأخرون شركاء فقط فيما يُفعل لهم ويسخر لصالحهم .  
وإن أردنا الارتقاء أكثر في التحضر . . فعلياً أن نذهب إلى ما يُفعل ويسخر لنا ونتعامل نعه  
حتى ينفعل لنا . . كيف؟ .

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، ونستطيع أن نتعامل مع الشمس تعاملاً آخر يجعلها تنفعل لنا ،  
مثلما جئنا بعدسة اسمها « العدسة الالامة » التي تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة في بؤرة  
العدسة؛ فتحدث حرارة تشعل النار ، أي أننا جعلنا ما يُفعل لنا يتحول إلى منفعل لنا أيضاً .  
ويسمون ذلك الطموح الانبعاثي . والمطر ينفعل للإنسان عندما ينزل من السماء في وديان ،  
ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى منفعل عندما يضع توربينات ضخمة في مسارات نزوله فينتج  
الكهرباء .

إذن فحضارات الأمم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما ينفعل لها ، والمرحلة  
الثانية : ترتقي فتستخدم ما ينفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما ينفعل لها كمنفعل لها؛

مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاءً مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء في الحضارة الآن هو أشعة الليزر التي تصنع شبه المعجزات في دنيا الطب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدي معنى تضخيم الطاقة بواسطة الانبعاث الاستحثائي ، فكلمة « ليزر » - إذن - مثلها كلمة « ليمتد » فاللام من كلمة .

والياء من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من كلمة ، وذلك لتدل على مسمى . وترجمة مسمى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثائي . ففيه انبعاث تلقائي هو مصدر الطاقة الذي يُفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث الاستحثائي فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتفعل له شيئاً آخر . والانبعاث التلقائي متمثل في الشمس فتعطي ضوءاً وحرارة . وعندما جلس العلماء في المعامل وصمموا العدسة التي تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوا ليصنعوا منها طاقة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التي هي تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثائي ، ولأن العنوان طويل فقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكوّنوا كلمة « ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأتي عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذي ينفعل للإنسان ، واستحثاث واستخدام ما يُفعل له بطريقته التلقائية لينفعل معه كأشعة الشمس مثلاً . وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن نستوضح آفاق قول الحق : { مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا } . وكلمة « ثواب » إذن توحى بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ ثواب الدنيا بدون عمل . ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ، سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق في الآخرة . ولذلك يقال : « الدنيا متاع » . ويزيد الحق على ذلك : { فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } . ومن الحمق أن يوجد طريق يعطي الإنسان جزاءين ثم يقصر همته على جزاء واحد .

وهنا ملحظ آخر؛ فحينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا بد من العمل لنأخذ الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للآخرة . الدنيا والآخرة ، إذن فالذي يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً؛ لأن الآخرة هي دار جزاء ، والدنيا هي مطية وطريق وسبيل . فكأن كل عمل يفعله المسلم ويجعل الله في باله . . فإله يعطيه ثواباً في الدنيا ، ويعطيه ثواباً في الآخرة .

ويذيل الحق الآية : { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } - إذن - فثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا

بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول - مثلاً - حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو الفعل . فالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى الأقوال وإلى الأفعال . ولتوضيح هذا الأمر نقرأ قول الحق : { كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُنَّكَ يَا أَبْنَاءَ الْإِنسَانِ } [ الفجر : 17-19 ]  
وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم ، ولما سمع الفقراء هذا القول ، كأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكان في قوله تعالى : { وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ } ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أي حضوا غيركم على العطاء .

أي أن الذي لا يملك يمكنه أن يكلم الغني ليعطي المسكين ، والحض هو كلام . والكلام من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستنفر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول : { لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْحَسَنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [ التوبة : 91 ]

هو سبحانه أعفى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون في القتال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن في الآية نفسها ما يُحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فغير القادر يمكنه أن يتكلم بفعل الخير ويذكر به الآخرين وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق : { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } فسبحانه يسمع قول من لا يستطيع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن فتواب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب؟ عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى ، ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب في حديث قدسي :

« الإخلاص سرٌّ من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي »

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل في اختصاص رقيب وعتيد وهما الملكان المختصان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتغلغل في الأشياء ، وخبير بكل شيء وقدير على كل شيء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .  
فالعمل يكون بالجوارح ، ومن الجوارح اللسان ، وحتى نضبط هذه المسألة لنفرق ما بين الفعل والعمل . نقرأ ونفهم هذه الآية : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } [ الصف : 2 ]

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكل عمل . ويأتي نوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سمياً بصيراً ، فالمعنى سمع للقول ، وبصير بالفعل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

وساعة ينادي الحق عباده المؤمنين قائلاً : يا أيها الذين آمنوا ، فكأنه يقدم حيثية الحكم الذي يأتي بعده ، ونحن نرى القضاء البشري قبل أن ينطق بمنطوق الحكم ، يورد حيثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكمنا بكذا » . إذن : فالحيثيات تتقدم الحكم . وحيثيات الحكم الذي يحكم به الله هي الإيمان به ، مثل قول الحق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } [ البقرة : 183 ]

حيثية الكتابة هنا وفي أي حكم آخر هي إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } فالمؤمن يدخل على الإيمان بقمة القسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطي العادل كل ذي حق حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد .

إن قمة القسط - إذن - هي الإيمان . ومادام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القسط وهو الإيمان ، فليجعل القسط سائداً في كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهي ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال { كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } أي أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فنحن نقول : « فلان قائم » و « فلان قَوَّام » . ونعرف أن كلمة « قَوَّام » هي صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الألهي لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله خصلة لازمة فيك ، ولتفعل القسط في كل أمور حياتك . والقسط كما علمنا من قبل في ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الأقساط هي العدل .

وقد احدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك : إن المسألة بسيرة .

فقسط يقسط قسوطاً أي جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال : « أقسط

فلان » أي أذهب الجور . إذن : « القسط - بكسر القاف - هو العدل الابتدائي ، لكن

الإقساط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاءوا لقاضٍ فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ في التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذي من الدرجة الثانية اسمه إقساط . وهكذا ينتهي جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقسط عدل من أول درجة ، والإقساط يعني أنه كان هناك جور فرفع ، لأنه مسبوق بهمزة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أي أن الكتاب كان فيه عجمة ، أي كان بالكتاب شيء مستتر وخفي أي يعطي معاني الألفاظ فيزيل خفاءها .

وكذلك معنى « أقسط » أي أزال الجور .

والحق يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } فأنت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة في القسط؛ ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له فقط ، بل لا بد أن تكون الشهادة لله . لماذا؟ .

هب أن رجلاً كافراً بالله - والعياذ بالله - وقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل بذلك في حيثية الإيمان ، فالذي يدخل في حيثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفي باله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا لهوى ولا لغرض ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت الأرض ، والحق يقول : { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } [ المؤمنون : 71 ]

لذلك لا بد أن يكون المؤمن قواماً بالقسط وفي باله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط وحده لا يكفي ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو كان ملحداً . ونقول : هذا العادل من أي دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوام بالقسط يجب أن يفعل بقصد امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

{ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ } والشاهد في العادة هو من يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ، والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما فعل ، والإقرار سيد الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليل الذي يرتب عليه الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة تجر وبالاً عليه ، وهذه المعاني من معطيات الإشاعات القرآنية؛ فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه يؤديها لمصلحة غيره ولا يخاف فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بوبال في نفسه أو ماله ، ومن الناس من

أصابه وبال في نفسه أو أهله من السلطان مجرد كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان بهذا الذنب . والحق يوضح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العيال أو سيأخذون كل شيء ، إنني أنا الموجود المتكفل بعبادي .  
ويطلب الحق من المؤمنين : { كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ } . وحين يشهد الإنسان على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .  
ثم يدخل بنا الحق إلى أن استحثاثات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجح هو هوى النفس ، ومنشأ الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيخاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من خير ما .

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يضع أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط؛ لذلك قال : { إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا } .

وقد يقول قائل : إن الهوى قد ينحاز إلى الغني طمعاً في ثرائه؛ فلماذا يذكر الله الفقير أيضاً؟  
ونقول : قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير فيحدّث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة »؛ لذلك يحذرنا الحق من الانحياز إلى الغني أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة بثناء الثري أو بفقر الفقير؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من خالقهم - جل شأنه - ولذلك جاء بالحيثية الملجمة { فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا } أي أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى بهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القيم على الوجود .

والذي يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربي يقول : « آفة الرأي الهوى » .  
وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل وتجنحوا بعيداً عنه .  
والتاريخ العربي يحتفظ لنا في ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخليفة وقال له : أعفني من القضاء! فقال الخليفة : فمن يكون للقضاء إذن وأنت العادل الذي شهد له كل الناس بذلك؟  
فقال القاضي : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس عني أنني أحب الرطب - أي البلح - وبينما أنا في بيتي وإذا بالخدام قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب ، ومن الطبيعي أن تكون النفس في لهفة عليه مادامت تحبه ، ويتابع القاضي حكايته للخليفة : فقلت للخدام من جاء به؟ فأجاب الخادم : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن من أرسل الرطب هو واحد من المتقاضين أمامي ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصل في قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل عليّ فعرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على

الرغم من أي رددت الطبق . وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء .  
ويتابع الحق سبحانه : { وَإِنْ تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } . أن تلوا في  
الشهادة واللي هو التحريف . . أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، فإن الله بما تعملون خبير ، أو أن  
يُعرض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه؛ لذلك يقال : إنه خائف من  
المشهود عليه؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له؛ لهذا فهو يعرض عن الشهادة ، وإن جاء  
للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوي لسانه بها؛ لذلك يقول الحق : { وَإِنْ تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ  
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

إذن فالذي يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب؛ لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف .  
فعلينا أن نعلم أن النيات عمل القلوب ، وبذلك صار العمل ينقسم الآن أماننا إلى ثلاثة أقسام  
: قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .  
ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ  
قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (136)

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق في صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمَنُوا ،  
وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا؟ ونقول : نرى في بعض الأحيان رجلاً يجري كلمة الإيمان على  
لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقول ، فتكون كلمة الإيمان هي حق صحيح ، ولكن  
بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً . وتعرضنا من قبل لقول الحق : { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا  
نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [ المنافقون :  
1 ]

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما في  
القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول : { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [ المنافقون :  
1 ]

لقد وافقت شهادتهم بألسنتهم ما علمه الله . لكن القول منهم يخالف ما في قلوبهم ، فشهد الحق  
إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم في شهادتهم؛ لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة؛  
لأن الشهادة الحقة هي أن يواطئ اللسان القلب . وبعض من الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك  
على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها؛ لذلك يتخبطون في الفهم  
. فهم لا يعرفون صفاء التلقي عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب  
المنافقين لم يكن في مقولة : إن محمداً رسول الله ، ولكن في شهادتهم بذلك ، وكذبهم الله في قوهم  
: « نشهد » فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء بمزيد من الإيمان ، ولنا في قول الحق المثل الواضح في حديثه للنبي؛ قال الحق : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [ الأحزاب : 1 ]  
الحق هنا يقول للمتقي الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله » ، أي يأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن فمعنى قول الحق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا } أن الحق يخاطبكم بلفظ الإيمان . ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وألا يترك مؤمن هذا الشرف . فإن رأى واحد منكم منادياً بوصف طلب منه الوصف بعده فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب؛ لذلك فلا بد أن تشملهم الآية : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } لأن الإنسان إن آمن بالله فقط ، فهذا يقتضي أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول؛ لذلك فالإيمان بالله يقتضي أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويدبره .

ولكن ما اسم هذا الإله؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .  
إن هذه أمور لا تعرف بالعقل ولكن لا بد من الإخبار بما ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من مجيء رسول للبلاغ .  
إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . ومادمت أيها المؤمن قد آمنت برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التي جاءت على لسان الرسول . وهذه الكتب تقول لك : إن هناك خلقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والمَلَكُ يأتي بالوحي وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن فالقمة الإيمانية هي أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسولهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله وبما أنزل عليه .

ويترك الحق سبحانه وتعالى لخلقه أن يكتشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم حَدِّثُوا بأن في الكون كائنات أبلغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم الملائكة . - إذن - فالدليل عندهم يحتمل ويدفعهم إلى الكشف والبحث .

والمثال على ذلك الميكروب الذي لم تعرفه البشرية إلا في القرن السابع عشر الميلادي ، وكان

الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وفصائله وأنواعه ، ومازالت الاكتشافات تسعى إلى معرفة الجديد فيه ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم في وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا : إذا حدثت أيها الإنسان من صادق على أن في الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعليك بالتصديق؛ فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناس أحدٌ بوجود الميكروب في أثناء ظلام العصور الوسطى لما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشفنا الأشياء التي تضاعف صورة الشيء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشيء لا يعني أنه غير موجود .

فإذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشيطان الذي يجري في الإنسان مجرى الدم ، فهنا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تهيأت أسباب الرؤية والعلم . فإذا كان الله قد خلق أجناساً من غير جنس مادة الإنسان فلنصدق الحق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ } {

### [ النساء : 136 ]

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو عَلَّمٌ عليه ، أما الكتاب الذي أنزل من قبل فلنعرف أن المراد به هو جنس الكتاب . . أي كل الكتب التي نزلت على الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقال على « ال » السابقة لكلمة الكتاب الثانية : « هي » « ال الجنسية . والجنس كما نعلم - تحته أفراد كثيرة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتي بالمراد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه جماعة ، مثال ذلك : { والعصر \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفِي

خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [ العصر : 1-3 ]

نجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « ال » ، واستثنى من الإنسان جماعة هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون : إن الاستثناء معيار العموم . . أي أن اللفظ الذي استثنينا وأخذنا وأخرجنا منه لفظ عام .

ويطالبا الحق بالإيمان بالكتاب أي القرآن؛ فإذا أطلقت كلمة « الكتاب » انصرفت إلى القرآن؛ لأن « ال » هنا ( للغلبة ) ، مثال ذلك : يقال : « هو الرجل » ، وهذا يعني أنه رجل متفرد بمزايا الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا الكتاب فهي تعني القرآن؛ لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف إلا إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذي لا نسخ ولا تبديل

له ، ف « ال » هنا للكمال أما الكتاب الذي أنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

{ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } أي إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر في الآية فهو كافر أيضا .

وكان بعض اليهود كعبدالله بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ، وأسد وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يامين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : « نحن نؤمن بك وبكتابتك وموسى والتوراة وعزير ، ونكفر بما سواه من الكتب والرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل » . فنزلت فأمنوا كلهم

. والخطاب والنداء يشمل أيضا المنافقين . أي يأيها الذين آمنوا في الظاهر نفاقا ، أخلصوا لله واجعلوا قلوبكم مطابقة لألسنتكم ، فالنداء - إذن - يشمل المؤمنين ليستديموا ويستمروا عليآيمانهم ، ويضن الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول وبكل كتاب ، هو أيضا للمنافقين ليخلصوا في إيمانهم حتى تطابق وتوافق قلوبهم ألسنتهم . إذن فمن يكفر بأي شيء ذكره الله في هذه الآية فقد كفر بالله .

{ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } و « ضل » أي سار على غير هدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يقال : ضل الطريق ، والذي ضلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا « هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق في متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضلال متحدون في نقطة البداية ، لكنهم فريقان يختلفان ، فأحدهما يسير في طريق الإيمان وهو منتبه دائما إلى غايته وهي رضا الله بتطبيق مطلوباته ، ويجدر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا . . . }

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137)

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم { وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [ آل عمران : 72 ]

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا في غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما قلوبهم فهي مع

الكفر؛ لذلك أرادوا أن يُلبَسوا في المنطق ويُدلَّسوا فيه . { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا  
ولكن قولوا أَسَلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [ الحجرات : 14 ]

ويفضحهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم  
تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله : { قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلَمْنَا وَلَمَّا  
يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } . وكانوا أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول  
وأوضح لهم : أنتم لو تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط . هنا عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم  
بلاغاً عن الله .

ولو قالوا : إن محمداً هو الذي عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ، بل زُيِّمَ تمادوا  
في الغيِّ وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله يحسم الأمر : ويبيِّن لهم أن الله هو الذي أبلغني  
، بدليل أنه أمر أن يقول لهم : { قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا } .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عنده بل هو مأمور  
بالبلاغ عن الله ربِّه . وفي عصرنا قال برناردشو : إن الذين يكذبون أن محمداً رسول من عند الله  
يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه الأشياء التي لم تكن معلومة في عصره؟ . .

إن الناس جميعاً مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله؛ لأنه قال عن أشياء لا يمكن أن  
يقولها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبيِّن أن  
هذا ليس من عندي ، لكنه من عند الله .

{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . وهذا  
كشف محرج ومنطقي لما في قلوبهم؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً في أن  
يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان في قلوبهم بالفعل لأن كلمة ( لَمَّا ) تفيد نفي الإيمان عنهم  
في الزمن الماضي ولكنها تفيد أيضاً توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا } أي ماتوا على الكفر ، أو آمنوا  
بموسى ، ثم كفروا بعباسي ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعباسي ، وازدادوا كُفْرًا بعدم الإيمان بمحمد  
، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : { لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا } لأنهم دخلوا في الإيمان  
مرة ثم خرجوا من الإيمان .

ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيشاهدوهم وقد آمنوا ، وسيشاهدوهم وهم  
يكفرون ، وسيعلمون ذلك بأنهم عندما تعمقوا في المسائل العقديّة كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوّنوا  
من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا  
بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [ آل عمران : 72 ]

هم إذن يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم أعلاهم الكفر وفي ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير من تردد بين الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا يكون مصيرهم ما جاء في قوله : { لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا } فهم قد دخلوا في الخيانة العظمى الإيمانية التي يحكمها قوله الحق : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [ النساء : 48 ]

ويقول الحق عنهم هنا : { لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا } . والهداية - كما نعلم - ترد بمعانٍ متعددة . . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فإن شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثاني هو المعونة ، أي يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [ فصلت : 17 ]

فسبحانه هنا قد دهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكأن الله قد دل على المنهج الذي يوصل الخير والبر لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يمهدهد بهداية المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداقاً لقوله : { إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } [ الكهف : 13 ]

ولا نريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان؛ لذلك أؤكدته دائماً : شرطي المرور الواقف في بداية الطريق الصحراوي . يسأله سائل : ذاهب إلى الاسكندرية عن الطريق؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطي بالدلالة ، ثم شكر الرجل الشرطي وحمد الله على حسن شرح الشرطي؛ ويحس ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحذر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتفادها . أي أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل الناس على الإيمان وعلى المنهج ، فالذي يؤمن به يساعده ويخفف عليه . الطاعة ، قال الحق سبحانه في شأن الصلاة : { وَإِنَّمَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [ البقرة : 45 ]

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية المعونة . ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متأصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . فمبدأ الإيمان لا يتغير في مواكب الرسالات من سيدنا آدم إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [

## [ النساء : 136 ]

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن بالقمة العليا ، وهي الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أي رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة صاحبة أو الولد لله ثم يزدادون كفرةً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله؛ لأن الإسلام جاء بالنهاية الخاتمة وليس للسماء من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال في أول الآية : { آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا } . وقال في آخر الآية : { ثُمَّ ازدادوا كُفْرًا } أي أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فالله لا يمنع الهداية عن من قدم يده ومدّها إليه ، بل يعاونه في هدايته ، أما من ينفذ يده من يد الله فلا يباليه على الإيمان فالله غني عنه ، ومادام الله غنياً عنه فسيظل في ضلاله؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية أخرى ولا هادي إلا هو . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى الجنة؛ لأنهم لم يقدموا الأسباب التي تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله في آية أخرى : { لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا \* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } [ النساء : 168-169 ]  
وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُدَلَّلًا بالنسبة لهم .  
وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ . . . } .

## بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138)

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتي من أصيل في الإيمان ، بل تأتي من متلون في الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر . وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } . ونحن نعلم أن المنافق هو الذي جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نفاق اليربوع ، وهي إحدى جحوره التي يستتر ويختفي فيها ، واليربوع حيوان صحراوي يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ } والبشارة هي الإخبار بشيء يسر سيأتي زمنه بعد . وهل المنافقون يبشرون؟ لا . إن البشارة تكون بخير؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يبشرون ، ولكن لله في أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال : أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم

- كمنافقين - مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهي من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائي أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقلة من وضعه كبخيل؛ ثم السخرية منه؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تفرغ وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سَام ورفيعٍ وعظيم تحقيراً له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحباً بك يا قزم . هذه هي المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحباً يا مارء . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك . . هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هي السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريد المتكلم ، فقول الحق : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ } معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . ومادمت قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فأنا أبشركم بأنكم ستعذبون . والذي يناقق ألا يريد من ذلك غاية؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هي العذاب ، فقال الحق : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا .

ويجعله ييأس من أن يأتي له بكوب ماء ، أما إذا أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتي بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال : « بَشِّر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً يسر ، فإذا قال الحق : { بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } فمعنى ذلك أن الغم يأتي مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالندارة .

وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - يقول الأب لابنه : استذكر يا بني حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر في اللعب ثم يقول الأب : يا بني لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يابه الابن لكلام الأب ، ثم يأتي الامتحان ويذهب الأب يوم اعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً؛ فيقول الأب لابنه : أهنتك لقد رسبت في الامتحان! فقله أهنتك تبسط نفس الابن؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } « بشر » لها علاقة بالمدلول الاشتقاقي؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه؛ فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسيء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت النذارة بالخبر الذي يحزن وتنقبض النفس له .

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } . والبشارة - كما قلنا - توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتي الخبر غير سار . وكما يقول الحق في آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم : { وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا } [ الكهف : 29 ] ساعة نسمع { وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ } نفهم أن برداً يأتي لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التي تأتي لهم هي : { كالمهل } [ الكهف : 29 ]

ويتساءل السامع أو القارئ : هل هذه إغاثة أو تعذيب؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب؛ فالماء الذي يعطى لهم كالمهل يصعد الألم في نفوسهم .

والعذاب - كما نعلم - يأخذ قوته من المعذب ، فإن كان المعذب ذا قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتبعها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذي يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذب يتجلد ، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقي العذاب فلا يقدر أن يكتفم الألم؛ لأن درجة تحمل أي إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجد أليماً أيضاً ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلماً للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ، ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهيناً .

ولأن المنافقين والكفار غارقون في المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول : { الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ . . . }

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا  
(139)

وأول مظهر من مظاهر النفاق أن يتخذ المنافق الكافر ولياً له؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصر والمعونة ، والمؤانسة؛ والمجالسة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل فعل من الأفعال البشرية

لا بد أن يحدث لغاية تُطلب منه ، ولا يتجرد الفعل عن الغاية إلا في المجنون الذي يفعل الأفعال بدون أي غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، ولهذا يرحوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأي غاية ولأي هدف؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يبتغون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . ويلفتهم - جل شأنه - إلى جهلهم؛ لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد الغاية .

فماداموا يبتغون العزة فليعرفوا أولاً : ما العزة؟ . العزة مأخوذة من معنى مادي وهو الصلابة والشدة . فالأرض العزاز أي الصلبة التي لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شيء شديد فيه عزة . والمراد بها هنا : العلبة والنصر ، وكل هذه المعاني تتضمنها العزة . فإذا قيل : الله عزيز . أي أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على محاله أو مكروه أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل : فلان عزيز أي لا يُغلب ، وإذا قيل : هذا الشيء عزيز أي نادر ، ومادام الشيء نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذت حظها من ندرتها وقلتها .

وما دمتم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها ممن عنده؟ . أتطلبونها من نظائركم؟ . وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندهم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدهم العزة لأنهم طلبوها من مساوئهم من الأغيار ، فالمنافقون بشر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أغيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعزاء اليوم وأذلاء غداً؛ لأن أسباب العزة هي غنى أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأغيار . فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأغيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التي تغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم فلتنذهبوا إلى مصدر العزة الذي لا تناله الأغيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق : إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم في طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار ، والأغيار تتبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أغنياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر ان العني يفتقر ، ورأيتم قوياً قد ضعف ، وطلب العزة من الأغيار يعني أنكم غير أعزاء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها .

فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته وهو الحق سبحانه وتعالى : { فَإِنَّ العزة لله جَمِيعاً } .

وفي هذا القول تصويب لطلب العزة . وليطلب كل إنسان العزة إيماناً بالله؛ فسبحانه الذي يهب العزة ولا تتغير عزته : { فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة غني ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهي - جميعاً - في الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون في عبوديتهم لله عبيد لإله واحد؛ وقد أعنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأي مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوي ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغني ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذن ساعة يقول الحق : { فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ } [ البقرة

[ 245 :

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة . العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أي أن يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهي قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها - سبحانه - منه . فما بالناس بالقوة اللانهائية لله ، وكل قوة في الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هي لله . ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ . . . }

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً

(140)

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم ، وبذلك يحمي الله وحده أهل الإيمان ، ويصونهم من أي تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فمادمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين؛ لأنك إن هادنته كان أعز في نفسك من الإيمان ، ومادمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحم هذا الإيمان من أن يتهجم عليه أحد ، فإن اجتراً أحد على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل . .

فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعةً يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون في الإيمان . فهذا يعني أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان في قلوب المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أي حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هي إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت في المدينة؛ فالحق يقول : { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا } ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل في مكة؛ ويقول فيها الحق : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [ الأنعام : 68 ]

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً في البداية ، وهو الحكم الذي نزل مع الكافرين في مكة؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيماني قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون في الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

وسبحانه هنا في سورة النساء يذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو في الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً في المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يطيقه الجنس البشري؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد ان يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله .

وقد نزل في القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها فليغادروا المكان ، ونلاحظ أن الذي نزل في الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } [ الأنعام : 68 ]

ويأتي السماع في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا } والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو سماعاً بأنهم يخوضون في دين الله؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يُرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : { فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } يوحي أنهم إذا ما خاضوا في حديث غير الخوض في آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك في صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامي آتذ أن يتميز بوحدته ، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان في ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطي معنى واضحاً مجسماً؛ لأن الأصل في الخوض أن تدخل في مائع . . أي سائل ، مثل الخوض في المياه أو الطين ، والقصد في الدخول في سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة تخوض في مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أن يمسي الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع في المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان في طريق رملي فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سدّ الطريق إلا بفعل فاعل ، وأخذوا من هذا المعنى وصف الأمر الباطل بأنه خوض؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك ، والجدال في الباطل لا ينتهي إلى نتيجة .

إذن « الخوض » هو الدخول في باطل ، أو الدخول إلى ما لا ينتهي الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا في مسألة الصفات العلية؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن ينتهي إلى غاية . ولذلك يقول الحق في موقع آخر بالقرآن الكريم : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِمْتُمْ مَا لَمْ تعلمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [ الأنعام : 91 ]

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذي أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذي أنزل من قبل التوراة فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم يخوضون في باطلهم .

وفي موقع آخر يتكلم الحق من الخوض : { يَخَذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَخَذِرُونَ \* وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَباللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [ التوبة : 64-65 ]

إذن الخوض هو الدخول في مائع ، ومادمت قد دخلت في مائع فلن تجد فيه طريقاً محمداً بل يختلط المدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذي ليس فيه غاية .

{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ

حتى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ { .

وتأتي الكلمة التي ترهب المؤمن وترعبه : { إِنَّكُمْ إِذَا مِتُّلَهُمْ } أي إنكم إذا قعدتم معهم وهو يخوضون في آيات الله تكفرون مثلهم؛ لأنكم تسمعون الخوض في الدين بالباطل ، ومن يرض بالکفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نوابيهم إلا إذا والونا؛ لأن الجلوس معهم في أثناء الخوض في الدين يجربهم على مناهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أي ساحر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عن من ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل؛ وفي ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا في الدين بالباطل .

وقوله الحق : { فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ } هو إيذان بالمقاطعة؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن في منزل ، ويذهب إلى البقال ليشتري منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أي إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غير على دينه الذي آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يروونه في مجتمعهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموغلين في الباطل لو رأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شيء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً } ولا تستبطنوا هذه الحياة؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هي عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهي فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقي الله مسلماً في الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والکافرين في جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق : { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ . . . }

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)

وقوله الحق : { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ } وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . اي أن واحداً يتحفظ ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى

من قوله الحق : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ } [ التوبة : 52 ]

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن

جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم في باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجيء .  
{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ } فَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ بِنَصْرِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي مَعْرَكَةٍ وَأَخَذُوا مَغَانِمَ قَالَ الْمُنَافِقُونَ : { أَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ } ، فلا بد لنا من سهم في هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : { وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَمْ نَسْتَحْذُو عَلَيْكُمْ وَمَنَعْنَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقوهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب ويقول الحق على ألسنتهم : { قَالُوا أَمْ نَسْتَحْذُو عَلَيْكُمْ وَمَنَعْنَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } واستحوذ على الشيء أي حازه وجعله في حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل : { استحوذ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ } [ المجادلة : 19 ]

أي جعلهم الشيطان في حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : { أَمْ نَسْتَحْذُو عَلَيْكُمْ } يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكري الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أي منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن .

ولنر الأداء البياني للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : { فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ } أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتي بكلمة « نصيب » أي مجرد شيء من الغلبة المؤقتة . ثم يأتي القول الفصل من الحق : { فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه في الدنيا ، فيأتي له بالمسألة المقطوع بها؛ لذلك لا يقول للمؤمن : إنك سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتي بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيراً مؤكداً لكل مؤمن؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان .  
ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن في الدنيا؛ لأن الغايات تأتي لها الأغيار في هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان . وثن الإيمان باقٍ ببقاء من آمنت به .

إن القاعدة الإيمانية تقول : من يعمل صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين : { فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [ آل عمران : 107 ]

أي أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من

صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَاللَّهُ يَخُكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي لن يوجد نقض لهذا الحكم؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ \* مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ \* سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ \* وامرأته حَمَلَةَ الْخَطْبِ \* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [ المسد : 1-5 ]

قول الحق سبحانه : { سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ } يدل على أن أبا هب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عددٍ من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فيها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذي كان يدري محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا هب لن يكون من هؤلاء؟ ولماذا لم يقل أبو هب : قال ابن أخي : إني سأصلى نارا ذات هب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذي حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

لم يكن باستطاعة أبي هب وزوجه أن يقولوا في جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة؟ ولكن الله الذي لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل في أبي هب وزوجه يأتي قول الحق في ترتيبه المصحفي ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصلى أبو هب نارا ذات هب وامرأته حاملة الخطب ، وقال الحق بعدها مباشرة : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ } [ الإخلاص : 1-2 ]

فلا أحد سيغير حكم الله . .

إذن فقوله الحق : { فَاللَّهُ يَخُكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي لا معقب لحكم الله ، فلا إله غيره يعقب عليه . { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق في الدنيا أو في الآخرة؟ ونعلم أن الحق يحكم في الآخرة التي تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب في الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فنتائج الأسباب تعطيه؛ لأن مناط الربوبية يعطي المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً ، وقد ينهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمنا : إياك أن تعتبر أنّ الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطئ يُصَحِّحُ له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الفاعل؛ فهذا يعني أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ،

فتلتصق القاعدة في رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع . وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب .  
والباطل أيضاً من جنود الحق .

فعندما يستشرى الباطل في الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا نرى الباطل نفسه من جند الحق ، فالباطل هو الذي يظهر اللذعة من استشرى الفساد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذي يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء؛ لأن الألم يقول للإنسان : يا هذا هناك شيء غير طبيعي في هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب .

علينا - إذن - أن نعرف ذلك كقاعدة : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يقود إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكي عن العلامة سيويه ، وهو من نذكره عندما يلحن أحد بخطأ في اللغة؛ فنقول : « أغضب المخطئ سيويه »؛ لأن سيويه هو الذي وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أطلقنا كلمة الكتاب في عرف اللغة فالمعنى ينصرف إلى كتاب سيويه؛ فهو مؤلف الكتاب .

وسيويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لحنة في مجلس ، أي أنه أخطأ في النحو وعاب عليه من حوله ذلك ، فغضب من نفسه وحزن ، وقال : والله لأجيدن العربية حتى لا أحن فيها . وأصبح مؤلفاً في النحو .  
ومثال آخر : الإمام الشاطبي - رضي الله عنه - لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً في النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة في القراءات فلم يتعرف عليها ، فأقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحنة - أي غلطة - هي التي صنعت من سيويه عالماً في النحو ، ومشكلة وعدم اهتداء في القراءات جعل من الإمام الشاطبي شيخاً للقراء؛ على الرغم من أن سيويه كان عالم قراءات ، والشاطبي كان رجل نحو .  
ولذلك أكررها حتى نفهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا في ظاهر الأمر على المؤمنين في بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للتربية؛ ففي « أحد » خالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة :

{ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ  
وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } [ التوبة : 25 ]

والشاعر العربي الذي تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة ... إلا إذا لم تقتل أسابها

لكن إذا جهدت لتطرد شائباً ... فالحمق كل الحمق فيمن عاجها  
فعندما يقتلع الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك في أحد ، هم خالفوا في  
البداية فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفسح الطريق للنصر .  
فإن رأيت أيها المسلم للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تخلخل في نفوس  
المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أخذ المؤمنون بالأسباب أعطاهم النتائج . فهو القائل :

{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [ الأنفال : 60 ]

فإن لم يعدد المؤمنون ما استطاعوا ، أو غرّتهم الكثرة فالنتيجة هي الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل  
مؤمن أن يضع في يقينه هذا القول الرباني : { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ  
تَبْدِيلًا وَلَنْ نَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } [ فاطر : 43 ]

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أي شيء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جزاءه على  
قدر عمله . ويغار الله على عبده المؤمن عندما يخطئ ، لذلك يؤديه ويربيه - والله المثل الأعلى -  
نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتي بمدرس ليفعل ذلك؛ لأن  
حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد يضربه . أما المدرس الخارجي  
فلا ينفعل؛ بل يأخذ الأمور بحجمها العادي . إذن فكلما أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود  
ويقسو أحياناً على من يرحم .  
والشاعر العربي يقول :

فقسى ليزدجروا ومن يك حازماً ... فليقس أحياناً على من يرحم  
ومثال آخر - والله المثل الأعلى - الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد في صحن المنزل أطفالاً  
يلعبون الميسر منهم ابنه وابن الجار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه ، ويأمره  
بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الجار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل  
الذي لا يعرفه فلن يتكلم معه .

وهكذا نجد العقاب على قدر الحبة والود ، والتأديب على قدر المنزلة في النفس . ومن لا تهتم  
بأمره لا نعطي لسلوكه السيئ بالاً . وساعة نرى لأن للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلنعلم أن  
قضية من قضايا الإيمان قد اختلت في نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظلموا هكذا بل يصفهم الحق  
من هذه الأخطاء بأن تعضهم الأحداث . فينتبهوا إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .  
ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ . . . } .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا  
يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)

نعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر؛ ويوضح الحق : إياكم أن تظنوا أن في قدرة مخلوق أن يفعل شيئاً بدون علم الله ، وقد يمكر إنسان بك ، وهو يعلم أنك تعلم بمكره ، فهل هذا مكر؟ لا؛ لأن المكر هو الأمر الذي يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول في المكر ألا يعلم الممكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخادعون من يعلم خافية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين وماهم . وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذي يبيته الله لهؤلاء المنافقين؟ لقد بيت لهم الدرك الأسفل من النار . فمن الأقدر - إذن - على الخداع؟ إن الذكي حقاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكلمة « خدع » تعني مكر به مكرراً فيبيدي له قولاً وفعلاً ويخفي سواهما حتى يثق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خادع » . والحق في هذه الآية لم يقل إن الله يخدعهم ، بل قال : { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } .

و « خادع » تعني حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث بين طرفين وكذلك نقول : شارك فلان فلانا؛ لأن مادة « فاعل » تحتاج إلى طرفين . لكن عندما نقول « قتل » ، فالفعل يحدث من جانب واحد . والخداع يبدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذي يُراد خداعه أن خصمه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر ، وتسمى العملية كلها « مخادعة » ، ويقال : خادعه فخدعه إذا غلبه وكان أخدع منه . ومن إذن الذي غلب؟ إن الذي بيّت الخداع رداً على خداع خصمه هو الغالب .

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى « المخدوع » الأمر بتبنيته أكبر؛ فهو « خادع » ، والذي يغلب نقول عنه : « أخدعه » أي أزال خداعه . والله سبحانه وتعالى عاملهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فالمنافقون أظهروا الإيمان أولاً وأضمر الكفر ، وأعطاهم الله في ظاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفي الباطن قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك؛ لأنهم سيكونون في الدرك الأسفل من النار .

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } وإياك أيها المسلم أن تشتق من هذه العملية اسماً لله وتقول « المخادع »؛ لأن أسماء الله توقيفية أي لا نسمي الله إلا بالأسماء التي سَمَّى بها نفسه . وسبحانه يفعل الفعل ، لكن لا تأخذ من هذا الفعل اسماً ، والحق يعطينا هنا « مشاكلة » ليوضح لنا أن المنافقين يمكرون ويبيتون شراً للمؤمنين ، وأنت أيها المسلم تعرف أن الإنسان إنما يبيت الشر على قدر طاقته التي مهما كبرت فهي محدودة بجانب طلاقة قدرة الله .

ولذلك يفضح الله هذا الشر المبني من هؤلاء المنافقين ، وهم حين يمكرون فالله بطلاقة قدرته يمكر بهم أي يبطل مكرهم ويجازيهم على سوء فعلتهم ، ولا نقول : « الله ماكر » . والله أن يقول

في الفعل المشاكل ما يشاء .

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى } .

إن الغايات من الأحداث هي التي تضيف على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا كنت تحب الحدث الذي تقبل عليه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة . ويقيسون لهفة اللقاء لأنها تحدد درجة المحبة . والشاعر العربي يصف لقاء حبيب بحبيبتة :

لقاء الاثنين يبين حَدَّهُ ... تلهف كَيْفٍ واستطالة مُدَّهُ

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهما يسرعان باللهفة فيقطعان العشر خطوات في ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التي يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان؛ وكذلك المدة التي يحتضن كلاهما الآخر ، هل هي دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث؟

إذن فالذي يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان الذين يُتَيَّمون بالنساء يسترون في السلام مودتهم . وفي الحصار الغربية التي سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفي بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادلها هذه اللهفة؟ فإن وجدت الكف مفردة ومبسوطة للمصافحة فقط فهذا سلام عادي . أما إذا ثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليم أن ترى أي طرف هو الذي قام بثني أصبعه ليحتضن اليد كلها في يده ، فإن كان ذلك من الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معا ، ثم ما المدة التي يستغرقها بقاء اليد في اليد؟ وقد يجلو لكليهما معاً - رجل وامرأة - وكأن الكلام قد أخذهما فنسي كل منهما يده في يد الآخر .

سلام نوعين يبين حَدَّهُ ... تلهف كيف واستطالة مُدَّهُ

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متتاقلاً . وكان المنافقون يقومون إلى الصلاة بتثاقل وتكاسل : { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى } كأنهم يؤدون الصلاة كستار يخفون به نفاقهم ، ويستترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن قيامهم للصلاة شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال - رضي الله عنه - طالبا منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة » .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدي الصلاة ، أما المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسل . { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } .

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدتهم غيرهم وهم يصلون . وفي الصلاة التي يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم في أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك في السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففي داخل كل منافق تياران متعارضان . . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيراً .

وإذا ما حسبناكم شيئاً يجهر به المصلي وكم شيئاً يجريه سراً فسنجد أن ما يجريه المصلي سراً في أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففي الركوع يقول : سبحان ربي العظيم ثلاث مرات ، ويقول : سبحان ربي الأعلى ، في كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مَرْتَباً ومسموعاً من غيره ، هذا هو معنى المراعاة . أما الأعمال والأقوال التي لا تُرى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدّها إلا هذه المراعاة؛ لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدي المسلم كل عمل جاعلاً الله في باله ، وهو الذي لا تخفى عليه خافية . وبلغتنا إلى هذه القضية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وإذا كان الإنسان يخجل من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً فما بالناس بالذي يحاول غش الله وهو يعلم أن الله يراه؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه؟ وعندما يغش واحداً آخر واكتشف الآخر غشه فهو يعاقبه فما بالناس بغش الله؟! ولذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل لنا حال المرآئي للناس فيقول : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : الرياء ، يقول الله - عز وجل - يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الدين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن المرآئي ينادى عليه يوم القيامة » يا فاجر « يا غادر » « يا مرآئي » ضل عملك وحبط أجرك فخذ أجرك ممن كنت تعمل له » .

إذن فالمنافق إنما يخدع نفسه ، هو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس . ويذكي ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به ، لكنه لا يعلمه الله ، ولذلك قال القرآن : { والذين كفروا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [ النور : 39 ]

وقال عن لون ثان من نفاقهم : { كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [ البقرة : 264 ]

والصفوان هو الحجر الأملس تماما وهو الذي ليس فيه خشونة ، لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر ، فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر ينزلق من عليه التراب . ومن يراني المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له . ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين فيقول : { مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ . . . }

**مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)**

والشيء المذبذب مثل المعلق في خيط فيأخذه الريح إلى ناحية ليقذفه في ناحية أخرى لأنه غير ثابت ، مأخوذ من « المذبذبة » ومنه جاءت تسمية « الذباب » الذي يذببه الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذُبت عن مكان لا بد أن يعود إليه .  
{ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ } فهل هم الذين ذذبوا أنفسهم أم تلك هي طبيعتهم؟ ولنتأمل عظمة الحق الذي سوى النفس البشرية؛ ففي الذات الواحدة أمر ومأمور ، والحق يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا } [ التحريم : 6 ]  
أي أن الإنسان يقي نفسه بأن يجعل الأمر يوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الأمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قاييل : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ } [ المائدة : 30 ]  
أي أن جزءاً من الذات هو الذي طَوَّعَ بقية ذات قاييل لتقتل هابيل . فقد خلق الله النفس البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ، والملكة التي تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتي تحب الشح إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يغبنيه . وكلتا الملكتين تتصارع في النفس الواحدة؛ لذلك يقول الحق : { قُوا أَنْفُسَكُمْ } فالنفس تقي النفس؛ لأن الملكات فيها متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية تقول : تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمة المتاعب فيما بعد .  
إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع في قوله : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ } .

لأن قاييل أراد أن يقتل هابيل بغريزة الاستعلاء ، ونازعتته نفسه بالخوف من الإثم . لقد دارت

المراودة في نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت بالقتل وطوعت بقية النفس . وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذي يقيم التعايش السلمي بين الملكات .

مثال آخر : الغريزة الجنسية تقيم السعار في النفس ، فيقوم الوعي الإيماني بردع ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ في أعراض الناس حتى لا تلغ الناس في أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبنائك في فراش غيرك؛ لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر وينهى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدي الإنسان غريزة إلى أمر آخر؛ لأنه إن عدى الشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التي تعطي لنا النور في حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذي وضع القطب الموجب في مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث نأخذ الضوء الذي نريده أو تعطينا شرارة لنستخدمها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت قفلة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً .

وكذلك النفس البشرية ، إن التقى الذكر مع الأنثى كما شرع الله فإن البشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذي يحدث في المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره الضارة ، وهكذا نرى أن النفس ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد غريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصي أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء في الحديث : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » .

فالطعام لبقاء النوع . والإنسان محب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله في الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع في التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعايش ملكاته في ضوء منهج الله معايشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعادلة ، لتعيش كل الملكات في سلام ، ويؤدي كل جهاز مهمته كما أراد الله .

لكن المنافق يحيا مذنباً وقد صنع بنفسه ، فقد أرخى لبعض ملكاته العنان على حساب ملكات أخرى { مُذْنَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ } إن الكافر يمتاز عن المنافق - ظاهراً - بأنه منسجم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعلن ذلك ولكنه في حقيقة الأمر يتصارع مع فطرته التي تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل : وكيف يتساوى الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر مع الذي أعلن الكفر؟ ونقول :

الكافر لم يخدع الطائفة المؤمنة ولم يقل كالمنافق إنه مع الفئة المؤمنة وهو ليس معها؛ بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خسيس في وضعه الإنساني والرجولي .  
 { مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } .  
 والله لا يضل عبداً بشكل مباشر؛ فسبحانه يُعلم خلقه أولاً بالرسول والمنهج ، لكنه يضل من يصير على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلالة وعماه . صحيح أن في قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .  
 فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال .  
 . ويزين له الدنيا ويعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً؛ فسبيل الله واحد . وليس هناك سبيلان .  
 ونذكر هذه الحكاية؛ لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعي - وهو مؤلف عربي له قيمة كبيرة - يملك أذنًا أدبية تميل إلى الأساليب الجميلة من الشعر والنثر ، ووجد الأصمعي إنساناً يقف أمام باب الملتزم بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاءً حاراً « يا رب : أنا عاصيك ، ولولا أنني عاصيك لما جئت أطلب منك المغفرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعي بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144)

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله؛ وكذلك أخذ المؤمنون على المنافقين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا فأولى بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المنافقين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فإياكم أن تفعلوا مثلهم .  
 { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } .

وهذا أمر منطقي يستقيم مع منهج الإيمان؛ لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفي الكفر في قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه .

الحق سبحانه في إرساله للرسول وفي تأييد الرسل بالمعجزات وفي إرساله المناهج المستوفية لتنظيم حركة الإنسان في الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل

لنا يارب كيف نسير على منهج ما؛ لذلك لم يترك - سبحانه - الإنسان ليفكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقا للكون . لم يتركنا سبحانه لهذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنبهي يارب ، والجهل بالقانون في الشرع البشري لا يعفي الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرما ، لكن الله لا يفعل ذلك؛ فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسول ليحمل المنهج الذي يبين الحلال من الحرام : { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [ الأنفال : 42 ]

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرّة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتقرّبتم إليهم ونصرتموهم فأنتم أكثر شرا من المنافقين؛ لأن المنافق له أسبابه ، وفي أعماقه خيط من الكفر وخيط من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلنتم الإيمان به . فإن صنعتم غير ذلك تعطون الحق الحجة في أن يعذبكم . { أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا } والسلطان المبين هو السلطان الواضح المحيط الذي لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فإذا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن ينقضها ، كالحامي أمام المحاكم . لكن حجة الله هي سلطان مبين . أي لا تنقض أبداً . ومن بعد ذلك يقول الحق : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي . . . }

### إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا (145)

ولر دقة التربية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل في كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتي بلمحة عن المنافقين ثم يأتي بلقطة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينقّر السامع من وضع المنافق ويحببه في صفات المؤمن ، وهنا يقول : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا } . والدرك دائما في نزول . والأثر الصالح يميز لنا ذلك بالقول : « النار دركات كما أن الجنة درجات » .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفي عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس؛ لأن اليابسة متعرجة ، أما البحر فهو مستطرق . ونستخدم في الأمر الدقيق - أيضا - ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذي رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا؟ ونحن نلقي دلوا من المياه في الحمام بعد تبيطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل العامل ، إذن هناك شيء يفضح شيئا آخر . والقول المصري الشائع : « إن الذي يقوم بعمل الحارة هو الذي يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو؛ فعامل الحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوي سطح الحائط . . والذي يكشف جودة عامل الحارة هو عامل طلاء الحائط؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون

بكثرة ليملاً المناطق غير المستوية في الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلاً . والذي يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هي أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذي يريد أن يعش هو الذي يسرع بتسليم البناء؛ لأن الغبار الذي يوجد في الجو يمشي في خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعاً إلى الحق سبحانه مفضوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً ، فهؤلاء يستترهم بعملهم الصالح .

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا } . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التي لا ثبات لها على رأي ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذي يعيشون فيه فقال عنهم : { مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلاءِ } [ النساء : 143 ]

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التي لا يوجد لها مقوم ذاتي . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائي لهم حق يناسب ما فعلوه . وقد هيأ الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذي أنزله عليهم حتى لا تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكماً فهو يضمن بقيوميته ووحدايته ألا يوجد منازع له في الحكم .

وكان من الممكن أن يقول سأجعله في الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تنتشل المنافق؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : { وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا } أي أنه حكم مشمول بالإنفاذ ، ولن يعدله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك في الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما في الآخرة فلا ملك لأحد ولا مُلك لأحد . { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [ غافر : 16 ]

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم في المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه – أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يعلق الباب دونهم بل قال : { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا . . . }

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

إذن فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائي ، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط في مزيد من الشرور؛ لذلك قال : { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا } أي تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد

أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويُخْلِصَ لهُ نِيَّةً وَعَمَلًا . { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ } . إذن فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هي التوبة ، وإصلاح ما أفسد ، والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله .

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، وألا يترك المنافق الفساد الذي صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق . والاعتصام بالله كيف يكون؟ لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لا ابتغاء العزة عند الكافرين . . أي أن نفس المنافق تطمئن إلى هؤلاء الكافرين فيفزع إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم؛ لذلك يوضح الله : تنزعوا هذه الفكرة من رؤوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يُجِيرُ أَحَدٌ عَلَى اللَّهِ ، واجعلوا العزة والمرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذي يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيماني بالله ، لكن الحق يقول : { وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ } فلماذا أكد على الإخلاص هنا؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولاً . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدي ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدي على محارم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور . إذن فقوله الحق : { وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ } جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق ، والإخلاص محله القلب .

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا في النفاق . وجعل الثائمين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل في التنعيم وفي نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين . { فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين . ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهرياً وشكلياً من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطي سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ . . . } .

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ آبِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب نفسها ، ليجليها فيقول : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ } وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . وسبحانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقا بما فهو لا يأتي بما خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابي لكم ولا أحقق لذاتي من ورائه شيئاً ، فلا استجلب به لي نفعاً ولا أُدفع به عني ضرراً .

لكنه هنا لا يأتي بهذه القضية كخبر من عنده ، بل يجعل المنافقين يقولونها . مثال ذلك - والله المثل الأعلى - يقول واحد لآخر : أنت أهنتني . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهتك . وأقسم لك أنني ما أهنتك . وقد يضيف : ابغني شاهداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شاهداً على أن الإهانة المزعومة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً على من يتهمه بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فماذا قلت لك حتى تعتبره إهانة؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل في طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقاً من أنه أهان الآخر ، فهو يخاف أن يقيم الآخر دليلاً على صحة اتهامه له ، ولكن حين يقول له : وماذا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة؟ . فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ } فهذا خطاب لجماعة كانت ستتعذب . وكانت فيهم محادة لله . ورضي الله شهادتهم ، فكأن هذه لفظة على أن العاصي يستحق العذاب بنص الآية : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ } ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطري في النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم تجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم؟ فلن يجدوا سبباً خاصاً بالله ليعذبهم ، فكأن الفطرة الطبيعية قد استيقظت فيهم؛ لأنهم سيديرون المسألة في نفوسهم .

وعلى مستوانا نحن البشر نرى أن الذي يدفع الإنسان ليعذب إنساناً آخر إنما يحدث ذلك ليشفي غيظ قلبه ، أو ليثأر منه؛ لأنه قد آلمه فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون في أي موقع من هذه المواقع . فإذا أدار المنافقون هذه المسألة فطرياً بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتي : لن يفعل الله بعذابنا شيئاً ، إن شكرنا وآمننا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقيها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجري هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فستكون إجابته اقرارا من المقابل . وهذا يعمي أنهم كانوا عاصين ومخالفين . وكأنه سبحانه قد ائتمنهم على هذا الجواب؛ لأن الجواب أمر فطري لا مندوحة عنه . وحين يدير الكافر رأسه ليظن بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الظن أبدا .

{ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } . وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذي يناله الحق من عذابهم؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شيء من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شيء من معصية يعود إلى الله بالضرر . ولكنه يعتبر النفع والضرر عائدين على خلق الله لا على الله - سبحانه - .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة في المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالمسألة التي يريدنا الحق ، لا يريدنا لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الخلق موجود وبكل صفات الكمال له ، وبصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يزيد معه شيئا ، ولذلك قال في الحديث القدسي :

« يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئا إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر . . . » .

إذن فالطاعة بالنسبة لله والمعصية بالنسبة لله ، إنما لشيء يعود على خلق الله . ولننظر إلى الرحمة من الحق سبحانه وتعالى الذي خلق خلقاً ثم حمى الخلق من الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المخلوق مثله فهو طائع لله ، ويجب الله لأنه أحسن إلى صنعة الله .

{ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ } فَإِنْ تَشَكَّرُوا وَتَوَمَّنُوا فَلَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا . . . أي فقد أبعدم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفراده مع بعضهم بعضاً ، وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء ونماء وتعايش . ونعلم أن لكل إنسان سمة وموهبة ، وهذه الموهبة يريدنا المجتمع . فمن الجائز أن يكون لإنسان ما أرض ويريد أن يقيم عليها بناء ، وصاحب الأرض ليس مفترضا فيه أن يدرس الهندسة أولاً حتى يصمم البناء ورسومه ، وليس مفترضا فيه أن يتقن حرفة البناء ليبنى البيت ، وكذلك ليس مفروضا فيه أن يتعلم حرفة الطلاء والكهرباء وغيرهما .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلباب أن يتعلم جز الصوف من الغنم أو غزل القطن وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحياتته من بعد ذلك ، لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فلكل إنسان عمل ينفع الناس به حتى يتحقق الاستطراق النفعي ، ولأن كلاً منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من إطار التعايش السلمي في الحياة . لا أن يكون العراك هو أساس كل شيء؛ لأن العراك يضعف القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة لا متعادلة ، ولذلك قال : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ } . أما إن لم تشكروا وتؤمنوا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود على الله بشيء . ولماذا وضع الحق الشكر مع الإيمان؟ لنعرف أولاً ما الشكر؟ الشكر : هو إهداء ثناء إلى المنعم ممن نالته نعمته ، فتوجيه الشكر يعني أن تقول لمن أسدى لك معروفاً : « كثر خيرك » ، وما الإيمان؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذي يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون منظماً ، ولم يقل له أحد أي شيء عن أي دين أو خالق . ألا تحفو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراق إلى معرفة من صنع له هذا الكون؟ وعندما يأتي رسول ، فالرسول يقول للإنسان : أنت تبحث عن القوة التي صنعت لك كل هذا الكون الذي يحيط بك ، إن اسمها الله ، ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولاً ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالي ، والإيمان عرفان تفصيلي . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التي وهبت النعمة .

{ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله واهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك؟

لنضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت اشتريت لابنك بعضاً من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد ان استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتي باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام أو ملابس .

إذن فأنت تأتي لابنك باللعب بعد الطعام والملبس ليملاً وقت فراغه ، وهذا يعني أن الضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابنك : إن هذه اللعبة للعب فقط ، ستأخذها ساعة تحب أن تلعب ، وتضعها في مكانها وقت أن تذاكر ، فكل شيء هنا في هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعني إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلعبته وقت اللعب ولا يلعب بأي شيء غيرها في المنزل؛ لأنه لو لعب بكل شيء في المنزل فلا بد من أن يكسر شيئاً ، فلا مجال للعب في التلفزيون أو في الساعة أو الثلاجة أو الغسالة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة .

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شيء يلعب به وشيء يُجد به . وأشياء الجد لا توجد إلا عند طلبها فقط؛ فالغسالة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا نستخدمها إلا لحظة أن نرغب في معرفة الوقت . والثلاجة لا تفتحها إلا ساعة تريد أن تستخرج شيئاً تأكله أو تشربه ، والوالد يأتي للابن بقليل اللعب ليضع له حداً بين الأشياء التي يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التي لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعمالها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يقرب الوالد ابنه ، ويجده منفذاً للتعليمات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظاً عليها . وإن لم يُعلم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه .

وحين يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويسعد به . وعندما تخرج لعبة جديدة في السوق فالأب الراضي عن ابنه يشتري له هذه اللعبة الجديدة؛ لأن الولد صار مأموناً؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضاً كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن . وينشأ عن هذا الرضاء أن يشتري الأب لعباً جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث في العلاقة ما بين الأب والابن ، وهما مخلوقان لله ، فما بالنا بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى الذي أوجد كل المخلوقات؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل في ضوء منهج الله ، فالله شاكر وعليم؛ لأن الله يرضى عن العبد الذي يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطي له زيادة . فالله شاكر بمعنى أن البشر إن أحسنوا استقبال النعمة بوضع كل نعمة في مجالها فلا تتعدى نعمة جادة ، على نعمة هائلة ولا نعمة هائلة على نعمة جادة ، فالله يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطي البشر أشياء ليست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطي الضرورات لكل حتى الكافر . ويعطي سبحانه ما فوق الضرورات وهي أشياء تسعد البشر .

إذن فمعنى أن الله شاكر . . أي أن سبحانه وتعالى راض . ويثيب نتيجة لذلك ويعطي الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقاً لقوله الحق : { لئن شكرتم لأزيدنكم } [ إبراهيم :

[ 7

فالشكر هنا موجه من العبد للرب ، والزيادة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن تصنع الأشياء شكلياً ، مثل الطفل الذي يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يختفي الأب أمام عيني الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذي لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكر ، وهو أيضاً عليم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : { لأحبُّ الله الجهر . . . }

## لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148)

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمي آذان المجتمع الإيماني من « قالات السوء » . . أي من الألفاظ الرديئة؛ لأننا نعلم أن الناس إنما تتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذي لا تسمعه الأذن لا تجد لسانا يتكلم به ، ونجد الطفل الذي نشأ في بيت مهذب لا ينطق ألفاظا قبيحة ، وبعد ذلك تحيء على لسانه ألفاظ قبيحة وحينئذ نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت في بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هي بنت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جنسا وليست دما ، بمعنى أن الطفل الإنجليزي لو نشأ في بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . ولو أخذنا طفلا عربيا ووضعناه في بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي المجتمع الإيماني من قالات السوء التي تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة؛ لأن الناس إن تكلمت بقالات السوء ، فسيكون شكل المجتمع غريبا ، وتتردد فيه قالات سوء في آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريد الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيردها ، وسيسمعها غيره فيردها ، وتتوالى القدوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذي نطق بكلمة السوء أولاً .

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت في الحق مثلا فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يتبدئ إنسان آخر بسباب ، ويجوز أن يدعي إنسان على آخر سبابا . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي الآذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : { لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ } ومقابلها بالطبع هو : أن الله يحب الجهر بالحسن من القول . وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحكمة الإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى؟ . لا .

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ . والمثل العربي يقول : « من استغضب ولم يغضب فهو حمار »؛ لأن الذي يُستغضب ولا يغضب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمتنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه؟ لا ، لكنه - سبحانه - يضع شرطا لكلمة السوء هو : { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ } ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره .

وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتنفور ، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : { لَأُحِبُّ اللهَ الجَهرُ بالسوءِ مِنَ القولِ } واكتفى بذلك ، لكان كبتاً للنفس البشرية . وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يجب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال ، وينفجر؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لأحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمح به في حدوده المنفتحة عن غيظ القلوب؛ لأني لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الغضب جمرة توقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليتم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء » .

أي أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل؛ لأنه بذلك ينفث تنفيثاً حركياً ليخفف من ضغط المواجهيد على النفس الفاعلة؛ تماماً كما يفك إنسان صماماً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والجهر له فائدتان : الأولى : أن ينفث الإنسان عن نفسه فلا يكبت ، وثانياً : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يجتاط الناس في تعاملهم معه . وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن بمنجاة عن سيئاته ، فلو ستر كل إنسان الظلم الذي وقع عليه لاستشرى الظلم في عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد في فهم معنى كلمة « ظلم » هذه؛ لأن الذي ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم . { فَمَنْ عَتَىٰ عَٰلِيكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَىٰ عَٰلِيكُمْ } [ البقرة : 194 ]

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا في الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنا السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنا العليم ، فلا يتزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفي الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيماني . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم . لكن إن امتلك الإنسان الطموح الإيماني فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فارق بين أمر يضعه الحق في يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسراً وإكراها عليه؛ فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة في يد الإنسان ، ويجب سبحانه أن يعفو الإنسان؛ لأن المبادئ القرآنية يتساند بعضها مع بعض .

وسبحانه يقول : { ادفع بالتي هي أحسنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [

فصلت : 34 ]

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألا تجهر بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزي ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه في الخلق ، ولا يتعب إنساناً إلا أن يرى إنساناً خيراً منه في شيء . وعندما يرى الظالم أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر في نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيماني : { ادفع بالتي هي أحسنُ } جعله الله مجالاً محبوباً ولم يجعله قسراً؛ لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكل . وهكذا ينمي الحق الأريحية الإيمانية في النفس البشرية؛ لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتي هي أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدي ، وسبحانه القائل : { ادفع بالتي هي أحسنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } .

فإذا تمادى من بعد ذلك فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل في سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتي هي أحسن .

قد يكون الذي دفع بالتي هي أحسن قد قال بلهجة من التعالي : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً ولياً حميماً . لكن إن دفع حقيقة بالتي هي أحسن تواضعاً وسماحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله : { فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله في إطارات واضحة وسبحانه القائل : { فَمَنْ اعْتَدَى

عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [ البقرة : 194 ]

وذلك حتى لا يستشرى المعتدي أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة . يستشرى ، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت ، وبذلك نرحم المجتمع من استشرى الفساد . ويُصعب الحق المسألة في رد الاعتداء .

ويثور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة؟ . ونجد على سبيل المثال إنساناً ضرب إنساناً آخر صفقة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب؟ وفي أي مكان ضرب؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب . ومادام المأمور به أن اعتدى بمثل ما اعتدى به علي؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية؛ وبعد أن كنت المعتدى عليه صرت المعتدي ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التي تنتاب الإنسان في التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد في النفس تدفع إلى النزوع .

والعملية النزوعية هي رد الفعل لما تدركه ، فإن آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهداً لتكظم الغيظ ، أي أن تحبس الغيظ على شدة . فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المغتاط أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقي الغيظ في القلب . { والكاظمين الغيظ } [ آل عمران : 134 ]

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هي : { والعافين عَنِ الناس } [ آل عمران : 134 ] فإذا كان المطلوب في المرحلة الأولى منع العمل النزوعي ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التي تغيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى في كظم الغيظ والعفو فأحسن إليه؛ لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانياً . وعندما ترى مريضاً في بدنه فأنت تعاونه وتساعدته وإن كان عدواً لك . وتتناسى عدواته؛ فما بالنا بالمصاب في قيمه؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ ، أو العفو كدرجة أرقى ، أو الاحسان إليه كمرحلة أكثر علواً في الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدي بالمثل ، ثم يفسح المجال لتكظم الغيظ فلا نعتدي ولكن يظل السبب في القلب ، ثم يرتقي بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يرتقي ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : { والله يُحِبُّ الْحَسَنِينَ } ، ومن فينا غير راغب في حب الله؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامي يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه . وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب مني أن أحسن إلى من أساء إلي؟ والرد : أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم؛ فهو قيوم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل شيء مرئي له وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صنعته يعتدي عليك أو يسيء إليك فسبحانه يكون معك ويجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدى عليه . إذن فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه في جانبك ، وتكون تلك الإساءة في جوهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذي عفا قد أخذ مما لو كان قد انتقم وثار لنفسه؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، وبعطاء غير محدود إن أراد أن يرضى المعتدي عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافي المحسن . وهو السميع العليم بكل شيء . ويقول الحق من بعد ذلك : { إِنَّ تَبْدُؤَ خَيْرًا . . . }

إِنَّ تَبْدُؤَ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149)

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً . وهذا يعني أن المسألة تحتل الجهر وتحتل الإخفاء ، فقال : { إِنَّ تَبْدُؤَ خَيْرًا } أي إن تظهر الخير ، أو تخفي ذلك ، أو تعفو عن السوء . وكل هذه الأمور من ظاهر وخفي من الأغيار البشرية ، لكن شيئاً

لا يخفى على الله . ولا يمكن أن يكون للعفو مزية إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزي أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادامنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هي المزية الإيمانية؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذي يقول : إنه عفا - وهو على غير قدرة - تراه أنه استخزي . أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله في الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا } .

وقلنا من قبل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلينا أن نقول : كان ولا يزال؛ لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضي وعن الحاضر وعن المستقبل؛ فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو يظل إلى الأبد . ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150)

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاد فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخالق هو الذي سخر لك قوى الكون واسمه الله . وأنت لا تهتدي إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بوساطة رسول منزل من عند الله .

ونعرف أن عمل العقل في الاستنباط العقدي عاجز عن معرفة اسم خالق الكون؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفئة ليعلم القوة التي سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه - مثلاً - أن هذا البيت بناه الأب أو الجد ، وذلك الشيء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : « ومن بنى السماء؟ » ولم يسمع أحداً يقول : « ومن خلق الشمس؟ » ، مع أن الناس تدعي ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما في كون الله بدون أن نعرف من أوجده؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشيء التافه أو المهم نسبياً في حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء؛ تاريخ المصباح الكهربائي الذي اخترعه اديسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شيء في هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشيء إلى أصل وجوده . وأنت إن نسبت أي صنعة مهما كانت مهمة أو تافهة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يبتكرها هو دفعة واحدة .

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضيء وينطفئ ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التي لم تخفت ولم تضعف ولم تنطفئ ولم تحترق ، والمصباح ينير حيزاً قليلاً يسيراً ، والشمس تنير كوناً ووجوداً ، ألا تحتاج الشمس إلى من يفكر في تاريخها؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حينما ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين وبعيداً عن بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق ومنهج الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هناك من يجلس على كرسي من شجر الجميز . وآخر على كرسي مصنوع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته؛ فالريفي أو البدوي يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة يستخدمها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقي في استخدام النار يستخدم « مسرحة » ، ولما ازداد تحضراً استخدم « مصباح جاز » بزجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الإضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولما ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكلوب » .

ولما ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاقة الشمسية ، فإذا ما أشرفت الشمس فكل إنسان يطفئ الضوء الذي يستخدمه ، فنورها يغني عن أي نور . وفي الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء في منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما فيظلم المكان . فما بالنا بالشمس التي لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفي . فكيف يتأتى - إذن - مثل قول هؤلاء : سنؤمن بالله ونكفر برسله؟ كيف عرفوا - إذن - أن القوة التي سيؤمنون بها اسمها الله؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول؛ لأن الإيمان بالله إنما يأتي بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كقوة خفية قوية مبهمة وعظيمة يكفي؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيما تطلبه منه هذه القوة؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذي يبلغ هذا المنهج؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، ويشرح لنا كيفية طاعة هذه القوة . فلا أحد - إذن - يستطيع أن يفصل الإيمان بالله عن الرسول ، وإلا كان إيماناً بقوة مبهمة . ولا يجترئ صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة »

الله»؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحدنا إنساناً يقول : أنا أوّمن بالله ولكن لا أوّمن بالرسول : علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلي؛ لأن الإيمان بالله يقتضي الإيمان ببلاغ جاء به رسول؛ لأن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقيّة المخلوقات ، ولا نجد من يدعي أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم في منطق العقل واحد ... ولكنه عند القياس أوادم

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيراً قد سبقوا آدم في الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشري . وعندما خلقه الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير في الوجود ، فلو لم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع - على سبيل المثال - أن يقول لابن من أبنائه : انظر أشرق الشمس أم لا؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم؛ لأن اللغة بنت المحاكاة؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة إلا بعد أن يكون قد سمعها .

والواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فمن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق في قرآنه : { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } [ البقرة : 31 ] هو كلام منطقي بالإحصاء الاستقرائي ، وهو قول يتميز بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، و « أكل » معناها كذا . إذن فالخميرة الأولى للكلام هي الأسماء ، وبعد ذلك تأتي المزاولات والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال .

لقد ترك الحق لنا في كونه أدلة عظيمة تناسب عظيمته كخالق لهذا الكون . والرسول هو الذي يأتي بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة : « الله » ، وصفاتها هي « كذا » ، ومن يطعها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم يوجد رسول نضل تائهيين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مطلوبها ، وهذا ما يرد به على الجماعة التي تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل أنتم تعبدون الشمس؟ لعلكم فعلتم ذلك لأنها أكبر قوة في نظركم . لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة »؟ الإجابة هي : العبادة طاعة عابد لمعبود ، فماذا طلبت منكم الشمس أن تفعلوه وماذا نعتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه؟ ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس لا أساس لها؛ لأنها لم تحدد منهجاً

لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئاً لمن عبدها ، فإنه بلا منهج لا قيمة له . وهكذا نرى أن عبادة أي قوة غير الله هي عبادة تحمل تكذيبها ، والإيمان بالله لا ينفصل أبداً عن الإيمان بالقوة المبلغة عن الله إنما الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف يتصل بهذه القوة الإلهية ، وتشرح القوة الألهية لنا كيفية اتصاله بالرسول البشري بوساطة خلق آخر خلقته هذه القوة المطلقة؛ لأن الرسول من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى عن القوة الفاعلة الكبرى . ونحن نفعل مثل هذه الأشياء في صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرغب في وجود ضوء في أثناء نومه ، فيتخذ الليل سكناً ويتمتع بالظلمة ، لكن إن استيقظ في الليل فهو يخاف أن يسير في منزله بدون ضوء حتى لا يسطلم بشيء ، لذلك يوقد مصباحاً صغيراً في قوة الشمعة الصغيرة ليعطي نفسه الضوء ، ونسميها « الوناسة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب محول صغير يأخذ من القوة الكهربائية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة القوى؟ إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله . وهؤلاء الرسل أعددهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقي هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص . ووضع الحق سبحانه وتعالى الإيمان بالرسول كلهم في صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولها فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسول كلهم؛ لأن كل رسول إنما جاء على ميعاده من متطلبات المجتمع الذي يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر؛ وإن اختلفوا في الوسائل والمسائل التي تترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق منه زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سبحانه : { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً } [ النساء : 1 ]

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصار مطلوباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رقعة من الأرض ليستخرج منها أفراد الأسرة خيرات تكفي الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقتة فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتنعزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعاييب غير موجودة في الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سبحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات في كل بيئة على حدة . وسخر الحق سبحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ،

فالحدث يحدث في أمريكا لنراه في اللحظة نفسها في مصر . وزادت الارتقاعات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة في المجتمع الإنساني كله ، فتظهر السيئة في أمريكا أو ألمانيا لنجدها في مجتمعنا . إذن فالارتقاعات الطموحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتي الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتي الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً ، ليخاطب الجميع كله ، وهو خير الرسل ، وأتمه خير الأمم إن اتبعت تعاليمه . ومن ضرورة إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون ، . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهقوه وكفروا بعباسي . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ، وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض .

ولذلك سمى الحق كفرهم بالنبي الخاتم : ( ثم ازدادوا كفراً ) . أي أنه كفر في القمة ، فلن يأتي نبي من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما ادته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصي . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول؛ لأن العقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله والرسل . وجاء الرسل في موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية للإله واحد ، فلا يقولن واحد : لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببقية الرسل . والآية التي نحن بصددنا الآن تعرض لذلك فتقول : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } [ النساء : 150 ]

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر - كما نعلم - يقتضي شيئاً تستره ، والشيء الذي يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذي يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله؛ فكأن وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله . ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك؟ وستكون إجابته هي : « الله » . أي أنه آمن بالله أولاً .

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ } هم الحمقى؛ لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق : { وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرُسُلُهُ مِنْ فَضْلِهِ } [ التوبة : 74 ]

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله : { وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ } لهؤلاء نقول : إن الإيمان قضية كلية ، فموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة ثابتة لا تتغير . والحق يقول : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

## كَمَا أُوحِيَآ إِلَى نُوحٍ { [ النساء : 163 ]

وهذا يؤكد أن قضايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فماذا - إذن - يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض الآخر؟ يريدون السلطة الزمنية . وكان القائمون على أمر الدين قديماً هم الذين يتصرفون في كل أمر ، في القضاء وفي الهندسة وفي كل شيء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المبلغون عن الله الذين ورثوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الارتقائية في الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كالتحنيط وغيرها تلك التي مازالت إلى الآن لغزاً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم - كما نعلم - المنسوبون إلى الدين . كأن الأصل في كل معلومات الأرض هي من هبة السماء .

لماذا إذن أخرج البشر وسُنُّوا قوانين من وضعهم؟ لقد فعل البشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين في كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويغمره الناس بأفضالهم ويعطونه مثل القرابين التي كانت تعطى للآلهة ، فيعيش في وضع مرفه هو وأهله ويزداد سمنة من كثرة الطعام والمتعة . وعندما يأتي إليه أحد في مسألة فهو يحاول أن يقول الرأي الذي يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليبلغ هذه الامتيازات ، يسرع بتكذيبه؛ ليظل - كرجل كهنوت - على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق : { اشْتَرَوْا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمناً قَلِيلاً } [ التوبة : 9 ]

أي استبدلوا بآيات الله ثمناً قليلاً من متاع الدنيا . فأخذوا الشيء الحقيقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث في تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وآخر فرنسياً أو رومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هي ما كان يحكم به الكهنة . والذي جعل الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت البشر الذين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضي في قضية بحكم ، ثم يقضي في مثيلاتها بحكم مخالف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون الأحكام حسب أهوائهم؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هي التي جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسولهم . فإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسالته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه؛ لأن الأصل في كل رسول أن يبلغ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به . { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ

وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ { آل عمران :

[ 81

وهكذا أخذ الله الميثاق من النبيين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى النبي الخاتم . { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } [ النساء : 150 ]

أي أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التي كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس في الإيمان « بين بين »؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والنظرة إلى كل هذه الآيات نجدتها في معظمها معطوفات ، ولم يتم فيها الكلام وهي في كليتها مبتدأ ، لا بد لها من خبر ، ويأتي الخبر في الآية التالية : { أولئك هم . . . }

**أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151)**

و « الكافرون حقاً » مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك؟ نعم . فالذي لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذي يبلغه . أما الذي جاءه رسول وله صلة إيمانية به؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحي ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فطبع مؤكد . { أولئك هم الكافرون حَقًّا } .

ونلاحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزهم عن الحكم والجزاء الذي ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم في النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : { أولئك هم الكافرون حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الجنة عرضت عليّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت »

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتي المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، وكم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون وهم مكان في الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون وهم أماكن في النار . فيأتي المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن في الجنة التي سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق : { أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون } [ المؤمنون : 10-11 ]

[

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذي آمن ومن الذي

كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذي يأتي إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً في الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً في النار . ونجد السؤال في الآخرة للنار : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [ ق : 30 ]

فالنار تطلب المزيد للأماكن التي كانت معدة لمن لم يدخلها أنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التي كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله ورسله وفرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتي من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقي .

والجاء بالمقابلات أدعى لرسوخها في الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين ، كل منهما في الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثاني قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتي بالمقابل للكافرين بالله ورسله : { والذين آمنوا . . . }

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (152)

ويؤكد الحق هنا على أمر واضح : هو : { وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ } وكلمة « أحد » في اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفردة ، ومرة يراد بها المثنى مذكراً أو المثنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا تكون « أحد » في هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : { يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتُكَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ } [ الأحزاب : 32 ] فكل كلمة أحد يستوي فيها المذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسله أو يفرقون بين الرسل : { أولئك هم الكافرون حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } . يقول الحق في هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم : { أولئك سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } فكل مقابل قد جاء معه حُكْمُهُ . ومن بعد ذلك يقول الحق : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ . . . }

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (153)

هذا خطأ منهم في السؤال ، وكان المفروض أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً . وقد حاول المشركون في مكة أن يجدوا في القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن القرآن عظيم ولكن الآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ } [ الزخرف : 31 ]

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترفوا بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرباً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخيراً قالوا : { لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ } .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذي نزل؟ إذن . فالآفة - عندهم - أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [ النساء : 54 ]

لأن قولهم لا يتسم أبداً بالموضوعية ، بل كل كلامهم بُعِدَ عن الحق وتخط . لقد قالوا مرة عن القرآن : إنه سحر ، وعندما سأهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجدوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علقوا المعلقات على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخبط . إذن فالمسألة كلها تنحصر في رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحججة من تلايبيهم في شيء ، انتقلوا إلى شيء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وما داموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد؟ ولا بد أن هناك معنى خاصاً وراء قوله الحق : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ } . ونعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق في الآية نجدهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء؛ وكأنهم يريدون أن يعزلوا رسول الله وأن يكون الكلام مباشرة من الله لهم؛ لذلك يقول الحق في موقع آخر : { أَهُمْ يَفْسُحُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } [ الزخرف : 32 ]

الحق - إذن - قسم الأمور في الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون في مسألة الوحي وهو من رحمة الله : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ } . وهم قد نسبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إني نزلت ، بل قال : « أنزل علي » .

ويقال في رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حوله أرادوا أن ينزل الوحي على كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحي لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .  
 وَيَنْزِلُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ كِتَابًا بِهَذَا الشَّكْلِ الْخُصُوصِيِّ . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم التوراة ، ويوضح الله تسليمة لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تستكثرون منهم يا محمد أن يسألوك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم الغلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : { أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً } . وهم يمثل هذا القول تعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا تستكثرون عليهم مسألة طلبهم لنزول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } .  
 ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شيء يأتي من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقلنا من قبل أثناء خواطرنا حول آية في سورة البقرة : { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ } [

#### البقرة : 19 ]

أي أنهم يضعون أصابعهم في آذانهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت الصاعقة مزعج قد يخرق طبلة الأذن ، ودليل على أن ازعاج الصاعقة فوق طاقة الانسداد بأصبع واحدة؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ازعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أناملهم في آذانهم لم يمتنع الصوت المزعج .  
 إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتي من أعلى ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهلك وإما بنار تحرق وإما بريح تدمر { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لون من الظلم؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المدرك بالمدرك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشيء المدرك وحيثته بالتفصيل ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحس الإنسان الطعم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشيء المدرك إحاطة شاملة جامعة .

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهي العين محيطة بالله . وحين يحيط المدرك بالمدرك ، يقال قدر عليه . وهل ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن الجائز أن يرى الإنسان إنساناً ، ولكن لا يستقيم أبداً ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا؟ لأنه سبحانه القائل :

{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ { [ الأنعام : 103 ]

ومادام الله إلهاً قادراً فلن ينقلب إلى مقدر .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة ليحلها ، فهذا معناه أن فكرة قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها ففكره لم يقدر عليها . إذن فكل شيء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدركة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا ينقلب مقدوراً لما خلق . { فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ يُظْلِمُهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ { . وكان يكفي بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن جاوز الحق بهم البحر وعبره بهم تيسيراً عليهم

وتأييداً لهم وأراهم معجزة حقيقية ، بعد أن قالوا : { إِنَّا لَمُدْرِكُونَ { [ الشعراء : 61 ]

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم؛ لأن المنطق الطبيعي أن يدركهم فرعون ، وآتى الله سيدنا موسى إلهامات الوحي ، فقال : { قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ { [

الشعراء : 62 ]

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا في البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كله يتخذون العجل إلهاً!!

هكذا قابلوا جميل الله بالنكران والكفران . { ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا

عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا { والسلطان المبين الذي آتاه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الظاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق : { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ . . . {

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبِّ خَلْتٍ { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبِّ خَلْتٍ { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبِّ خَلْتٍ {

وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154)

إذن اجتزاؤهم في البداية كان في طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهي اتخاذهم العجل إلهاً . ويعالج الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك نتق الجبل فوقهم : { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ

ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ { [ الأعراف : 171 ]

مثل هؤلاء لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فيما ان يأخذوا ما

آتاهم الله بقوة وينفذوا المطلوب منهم ، وإما أن ينطبق عليهم الجبل ، وهكذا نرى أن كل

اقتناعهم نتيجة للأمر المادي ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ادْخُلُوا

الباب سُجَّدًا { . أي أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادي أيضاً . وكان هذا الباب الذي

أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا في الشام . { وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ } وسبحانه قال عنهم : { إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ } [ الأعراف : 163 ]

وكلمة « السبت » لها اشتقاق لغوي من « سبت » و « يسبت » أي سكن وهدأ . ويقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا } [ الفرقان : 47 ] أي جعل النوم سكناً لكم وقطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم . { وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ } أي نهاهم الله أن يصطادوا في يوم السبت . ويأتي يوم السبت فتأتيهم الحيتان مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهي تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . { وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ } أي أن الأيام التي يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتي لهم الأسماك ، ولذلك يحتالون ويصنعون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السمك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مراوغة بني إسرائيل . وفعل الله بهم كل ذلك ولكنهم احتالوا وتمردوا ورددوه ، وحين يهادن الحق القوم الذين يدعوهم إلى الإيمان فسبحانه يُقدِّر أنه خلقهم ويُقدر الغريزة البشرية التي قد يكون من الصعب أن تلين لأول داع ، فهو يدعوها مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر لنتعلم أن الله لا يمل حتى تملوا أيها البشر . فسبحانه يقول من بعد ذلك : { فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ . . . }

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلْتُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)

لقد نقضوا كل المواثيق والأشياء التي تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد الموثق . ونقض الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا بآيات الله التي أنزلها لتؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا - تعليلاً لذلك - أن قلوبهم غلْفٌ لا تسمع للدعوى الإيمانية ، أي أن قلوبهم مغلّفة مغطاة أي جعل عليها غلافٌ ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ولا يدخل فيها إيمان . وسبق أن تقدم مثل هذا في قول الحق : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [ البقرة : 6-7 ]

ونقول : أهي القلوب خُلقت غلْفاً . . أي أن القلوب خلقت محتوماً عليها بحيث لا يدخلها

هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم الغلاف؟  
وسبحانه أوضح في آيتي سورة البقرة أنه جل وعلا الذي ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى  
أبصارهم غشاوة . فالختم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين  
والعقائد . والختم على الأسماع والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل البيّنات على وجود  
الحق الأعلى؛ فمقر العقائد محتوم عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة  
، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء؟ لا؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين فلماذا خصّهم الله  
بذلك التكوين؟ ولماذا لم يكن الذين اهدوا محتوماً لا على قلوبهم ولا على أسماعهم ولا على  
أبصارهم؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقتي الله  
هكذا » وهذا قول مزيف وكاذب؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق  
تركه الله على حاله؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك  
وليس لله . إذن فالختم جاء كنتيجة للكفر .

وقدمت آيات سورة البقرة الحثيثة : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتي الختم على القلب والسمع  
والبصر نتيجة لذلك . وهنا في آية سورة النساء : { وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا  
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } . فالكفر جاء أولاً ، وفي ذلك رد على أي إنسان يقول : « إن  
الله لا يهديني » . ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدي من كفر به ، وكذلك الفاسق أو الظالم ، والمثال  
الأكبر على ذلك إبليس الذي كفر أولاً . وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .  
ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : { فَبِمَا نَقُضِهِمْ } لأن الفهم السطحي لأصول الأسلوب قد  
يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة .

ونقول : إياك أن تقول إن في كلام الله حرفاً زائداً؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده  
ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا  
جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن في هذا العصر نعيش كأمة بلاغتها مصنوعة ، ولا نملك  
اللسان العربي المطبوع . ولولا أننا تعلمنا العربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربي الفصيح  
الذي نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يتلق العلم بأن  
الفاعل مرفوع والمفعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعته وملكته .

أما نحن فنعيش في زمن مختلف . وطغت علينا العجمة وامتألت آذاننا باللحن ، وصرنا نُعلم  
أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد في النحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التي كانت بغير تعليم .  
واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والمثنى يُرفع بالألف ، وجمع المذكر

السالم يُرفع ب « الواو »؛ وهكذا أخذنا القواعد من الذين لا قواعد لهم بل كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربي قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : { فَبِمَا نَقُضِهِمْ } ولم ينتبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك واحدة تخرج عن المؤلف في اللغة لصرخوا بها وأعلنوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغهم به ، موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته؛ مع أنكم عرب وفصحاء . والمتحدثى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن في القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآني يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : { فَبِمَا نَقُضِهِمْ } هي في الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و « ما » جاءت هنا لماذا؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهي زائدة للتأكيد . ونكرر : إياك أن تقول إن في كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق في موقع آخر من القرآن يقول : { مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ } [ المائدة : 19 ]

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « من » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - عندما يقول واحد : « ما عندي مال » فهذا نفى أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قدراً من المال القليل الذي لا يستأهل أن يسميه مالاً .

ولكن إذا قال واحد : « ما عندي من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أي أنه مفلس تماماً ، ولا يملك أي شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتم أي رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقوله الحق : { فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ } أي بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة؟ السبب في ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أي أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقض العهد والميثاق له صور متعددة ف ( ما ) هنا استفهامية جاءت للتعجب أي على أيّة صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال : { فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } [ النساء : 155 ]

ولم يقل : فيما نقضتم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ،

طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمراً أضربنا عنه . فنحن نقول :  
جاءني زيد بل عمرو . أي أن القائل قد أخطأ ، فقال : « جاءني زيد » واستدرك لنفسه فقال :  
« بل عمرو » . وبذلك نفى مجيء زيد وأكد مجيء عمرو .

والحق قال : { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } . كان المقتضي في الأسلوب  
العادي أن يقول : « بكفرهم ويقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل  
ذلك لحكمة بالغة . وحتى نعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل ل « طبع الله على قلوبهم » ،  
المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : { فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ  
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا } .  
وهكذا نرى عظمة القرآن الذي يأتي بالمعنى الدقيق ويجب أن نفكر فيه وتندبر كل كلمة منه .  
الحق - إذن - يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله  
، ويقتلهم للأنبياء بغير حق؛ لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ، بل طبع الله على قلوبهم بالكفر .  
فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد . والأمر الذي نفاه الله عنهم أنه  
لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذي تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر .

وفي آية أخرى قال عنهم : { وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ } [ البقرة : 88 ]

فقلوبهم ليست غلفاً ، ولكن هي لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغناؤه عنهم؛ لذلك تركهم  
لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . ولماذا ذيل الحق الآية بقوله : { فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } ؟  
لأن المقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس ، وهو - كما عرفنا من  
قبل - « صيانة الاحتمال » . فقد يعلن واحد من هؤلاء إيمانه الذي خبأه في نفسه ، فكيف  
يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال عنهم جميعاً { وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } ؟  
إن الذي يَرَعِبُ في إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب مفتوحاً ، ولكن عندما يجد الحق قد قال :  
{ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } فهو يعلم أن باب الإيمان مفتوح للجميع . وبعد ذلك يقول الحق : {  
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ . . . } .

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِّمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)

ويقول قائل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله على قلوبهم؟  
إياك أن تقول إن هناك كلمة في القرآن مكررة لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذي لا  
ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة

يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسول ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبيين ،  
 وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فألوان الكفر شتى . والكفر في الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم في هذه الآية  
 فالحق يشرحه : { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } . لقد كفروا بعيسى عليه السلام ،  
 وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله .

وقوله الحق : « وبكفرهم » هو عطف على « نقضهم » وعلى « كفرهم بآيات الله » وعلى «  
 قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التي جاءت  
 في أول الآية السابقة حين قال : { فَبِمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ } .

وهذا يدل على أننا أمام مناهج الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفي ارتكابهم لأي  
 واحدة من هذه الأعمال المذكورة لكي يطبع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال  
 المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يتصيد ويحتال ليقومهم  
 في الكفر ولكن يحنن العباد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ،  
 وادعوا أن الله طبع على قلوبهم .

وحين جعل هذا الأفعال الأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى : { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } وهنا نجد أنه  
 سبحانه قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة؛ لأنهم اعترضوا على  
 رسالة ونبوة عيسى عليه السلام وهو نبي من أولي العزم من الرسل بأشياء قد تكون ضمن  
 الأسباب التي فتنت بعض الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً . فسبحانه خلق الناس جميعاً  
 من آدم عليه السلام الذي صوره الله من طين ثم نفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج .  
 أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم  
 عليها السلام وهي البتول؟ .

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترمى وتوصف بكل شيء : كاذبة ، سارقة ، أو دميمة ، لكن الاتهام  
 في العرض : لا . والحق هنا يحدد موضوعين للكفر : قولهم البهتان على مريم وهو كفر بالله ،  
 وكفرهم بعيسى الذي جاء بميلاد على غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له  
 ولذع لليهود الذين غرقوا في المادية حتى إنهم قالوا : ( أرنا الله جهرة ) .

بل إن الحق رزقهم برزق غيبي لا يعرفون أسبابه : في التيه رزقهم بالمن والسلوى ، والمن في لون  
 القشدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق الشجر في بعض النباتات ، والسلوى  
 طائر يشبه السُّماني ، وكانوا يأخذون المن من الأشجار ويجعلونه رزقاً يأتيهم ولا يزرعون ولا

يتعبون فيه . لكنهم قالوا : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضمن علينا . { فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا } [ البقرة : 61 ]  
هم - إذن - لا يثقون بما في يد الله ، ويريدون الأمر المادي ، ولذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى لفتنة قسرية ، ويأتي بأمر يناقض قانون المادة من أساسه؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقليدي ، والإنسان يأتي إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتي الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كماديين غفلوا عن الخلق الأول : { أَفَعَبَّيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ ق : 15 ]

إذن فلماذا الفتنة في عيسى عليه السلام؟ . لقد نقض أمامهم الأساس التقليدي المادي لمجيء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه طلاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مُسَبَّباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مُسَبَّبُ الأسباب وخالقها وهو القادر - وحده - على إيجاد الشيء بتنحية كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على اربعة أنحاء ، إما أن ينشأ الشيء من وجود الشينين ، هذه هي الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشيء من عدم وجود الشينين وهذه هي الصورة الثانية . وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول وعدم وجود الشيء الثاني ، وهذه هي الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثاني مع عدم وجود الشيء الأول ، وهذه هي الصورة الرابعة .

تلك هي الصور الأربع لوجود شيء ما . ولم يشأ الله أن يجعل الخلق - وهو الإنسان المكرم الذي سخر له الحق كل ما في الكون - على نحو واحد؛ حتى لا يقولن أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بل المسبب هو المشروط في الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هي القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موجودة ، ولكن قيمة واقتدار واجد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الاثنان عقيمين فهو القائل : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ \* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا }  
{

## [ الشورى : 49-50 ]

إذن فليست المسألة مدار أسباب تُوجد ، بل مسبب يريد أن يُوجد ، وأراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بني إسرائيل لعلهم يخرجون من ضلالات المادية ، فأوجده من أم دون أب ، فكان هذا آية على طلاقه قدرته ، ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالا على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقفوا أمام رسالته بعنف ، والذي يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم في استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضي الرجم للزانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة؟ ولماذا انتظروا إلى أن يجيء عيسى عليه السلام بالإنجيل ليقولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلاً على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط؛ لأن ما حدث أمر فوق منطقتها ، وجهزها الله لهذا الموقف؟ ، وأمرها بالصمت عندما يسألونها ، وأن تشير إلى المولود الذي في المهد : { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا \* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا \* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا } [ مريم : 29-31 ]

وانبهروا انبهاراً فتت فيهم القوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانهيار ، فألحق أبلج ، والباطل لجلج . إذن كان الأمر بيدهم وفي توراتهم أن من يزن يرحم ، فلماذا لم يرحموا أم عيسى إذن؟ . لا بد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، المعجزة الباهرة هي كلام عيسى ابن مريم في المهد : { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } وجعلت المفاجأة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط نريد أن يتضح منطوق الإيمان في عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآنا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجروا أحد أن يميل به .

{ وَكُفِّرْهُمْ وَقُوهُمْ عَلَى مَرِّمْ بُهْتَانًا عَظِيمًا } ونحن كمسلمين نستنكف أن نقول ما قالوه من بهتان على مريم البتول ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول قائل عن رجل ورع : إنه شرب الخمر ، والقائل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحير ويتعجب من يسمعه؛ وهذا هو البهتان . ولم يستح ويمتنع اليهود حينما رموا مريم - الطاهرة بأمر الله - بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضي مريم ناصعاً؛ لأنه جرح مريم في عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بني إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبي المولود بعد موسى من بطنها . وكانوا يعرفون أن النبي القادم من بعد موسى ستلده عذراء ، وأبلغ بنو إسرائيل بناهم بكيفية مجيء النبي القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [ البقرة : 89 ]

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التي تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت ب « كن » من الله ، ولم يجعل الله المسألة سراً عن مريم فتحمل بأمر قوله : « كن » دون أن تدري ، لا . بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم ونفخ فيها بالحمل . وعرفت هي السبب مادياً بالملك والنفخ حتى لا تتهم أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهي نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليجعلها أمراً يقطع الشك لديها ، وهي التي بُشرت به - إيناساً لها - عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكفيل لها والذي يأتيها بالطعام ودخل عليها الخراب فوجد عندها الرزق وسألها : { أُنَى لَكَ هَذَا } أجابت : { هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [ آل عمران : 37 ]

لقد نطقت مريم البتول من قبل : { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ومن الحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بالولد ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها في هذا القول نهت زكريا إلى قضية كانت في بؤرة شعوره؛ ولذلك يقول الحق : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ \* فَتَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْخَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ \* قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } [ آل عمران : 38-40 ]

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمئن إحساس مريم أن ولادتها لعيسى عليه السلام إنما جاءت ب « كن » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف في الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } تنبه ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امرأته عاقرة ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتياً؛ أي أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب .

وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنياً لكثير من قضايا العلم : { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا } [ مريم : 4 ]

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتيا . ويثبت العلم الحديث أن العظام هي آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التي في جسده تغذية . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوّن لتسعين في المائة من وزنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال في المثل العربي : سنة اذابت الشحم ، وسنة أفنت اللحم ، وسنة محت العظم .

فكأن البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم . وهذه هي التي جاءت على لسان سيدنا زكريا : { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي } . فآخر مخزن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب . وما الذي يغذيه العظم من الجسم؟ إنه يغذي المخ ، وهو السيد الأعلى الذي يدير كل جارحة في الجسم ، وتعمل كل جارحة في خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره في خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، وما دام المخ موجوداً ، فكل شيء يتم تعويضه .

ولذلك يحاولون - الآن - تعريف الموت طبيياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية؛ فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان في أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما النبات فسيده في الجذور . وإن لم تجد الجذور مياها تذيب بها العناصر في الأرض فالنبات يأخذ غذاءه من الورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك القروع وتجف ولا ينقذ النبات إلا محيء بعض الماء للجذور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان .

فكأن مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه : { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القضية نطقتم بها مريم وتمت تجربتها في سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم : { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ \* وَكَلِّمِ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ } [ آل عمران : 45-46 ] كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هي : { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا } [ آل عمران : 47 ]

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعني أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه ما نسبه إليها إلا لأنه لا أب له .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ . . . } .

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ  
الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157)

ونلاحظ أن الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق : { فِيمَا نَقُضِهِمْ مَبِثَّاقَهُمْ  
وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا  
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } [ النساء : 155-156 ]  
ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ  
رَسُولَ اللَّهِ } وأكثر ما يدهش في هذا القول هو كلمة { رَسُولَ اللَّهِ } ، فهل هي هنا من قوهم؟  
إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل  
وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة {  
رَسُولَ اللَّهِ } هنا في هذه الآية ليست من مقوهم الحقيقي وإنما من مقوهم التهكمي .  
وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . كأن يأتي شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتي له  
شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوي فيكم . إذن قد يكون  
قوهم : { رَسُولَ اللَّهِ } هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة { رَسُولَ اللَّهِ } هنا هي من قول الحق  
سبحانه وتعالى مضافاً إلى قوهم ليبشع عملهم .

« وَقَوْلِهِمْ : { إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ } فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى  
ابن مريم إلا مرتبطاً أو موصوفاً بقوله : { رَسُولَ اللَّهِ } لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم  
رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام في مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم  
بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلب  
الناس على قتله قبل أن يؤدي مهمته . وجاء بكلمة { رَسُولَ اللَّهِ } هنا كمقدمة ليلتفت الذهن  
إلى أن ما قالوه هو الكذب .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ } . وكلمة « وما صلبوه » هنا هي  
لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا  
ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح  
وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب .  
ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بني إسرائيل بضجة ، فعلى  
رغم علمهم خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناقتهم الاستشراق أن  
يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان في مريم التي اصطفاها  
الله .

وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً في رسالة السيد المسيح يدلنا على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بني إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضاً بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه في النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد في حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى في الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهي بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ } وكلمة { شُبِّهَ لَهُمْ } هذه هي دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التبين من المتربصين القتلة . ونعلم أن الحوارين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رءوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : { وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ } أي أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات في كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هي باب في باب ، وفي البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفي سقف يسمح بمرور الأفراد ، وفي سقف البيت توجد فتحة وكوة اسمها ( روزنة ) أو ( ناروظة ) . فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القوم « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُلقى عليه شبيهي وله الجنة؟ فماذا إذن يريد الحواري لنفسه أكثر من الجنة؟ وقدم

عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأي مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » .

فألقي شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .  
وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفِع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا نبي الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى؟ فتيقظت ملكة التوبة في نفس الذي وشى بعيسى وقادة تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل؛ لأن مشهد المتربصين يوحي أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذي اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآنا الذي نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها آمنة ، لا . نحن نؤمن أولاً بمُنزَل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إن البحث في هذا الأمر لا يعيننا في شيء ، ويكفيانا أن الحق سبحانه وتعالى قال : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } . ويدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع في مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك في أية حادثة تحدث مع وجود أعدادا كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه في زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التي نراها في زماننا؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات في تلك الحادثة أمر وارد ، ويكفيانا أن الحق سبحانه وتعالى قال : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ } .

فبعيسى باق؛ لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء؛ لأن المبدأ - مبدأ وجود بشر في السماء - قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه عُرِج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل

الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لا يزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد .

والخلاف يكون في المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأ ، سواء صعد وبقي في السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك في هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذي زاد من العقائد وما الذي نقص؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآني : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [ الإسراء : 1 ]

ولم يقل الحق أي قول في أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان في الطريق قوافل لهم رأها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بما الحق صريحة فقال : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأي سدرة المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التي يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول؛ لأن الإنسان إن اعتقد بما فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بما لا يؤثر في أصل العقيدة ، ولأ في أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بما جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بما نالنا العقاب { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } ، فكيف لا يفوضه في أن يقول لنا بعضاً من الأخبار؟!

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وذكره البخاري في صحيحه أنه قال :

« والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : « أقرأوا إن شئتم » وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال : { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْكِتَابَكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [ آل عمران : 55 ] وقد شرحنا من قبل في خواطرننا عن سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و « رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضي الترتيب؟ إن « واو العطف » تقتضي الجمع فقط كقولنا : « جاءني زيد وعمرو » ، هذا يعني أن زيداً جاء مع عمرو . أو ان زيداً جاء أولاً ، أو أن عمرأ جاء أولاً وتبعه زيد ، ف « الواو » لا تقتضي الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن قلنا « جاءني زيد فعمرو » فزيد هو الذي جاء أولاً وتبعه عمرو؛ لأن « الفاء » تقتضي الترتيب ، أما « الواو » فتأتي لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفي قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل في القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ } [ الأحزاب : 7 ]

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب؟ لا؛ لأن نوحاً متقدماً جداً في الموكب الرسالي وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون . إذن ف « الواو » لا تقتضي الترتيب في الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق : { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون ومركب من مادة وفي داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهي حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض في البينة ، ويموت حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب إنساناً إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل في جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلي وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أي نقض لبنيتك أو هدم لها أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً . ف « متوفيك » تعني الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل . ونحن - كما عرفنا من قبل - نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تُقبض الروح حتف الأنف

، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق في كتابه الكريم قال : {  
أَفِإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ } [ آل عمران : 144 ]

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إَنَّهُمْ قَتَلُوا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَذِبًا وَقَالَ : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا  
صَلَبُوهُ } . ورفع الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ  
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا } .  
ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أَنَّهُمْ قَتَلُوا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، ولكنهم شكوا فيمن قُتِلَ ،  
فلم يعرف المتريصون لقتله أَقْتَلُوا عِيسَى أَوْ تَطْيَانُوسَ أَوْ سَرْخَسَ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى ابن مريم قال :  
{ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ } . والنسبة الأولى  
المذكورة هنا هي الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هي اتباعهم للظن ،  
وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهي الحق ذلك بعلم يقيني { وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا } وسبحانه ينفي بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين  
- كما نعلم - هو الأمر الثابت المعقود في الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش  
من جديد أو يتغير ، وله مراحل هي : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها  
عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ، واسمها حق اليقين .

وعندما يجبرنا واحد من الناس أن جزءاً من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هي  
جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر  
ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم يرَ نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً؛  
لأن الذي أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجهه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولي  
السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم يقين » إلى « عين اليقين » . وإن  
جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به في كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو «  
حق اليقين »

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم  
اليقين » .

وحينما عرض سبحانه المسألة قال : { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* كَلَّا لَوْ

تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ \* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ \* ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } [ التكاثر : 3-7 ]

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم  
على الصراط النار وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت  
عنه الحق؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة .

والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتي « حق اليقين » في موضع آخر من القرآن الكريم : { وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ \* فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ \* وَتَصْلِيئُهُ جَحِيمٍ \* إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } [ الواقعة : 92-95 ]

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعاني من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : { وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا } يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا في ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذي عرف حقيقة اليقين . والذي حدث هو ما يلي : { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ . . . }

### بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)

لقد رفعه العزيز الذي لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوي الشديد الذي لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة . ويقول الحق من بعد ذلك : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . . }

### وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)

و « إن » هنا هي « إن » النافية ، وهي غير « إن » الشرطية . وإليكم هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق : { الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنِ نَسَأْتِهِمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ } [ المجادلة : 2 ]

يصحح الحق هنا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت علي كظهر أمي » ، فيقول سبحانه : { إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } [ المجادلة : 2 ]

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدتهن . و « إن » في هذه الآية التي نحن بصدد خواتمنا الآن عنها هي « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر في هذه الآية؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء في آخر قوله « موته »؟ هل هو موت عيسى أو موت أي واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالاتي : لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا

بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت . فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق : { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ } [ فاطر : 11 ]

والمعمر هو الإنسان الذي طعن في السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمر إلا كما أراد الله ، والهاء في « عمره » تعود إلى بعض من المعمر . ذلك أن كلمة « معمر » مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و « عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان؟ مثل قوله الحق : { رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [ الرعد : 2 ] هنا نجد مرجعين : « السماء » و « العمدة » فعلى أي منهما تعود الهاء الموجودة في كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثاني وهو « العمدة »؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات .

. أي خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمدة . أي بغير العمدة التي نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات { بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } أي أن العمدة محتفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن ينسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التي نحن بصدددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيهما ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب؟ وأي منهما الذي يرجع على عيسى ، وأي منهما الذي يرجع على أهل الكتاب؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أي إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلي عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود في مسألة القتل والصلب؟ هم معذورون في ذلك؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنئذ . وقوله : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ } يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجب أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتي الإسلام ليبرئ عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئه منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام في هذه القضية { ولكن شُبِّهَ هُمْ } وكان يجب لأن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : { بل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ } النصراني يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فُتِنَ فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجري عليه قدر الله في خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون في هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجبية خرقت النواميس لأنه وُلِدَ من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجبية في الميلاد ، فلماذا لا تصدقون العجبية في مسألة الرفع؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون في نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام؟ أصعد إلى السماء معروفاً به إليها؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء .

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة في السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة في أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حي ثم ينزل إلى الأرض وهو حيّ ليس عجبية .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف في المدة . وهذا لا ينقض المبدأ؛ فالمهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول

الحق : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } [ النساء : 159 ]

السامع السطحي لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا ، لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث - الآب والابن وروح القدس - ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشراً وعبداً .

وإذ قال الحق : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً } فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير في قوله : { إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ } يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود في { قَبْلَ مَوْتِهِ } قد يرجع إلى عيسى أي قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التي تنهي أجله في الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه

ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون في أنكم أنكرتم بشارتي بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون في اتهامكم لأمي ، والدليل على خطئكم هو أنني جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلي خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتي عيسى - عليه السلام - بتشريع جديد بل ليصلي خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه؟ . لاشك أنهم سيعلمون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابي من الذين عاشوا في المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلمن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد قبل أن يموت ولو في غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الحلقوم وتترد في الحلق عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } ويعود الضمير فيها إلى كل كتابي قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شيء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه في هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسي . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه؟ لا؛ لأن مثله في ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق : { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [ يونس : 90 ]

فيسمع صوت الحق في تلك اللحظة : { آ لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [ يونس : 91 ]

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول - سبحانه - : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [ النساء : 18 ]

ويذيل الحق الآية : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله في الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالالوهية : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أُنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [ المائدة : 116 ]

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول : { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ . . . }

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160)

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل جاء نتيجة لمواقف يعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ، وصدوا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا في الإسلام .

وتستمر الحثيات للتحريم لبعض الطيبات لتزيد على هذين الموقفين : { وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا . . . } .

وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا  
(161)

وأى ظلم يتحدث عنه الحق في قوله : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } ؟ . الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذي الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن الله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه : { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [ لقمان : 13 ]

وحيثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبني إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلل؛ فاختم قليل ، وبقيّة ما لم يذكره الله إنما يدخل في نطاق الحلال .

مثال ذلك قوله الحق : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوالدين إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ \* وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [ الأنعام : 151-152 ]

يورد الحق هنا المحرمات وهي أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . وتحريم القليل جاء لتبقى كل نعمة في مجالها .

فإذا قال الإنسان : حرم الله هذا الشيء لأنه ضار نقول : ما تقوله جائز ، ولكن ليس الضرر هو سبب الحكم لكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . - والله المثل الأعلى - نرى المستنول عن تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لونهاً من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم؟ . لقد جاءوا من خلف منهج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وماداموا قد زاغوا فأحلوا ما حرم الله فالحق يرد عليهم : لقد اجتزأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقي أن أحرم عليكم ما أحللت لكم من قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يغلب الله . ولذلك يحرم

سبحانه عليه شيئاً من حلاله .

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورة . نجد الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول محرّمات كالخمر - مثلاً - يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تهرأ كبديك وصار من الممنوع عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا نرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكله فوق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حقي . وعطلت في جسدك القدرة على حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن تتناول السكريات مرة أخرى . ويشتهي المريض السكر والحلوى ويملك القدرة على شرائهما ، ولكنها محرمة عليه ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت ما أحللت لك .

وآخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالي من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله بينما الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له سنة الله : ستأكل الخبز المصنوع من النخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرفت على نفسك في أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعاياك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمتنا ما أحل لك .

وعندما نرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التي هي حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرّمه الله عليه ، أو أسرف في استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يفلت من رقابة الله . إذن فالتحريم قد يكون بالتشريع ، إذا كانت العقوبة التحريم من المشرع ، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة إن كان في الأمر إسراف من النفس .

ولنقرأ دائماً هذه الآية : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد ما لهم ، لماذا تريدون المال؟ . أتريدون المال لذات المال؛ أم لهدف آخر؟ . صحيح أن المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر؛ لأنه يشتري به الأشياء التي ينتفع بها الإنسان ، وهي الرزق المباشر . وقلنا قديماً : هب أن إنساناً في صحراء ومعه جبل من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب في مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغيّف الخبز وكوب الماء في تلك الحالة أغلى من الذهب . والذي يزيد ماله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع؟ . سبحانه يحق ذلك المال ويذهب في كوارث . ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتي أجله فعليه ألا يبيح لنفسه أي شيء حرّمه الله . وبذلك يظل متمتعاً بنعم الله عليه . فالحق هو القائل : { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } .

الإنسان - إذن - هو الذي يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً  
ولكن الناس أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [ يونس : 44 ]  
وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فحرم الله عليهم طيبات أُحِلَّت لهم . ومن الذي نقل الأمر الطيب  
إلى أمر غير طيب؟ .

إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشيء أو حكم الشيء؟ . لقد نقل حكم الشيء ، فجعل  
الشيء الحرام شيئاً حلالاً . { فَيَظْلِمُ مَنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ  
عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } .

كيف يكون باستطاعتهم الصد عن سبيل الله؟ . لقد ظلموا أنفسهم وأخذوا الربا وتلك أمور  
تجعلهم في ناحية الضلال وفي جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا . بل أرادوا أيضاً  
إضلال غيرهم ، وهذا هو مضمون الصد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحاب وزر آخر  
فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحملوا أوزار إضلال غيرهم . { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ } [ النحل : 25 ]  
وقد يسمع متشكك هذا القول . فيتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ  
وِزْرَ أُخْرَى } [ الأنعام : 164 ]

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره  
، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق في تكملة ظلمهم لأنفسهم : { وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ  
بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ،  
وهو أكل مال الناس بالباطل؛ وكذلك السرقة ، والغش في السلع ، كل ذلك أخذ مال من  
الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم مسبقاً عذاباً أليماً . ولكل  
إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قُدِّرَ إيمانه ، ومقعد من النار إن قُدِّرَ كفره ، ولا مجال للظن  
بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس  
مؤمنون ، وجعل مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق : { الَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [ المؤمنون : 11 ]  
وحين يتبوأ المؤمن مقعده في الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذي أعده للكافر؛ فقد كان للكافر  
قبل أن يكفر مقعداً في الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أي الشديد  
إيلامه ، وهو مهين أيضاً أي أن في قدرته قهر أي إنسان يتجلد للشدة ، فلا أحد يقدر على  
الجلد أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب؟ . ألم يوجد في أهل الكتاب من كان يدير مسألة

برسول الله صلى الله عليه وسلم في عقله ، ويبحث في القضايا والسماوات التي جاءت مباشرة به صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل؟ . كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين في العلم فيقول : { لكن الراسخون { . . . }

لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)

إذن لم يعمم الله الحكم على أهل الكتاب ، الذي سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثال لذلك « عبدالله بن سلام » الذي أدار مسألة الإيمان برسول الله في رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت . فقال لرسول الله : إني أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتي لابني ومعرفتي لحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : { الذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } . ولا أحد يتوه عن معرفة ابنه؛ كذلك الراسخون في العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ في العلم هو الثابت على إيمانه لا يتزحزح عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفائي في اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .  
{ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك } ، وقوله الحق : { بما أنزل إليك } هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لا بد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوبي سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتي من قول الحق : { والمقيمِينَ الصلاة } فقد بدأ الحق الآية : { لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمِينَ الصلاة } .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمِينَ » جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمي علماء اللغة هذا الأمر بـ « كسر الإعراب »؛ لأن الإعراب يقتضي حكماً ، وهنا نلتفت لكسر الحكم . والأذن العربية التي نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنتبه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربي لحناً في اللغة فهو يفرح . وكلنا يعرف قصة العربي الذي سمع خليفة من الخلفاء يخطب ، فلحن الخليفة لحنه فصراً الأعرابي أذنيه ، أي جعل أصابعه خلف أذنيه يديرهما وينصبهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنه أخرى ، فهب الأعرابي واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابي : أشهد أنك وُلِّيت هذا الأمر بقضاء وقدر . وكأنه يريد أن

يقول : « أنت لا تستحق أن تكون في هذه المكانة » .

وعندما تأتي آية في الكتاب الذي يتحدى الفصحاء وفيها كسر في الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا : كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السرّ في كسر الإعراب الذي يلفت به الحق كل نفس إلى استحضر الوعي بهذه القضية التي يجب أن يقف الذهن عندها : { والمقيمين الصلاة } .

لماذا؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العماد الأساسي في أركان الإسلام؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناهج تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن يقولها المسلم مرة واحدة في العمر ، والصوم شهر في العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسي للدين . ولذلك نجد هذا القول الكريم : { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ } [ المدثر : 42-43 ]

وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة وهي واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . وحين يقول الحق : { والمقيمين الصلاة } . يلفت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله؛ فهم قد يؤدّون الله شهراً في السنة بالصيام ، أو يؤدّون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو مال ، أو يؤدّون الله فقط إن استطاعوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يؤدّ المؤمن ربّه كل يوم خمس مرات ، هي - إذن - إعلان دائم للولاء لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نركي بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت؛ والإنسان حين يصلي يُركي بالوقت . والإنسان حين يصلي يصوم عن كل المحللات له؛ ففي الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام في كل صلاة فكأنه في حج .

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : { والمقيمين الصلاة } إنما جاء ليلفتنا إلى أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح . - فهي منصوبة على الاختصاص - ويخص به الحق المقيمين الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء في أي حال من أحوال المسلم ولا في أي زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل . ويقول الحق من بعد ذلك : { والمؤتوتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر } كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان - كما نعلم - بين قوسين : القوس الأول : أن يؤمن الإنسان بقيمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثاني : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التي نصير إليها وهي اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاء هؤلاء : { أولئك

سُنُّوتِهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا } هو أجر عظيم؛ لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف المتأبى والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليبيّن صدق القرآن في أن الإعلام بالرسول قد سبق وجاء في التوراة .  
ومن بعد ذلك يقول الحق : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا . . . }

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163)

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتي بضمير التكلم . وضمير التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة : « إنا » ومرة ثانية : « إني » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا } . ونشاهد في موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق : { إني أنا الله لا إله إلا أنا } [ طه : 14 ]

وفي موضع ثالث يقول : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [ الحجر : 9 ]  
لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتنزيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يجلي مواقع الصفات من الكون الذي نعيش فيه . والكون الذي نعيش فيه يمتلئ بالكائنات التي تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتاجت إلى الكثير لنهيه للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتي إلى الكون ليجد نعم الله له؛ فالإنسان هو الذي طرأ على كون الله .

هذا الكون الذي صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شيء في مكانه ، ولقدرة تبرزه ، وإلى غنى بخزائنه حتى يفيض على هذا الموقع بخير يختلف عن خير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً لمجالات صفات متعددة من صفات الحق ، يقول سبحانه : « إن » أو « نحن » . وعندما يأتي الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى يقول : « إني أنا الله » . ولا تأتي في هذه الحالة « إِنَّا » ولا تأتي « نحن » .  
والحق هنا يقول : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } أي أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً في الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضي علماً وحكمة وقدرة ورحمة؛ لذلك فالوحي يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرّة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا } [ فاطر : 27 ]

هو الذي أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أي دخل في هذا؛ لأن الماء إنما يتبخر دون أن يدري الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البخار ، ثم ينزل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر؛ لذلك يقول الحق : {

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً { . ويأتي من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق ، فيقول : { فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا { . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون في نعمه بالعقول التي خلقها لهم ، فسبحانه يقدر عمل الخلق من حرث وبذر وري وذلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآني حين يأتي ب « إني » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتي ب « إننا » يشير إلى تجمع صفات الكمال؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضي حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهاريةً ورحمانيةً؛ لذلك لا بد من ضمير التعظيم الذي يقول فيه النحويون : إن « نحن » و « ن » للمعظم نفسه .

وقد عظم الحق نفسه؛ لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذي لمخوا جلال الله في ذاته وجماله في صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة ... تعالى جلالاً أن يحاط بذاته

إذا قال « إني » ذاك وحدة قدسه ... وإن قال « إننا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلهم يعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون لمن أقدره سبحانه من خلقه فيه فعل ، فهو يأتي بنون التعظيم لأنه - سبحانه - هو الذي أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً؛ ولكن هناك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة . فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلق أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما ضَنَّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال : { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ { [ المؤمنون : 14 ]

فكأنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كَوَّنوا مركباً من موجود في مواده . فأخذوا من مواد خلقها الله فركبوا وأوجدوا . والإنسان الذي صنع كوب الماء لم ينشئ الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » في الكوب غير موجودة فجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود في بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والعقل الذي يأخذ تلك العناصر ، والفكر الذي يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التي تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالفارق - إذن - بين خلق الله وخلق خلق الله؛ أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ { .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله؛ فهو سبحانه وتعالى

أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بُدَّ من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق - كما قلنا وأنا لا أزال أكررها لتستقر ثابتة في الأذهان - يجمد الشيء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً في حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعاً معاً وينشأ أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفخ بسرّ الحياة في كل شيء فيوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شيء في الوجود لوجدت فيه سرّ الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إدراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً ولمساً وذوقاً ولكن لبعض الآلات تحكم في اختيارك ، فأنت حين تفتح عينيك ترى وإن لم يرد أن ترى تغمض عينيك . ولكن إذا أردت الا تسمع ، أتستطيع أن تجعل في أذنك آلة تقول « لا أسمع »؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتتذوق ، ولكن أنت لا تفتح أنفك لتشم . أنت تمد يدك لتلمس . وقل لي بالله أي انفعال لك أن أردت أن تضحك؟ ما الآلة التي في بدنك تحركها لتضحك؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً مثيراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هي الآلات التي تعمل في جسمك لتضحك . وكذلك حينما تبكي ما هي الآلات التي تعمل في ذاتك لتجعلك باكياً؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحك والإبكاء مع الإيجاد بالحياة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى . { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى \* وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [ النجم : 43-44 ]

جعل الحق في ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأي شيء تفعل ولا بأي شيء تنفعل . والأذن ليس لها ما يسدها عن السمع؛ لذلك لا يأمرك الحق بالألا تسمع أي شيء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : ( لا تتسمع إلى القبيلة ) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلا قبيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يصم أذنيه عما يدور حوله ، لكنه يستطيع ألا يتسمع بالألا يلقي بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف في مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [ الأنعام : 68 ]

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الذين يخوضون في آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسبروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائضين . وسبحانه يوضح لنا ما خفي عنا ، وكل شيء في الكون وإن كان ظاهره أنه « يفعل » ، لكنه في الحقيقة هو مقهور لما يفعل لمرات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفون بالله : من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذي يفعل كل شيء ، وليس على الإنسان إلا توجيه الآلة الفاعلة . ومن عظمة

الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطي قوته لضعيف ، فلا أحد منا يقول لضعيف : خذ قدرًا من قوتي لتساعدك على التحمل ، بينما يوضح الله للضعيف عملياً : تعال إلي أعطك من مطلق قدرتي قدرًا من القوة لتفعل .

إذن القوة في المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطي أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يحمل شيئاً ثقيلاً ، فيأتي آخر قوياً ليحمله عنه ، والقوي بفعله إنما يعدي أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشيء الثقيل . والله لا يعدي أثر قوته فحسب ولكنه يمنح ويعطي قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوي أيضاً . وسبحانه يتفضل بالغنى والسعة لكل غني وفقير وبرحمته إلى كل رحيم ، وبقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا في « إننا » .

وحين يتكلم الحق قائلاً : « أوحينا » فهو سبحانه يأتي بصيغة الجمع . وما الوحي؟ قال العلماء الوحي : إعلام بخفاء؛ لأن وسائل الإعلام شتى ، وسائل الإعلام هي التي تنقل قولاً يقوله المبلِّغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرائي . وهذه إعلانات ليست بخفاء . بل بوضوح ، وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعني أنه قد أعلم ، ولكن بطريق خفي . وحين تطلق كلمة « وحي » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحي . لكن من الذي أوحى في خفاء؟ ومن الذي أوحى إليه في خفاء؟ وما الذي أوحى به في خفاء؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء في أجناس الوجود ، وقال عن الأرض وهي الجماد : { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا \* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا \* وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا \* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا \* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا } [ الزلزلة : 1-5 ] أي أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتحدث عندئذ - والله المثل الأعلى - نحن نقدر العمر الافتراضي لما نصنع لينتهي في وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجماد وهي الأرض .

ويترك لنا سبحانه في صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صنعة الخالق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ في الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعتد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس في الوقت المحدد ، كأن الإنسان بهذا الفعل قد أوحى للمنبه ، كذلك الحق صنع الأرض وأوحى لها : في الوقت المحدد ستنفجرين بحكم تكويني لك . ويوحى الحق إلى جنس الحيوان : { وأوحى ربُّكَ إلى النحل أن اتخذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [ النحل : 68 ]

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل . فقد جعل الله في تكوينها الغرزي ما يؤدي إلى ذلك . وهناك فرق بين التكوين الغرزي والتكوين الاختياري؛ فالتكوين الغرزي يسير بنظام آلي لا يعدل عنه ،

أما التكوين الاختياري فيصح أن يعدل عنه .

ومثال آخر عللالية نجد الحاسب الآلي المسمى العقلي الإلكتروني ويقوم الإنسان بتخزين المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلي لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كيفية استدعائها .

فلا اختيار للحاسب الآلي .

ويختلف الوضع في العقل البشري الذي يتميز بالقدرة على انتقاء المعلومات ويعرف كيف يدلي بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعي فيما يجب أن يُستر وفيما لا يجب ستره ، بل إن العقل البشري قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلي المسمى بعقل إلكتروني لا يقدر على ذلك؛ لأنه يدلي بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » به وتخزينه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقي الإنسان في الفكر . والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكوينية التي تناسبه أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البديلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذي يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت . ونرى هذا الأمر بوضوح في حكم قهر السموات والأرض والكواكب التي لا اختيار لها؛ فهي تسير حسب القوانين التي وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتنمو بالتسخير الغرسى الذي وضعه الله فيها ، وتمتد الشعيرات من الجذور في باطن الأرض؛ لتمتص - بتسخير الله لها - بعض العناصر المحددة في التربة ، وينتفع نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتي علماء النبات ليعملوا في حقل دراسات نمو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد في بؤرة شعوره دائماً . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية - كما نعرفها - هي صعود السائل إلى الأنابيب التي تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل في أي إناء إنما يأخذ استطرافاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية في قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء؛ لأن الضغط الجوي داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها في داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ونقول لهؤلاء : كيف هذا والنبات يختار عناصر معينة من السائل؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة في الماء؟ . إنك أيها العالم الذي غاب الله عن بؤرة شعورك قد

تدعي أن الطبيعة هي التي تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة واضحة وهي أن النبات ينتقي بالتسخير الرباني الخاص بعضاً من العناصر الموجودة في التربة ، لا بخاصية الأنايب الشعرية .  
وصدق القول الحق : { سَبَّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى \* الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [ الأعلی : 1-3 ]

فسبحانه الذي قدر فهدى كل شيء إلى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

{ يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [ الرعد : 4 ]

إذن فسبحانه يوحي لكل نبات بخاصية تكوين غريزي تختلف عن النبات الآخر؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يخرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ، إنه مختلف عن القصب وعن الفلفل ، وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنايب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتخاب الطبيعي . ونقول : لماذا لا تقول الانتخاب الإلهي وتستريح؟ .

إذن فالوحي هو إعلام بخفاء ، وقد يكون مطموراً في تكوين الشيء بحيث إذا جاء وقته ينفعل ، تماماً مثلما يدق جرس المنبه في الميعاد المحدد . والوحي إلى الحيوان يتحدد في قوله الحق : { وأوحى ربُّكَ إلى النحل أن اتخذ منَ الجبالِ بُيوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [ النحل : 68 ]  
ومن العجيب أن العالم الأمريكي الذي رصد حياته لدراسة النحل في أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان في الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان في الخلايا التي عثر عليها من الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله في الشجر العالي الذي لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البيوت والبيوت والخلايا ومما يعرشون . ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التي جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبي ، وخرج بالنتيجة نفسها التي جاء بها القرآن . وفي كل وقت وزمان نجد عالماً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحي بالنسبة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } [ القصص : 7 ]

ولم يأت إلى أم موسى رسول يُوحى إليها . لكن الأمر قد استقر في ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحي لأذهاننا ، فقالوا عنه : إنه عرفان يجده الإنسان في نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذي يصدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ { .

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فألقيه في البحر ، هل تصدق الأم ذلك؟! لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كقضية مسلم بها ، فساعة دخل الإيحاء من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بخفاء إلى وجدانها آمنت به ، ومادام الإعلام من الله فلا شيطان يزاغمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقبله استقبال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطمئنها . فأوضح لها : أنا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقي الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه العدو فرعون .

وأصدرت الأوامر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحي للحواريين . يقول الله : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [ المائدة : 111 ]

وهناك وحي للملائكة كقول الحق : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيِّ مَعَكُمْ فَخَبِتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ } [ الأنفال : 12 ]

الوحي ينظم ويشمل - إذن - كل أجناس الوجود بطريقة خفية عند عالم خفي عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الحواريين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله؛ ذلك أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم : { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [ الأنعام : 121 ]

ويقول أيضاً عن الشياطين : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [ الأنعام : 112 ]

إذن الوحي هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحي من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحي إلى الجماد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .  
وعندما نحدد معنى الوحي فإننا نقول :

الوحي في اللغة إعلام بخفاء من أيّ - سواء أكان من الله أم من الشياطين - ولأيّ ما - سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان - وفي أيّ - سواء في خير أو شر - .

وكلمة « وحي » تصلح لأيّ معنى من هذه المعاني بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن هي بالمعنى الشرعي لا تطلق إلا على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها اللغوي الدعاء ، وهناك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هي الأقوال والأفعال ، وأخذ الشرع معنى الصلاة واصطلح على أن كلمة الصلاة حين

يطلقها الفقيه تنصرف إلى الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم .  
وفي هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - وقد دخل عليه حذيفة فسأله :  
كيف أصبحت؟ . أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصلي بغير وضوء ولي في  
الأرض ما ليس في السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا علي بن أبي طالب لكان  
لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة .

وسأل عليّ عمر : ما يغضبك يا أمير المؤمنين؟ . قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال  
كذا وكذا . فقال علي - كرم الله وجهه - : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أي يحب  
ماله وولده ، فالحق قال : { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ } ، وهو يكره الموت والموت حق من  
فيينا يحبه يا أمير المؤمنين؟ وهو يصلي بغير وضوء على النبي صلى الله عليه وسلم ، وله في الأرض  
زوجة وله ولد وهو ما ليس لله في السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتنة على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا المثل  
لأفرق بين المعاني الشرعية والمعاني اللغوية .

ونوضح الفارق بين معنى الوحي الاصطلاحي والمعنى اللغوي ، المعنى اللغوي للوحي هو : إعلام  
بخفاء من أيّ لأيّ بأي . والوحي بمعناه الشرعي : إعلام بخفاء من الله لرسوله . وكل الألوان  
الأخرى من الوحي نأخذها بالمعنى اللغوي .

وقوله الحق هنا في الآية التي نحن بصددتها : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ } . و «  
أوحينا » هنا قد جاءت للإعلام بخفاء من الله لرسول من رسله . ونعلم أن صفات الكمال للحق  
سبحانه وتعالى هي صفات الكمال المطلق . وكل الخلق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن  
لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول  
. ولذلك يأتي الحق بنورانيّين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد  
الرسول لهذه المهمة .

إذن فالمسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من  
الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحي ، ومن بعد ذلك يعطي الرسول لغيره من  
البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل الهزة  
من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل الرسول الوحي من ملك تحدث له  
هزة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحي :

( حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ قال :  
فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني  
الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم

أرسلني . فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم ) .  
 وكان جبينه يتصفد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجته خديجة بنت خويلد فقال : « زملوني  
 زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع . وكان ذلك أمراً طبيعياً؛ فهذا الملك جبريل متصل ببشر  
 هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف ليستقبل من الملك .  
 لكن أتظل هذه الرجفة المتعبة؟ . لا ، إن الوحي يفتر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول  
 إليه ويصير قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تصفد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل في الحركة حتى إذا  
 جاءه الوحي وهو على دابة فهي تنط وتتن ، وإن جاءه الوحي وهو جالس وفخذه على فخذه  
 واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجل ويكسرهما ، كل ذلك من المتاعب  
 تحدث للرسول في أثناء الوحي؛ لأن تغييراً كيميائياً يحدث في بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن  
 الكلام الذي يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله .

لقد كان للوحي صلصلة كصلصلة الجرس . وكان هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحي قد  
 جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم في البداية ، كان  
 من رحمة الله به أن يجعل الوحي يفتر عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحي بسبب حلاوة ما  
 أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً للمتاعب . وعندما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه وخفاه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلا في هذه المسألة  
 بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الذكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم  
 السابق منه . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحي يفتر حتى تبقى حلاوة ما  
 يوحى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادي البشري ، والإنسان منا حين  
 يذهب إلى حبيب له يسير في الشوك والوحل ولا يبالي . إذن ففتور الوحي كان لتربية الشوق في  
 نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحي ، ولينتبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى : {

وَلَا خِرَّةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى } [ الضحى : 4 ]

أي أن ما سيأتي لك من بعد ذلك سيسرك . ويقول الحق بعدها : { أَمْ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ \*

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ \* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ \* وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [ الشرح : 1-4 ]

و حين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد - كما يقولون  
 - قد جفاه ، لا ، بل يعده ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كفرهم  
 أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه : { والضحى \* والليل إذا سجى \* ما ودعك ربك \*

وَمَا قَلَى } [ الضحى : 1-3 ]

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهي محل الحركة والكبح

والجهد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : إنكم إن نظرتم في آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحي للكدر والليل لنسكن فيه وفتور الوحي هو سكون ليعاود محمد نشاطه في حركة الوحي الجديدة ، هو الحق - سبحانه - يقسم : { والضحي \* والليل إذا سجي \* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } أعجيب الليل بعد النهار ضن من الله على الناس بالنهار؟ لا ، إنما الليل عطاء من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وأنزل سبحانه الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها حينما سأل اليهود النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } .

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلي كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتم في وحي الله لموسى؟ أشككتم في وحي الله لمن سبق موسى؟ صحيح أنكم شككتم في مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذي تكذبون فيه جانباً ولنأخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } .

إذن فانت يا محمد لست بدعاً في هذه المسألة : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } وبمر العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحي كان لنوح . والحقيقة أن الوحي الأول كان لآدم من قبل ، لكن هناك فارق بين الوحي لآدم والوحي للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طراً على أمته وكانت أمته موجودة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته؛ لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقلدون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحدة يقلدون آباءهم . وقد أوحى الله لآدم وقال له : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } وإرسال الهدى لآدم هو مجيء الوحي إليه .

ولماذا جاء نوح في هذه الآية أولاً؟ لأن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد طراً على أمته؛ لذلك احتاج إلى وحي وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة؛ لعموم الموضوع ، فلم يكن هناك من البشر غيرهم . لكن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجودين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ } . لماذا قال الحق : { وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } أي من بعد نوح؟ ، ولماذا قال : { وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ } وذكر أسماء الأنبياء من بعد إبراهيم؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ، { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } ، وكأن الحق يقول : حين يسألك اليهود - يا محمد - أن تنزل عليهم كتابا من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلي كما أوحى إلى الأنبياء السابقين؛ فلست بدعا من الرسل .  
 وحتى لو أنزل إليهم محمد كتاباً في قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر مبين ، كما قال : {  
 وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [ الأنعام : 7 ]

فالمنكر يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً في حق وإنما هي لحاج في باطل .  
 ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا }  
 ونلاحظ أنه جل وعلا ذكر الوحي عاماً؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسم كتابه « الزبور » ولم يأت في الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى؛ لأن ما جاء به داود في الزبور أمر تجميع عليه كل الشرائع ، وهو تحميد الله والثناء عليه فلم توجد في الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام في الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم في قمة الأمور وهي مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم والعهد الجديد » ويعتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور »؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البئر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، يخافون أن ينهال التراب من جوانبها عليه فتمطر البئر؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة الحجارة ، وفي الريف المصري نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .  
 وكلمة « زَبَرَ البئر » تؤدي معنى كل عملية لإصلاح البئر؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة في معانٍ مختلفة ، فسموا العقل « زَبْرًا » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر ويمنعه ، فكذلك العقل يحمي الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته في إطار مسؤوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويخطئ الناس في بعض الأحيان في فهم معنى « العقل »؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام او مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ . . . } .

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)

والرسل الذين ذكرهم الله في الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلا فحسب ، فكما علمونا في الأزهر الشريف يجب أن نؤمن بخمسة وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء في قوله :

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا ... ذو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا  
وفي سورة الأنعام نجد قوله الحق : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ \* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِن دُرِّبَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ \* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ } [ الأنعام : 83-86 ]

وفي هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن خمسة وعشرون رسولا ذكرهم الله ، لكن الآية التي تسبق الآية التي نحن بصدددها لم يذكر الله كل أسماء الرسل . وذكر أسماء بعض الرسل في سورة الأنعام وبعضهم في سورة هود وبعضهم في سورة الشعراء . ويقول الحق : { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [ النساء : 164 ]

أي أن الخمسة والعشرين رسولا ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال : { وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [ فاطر : 24 ]

أي أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أممهم لها كثافة أو حيز واسع أو لرسلمهم معهم عمل كثيف ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام : { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةٍ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } [ الصافات : 147 ]

وكان العالم قديماً في انعزالية . ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز في السلوك ، ولذلك أرسل الله رسولا إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق بعلمه الأزلي أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث في أسرار الكون سيبتكرون وسائل الالتقاء؛ ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشيء يحدث في الشرق فيعلمه الغرب في اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح في العالم كله داءات واحدة؛ لذلك كان ولا بد أن يوجد الرسول الذي يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم

والرسول الجامع والرسول المانع . { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [ النساء : 164 ]

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ النبوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل في الأحداث للرسول ، بل تأتي الأحداث في السياق كما وقعت .

وسبحانه يعلم أولاً أن خلقه سيبتكرون فناً اسمه « فن القصص » .

ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءاً من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إتقان فن القصص ، ويحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتي الحق ليوضح لنا أن القصص الخاص بالرسول وبغيرهم في القرآن قصص واقعي ، حقيقي ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أي أن نسير مع القدم كما تذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء في القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقهم ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . ونجد روايات الخلق تزدهم في بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجي زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضاف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحكمة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرق بين روايات الخلق وقصص الحق ونضعه في بؤرة الشعور حتى لا يدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتي واحد ذات يوم ويقول : إن كل

القصص واحد . فنحن في القرآن لسنا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذي يروي لنا ما

يعلمنا . وسبحانه علم أولاً ما سيدور في كونه ، لذلك قال : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [ يوسف : 3 ]

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن أحسن القصص؛ لأن رسول الله

صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم التي توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، ومادام

عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على

الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنه

حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت داءات ذلك

الاجتماع هي كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم - كما نعلم - مؤكولٌ إليه علاج كل أجناس

البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كل المجتمعات والرسل : ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } .

إذن فكلمة « قصص » تدل على أنها حكايات لحركة العقيدة التي كانت مع كل الرسل .  
والتاريخ - كما نعلم - هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرخ له ، ثم نأتي  
بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث .

ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعني أننا  
جعلنا الشخص هو محور الكلام؛ ثم تدور الأحداث حوله . وإن أرخنا للحدث ، نجعل الحدث  
هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما نأتي لتتكلم عن حدث الهجرة؛ نجعل هذا الحدث هو المحور ، ونروي كيف  
هاجر رسول الله ومعه أبو بكر/ وكيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك  
تكون الهجرة هي المحور وكيف دار الأشخاص حول هذا الحدث الجليل .

ومثال آخر : عندما نروي سيرة من السير ، مثل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، نجعل النبي  
صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ونروي كيف دارت الأحداث في حياته .  
إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هي المحور ونلتقط الأحداث التي مرت عليهم؛ لأن الرسائل  
حين تأتي الناس بمنهج السماء؛ تنقسم إلى قسمين : قسم نظري يريد الحق أن يعلمه لخلقه  
بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمي ، فتلك قضايا يجب أن يعلموها . وقسم عملي؛ لأن الحق  
يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم - أيضا - بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على  
ضوء ما عملوا . فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا في محور « افعل  
« و « لا تفعل » . ولو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما  
أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاوموا ذلك .  
ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها . لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن  
توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد .  
إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به أي توظيف العلم  
تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا هو الحكم ، ومطلوب من  
كل واحد منهم أن يطوع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . وتجيء الأحكام دائماً في طاقة  
البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هي قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة فلان . فالقصاص  
يعطينا الجانب العملي المطلوب للمنهج ، ولذلك قصصنا لنا الحق قصص الرسل في القرآن . وبلغنا  
الحق بالنسب الإيماني ، ويعلمنا النسب المعترف به عند الأنبياء ، فيحكي قصة نوح عليه السلام  
، عندما أوحى إليه بضرورة أن يصنع السفينة ، وسخر قومه منه ، وبعد أن صنعها جاء الأمر

الإلهي بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ويقول الحق : { وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ \* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ \* } حتى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ {

[ هود : 38-40 ]

قوله الحق { إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ } كان يجب ألا تمر على فطنة نوح؛ ذلك لأنها تتضمن أن هناك أناساً من أهله لن يؤمنوا ، فيقول لابنه : { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بَنِي آرَكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } [ هود : 42 ]

وكان الرد : { قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } [ هود : 43 ]

فقال نوح : { قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ } [ هود : 43 ]

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض ماءها ، نادى نوح ربه فقال : { رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنِّي وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } [ هود : 45 ]

نحن - إذن - أمام لقطة قصصية في قصة نوح . يلفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، فالبنوة هنا منهجية . ومن يتبع النبي هو الذي يكون من نسبه . ومن لا يتبع النبي فليس من نسبه ، لذلك قال الحق : { قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } . فأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبي . ويشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال عن سلمان الفارسي : « سلمان منا أهل البيت »

ولم يقل : إن سلمان عربي ، أو إنه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت . وقد أوضح الحق ذلك في قصة ابن نوح : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } .

وخاض في معنى { لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } بعض الخائضين باللغو وقالوا : إن أم ابن نوح قد فعلت السوء ، وهؤلاء نقول : استغفروا ربكم وانظروا إلى حيثية الحكم : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [ هود : 46 ]

إذن فنسبة الأبناء للأباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن زواج أو إنجاب ، أما الذين قالوا السوء في امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق سبحانه منزه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك - معاذ الله - فما ذنب الولد تصير أمه إلى هذا؟ لا دخل للولد بذلك ، لكن قول الله : { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } يدل على أن ثبوت النبوة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولننظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « لما نزلت ( وأنذر عشيرتك الأقربين ، جعل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بطون

قريش بطنا بطنا : يا بني فلان أنقذوا أنفسكم من النار حتى انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة محمد انقذي نفسك من النار لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سألها ببلاها »

ويضرب الله المثل في الزوجات؛ فيقول : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ } [التحريم : 10]

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية؛ لكن لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر زوجه وامرأته على عقيدة؛ فهي تملك حرية الاعتقاد؛ فلا ولاية هنا للرجل على المرأة في العقيدة حتى إن ادعى الألوهية؛ كفرعون مثلاً يقول الحق عن امرأته : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم : 11]

هذه اللقطات تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج . فالابن هو العمل الصالح ، والحبيبة في ذلك قول الحق عن ابن نوح : { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبي قصة يذكرها الحق ليتضح المنهج في أذهان الناس . ويأتي الله بالمثل في المصطفين الأختيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام . الذي يبتليه - سبحانه - في أول حياته بالإحراق في النار . كان إبراهيم شاباً يمتلي بالأمل في الحياة ، فماذا كان من إبراهيم؟

أراد الحق نجاة إبراهيم من النار . وتركهم يتمكنون منه ويضعونه في قلب النار . ولم تمطر السماء لتطفئ النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون كيد الله كاملاً لهؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تمطر السماء ، بل ظلت النار ناراً ويعطل سبحانه ناموس النار حين دخول إبراهيم إليها .

« روي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيده ليلقوه في النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل فاسأل ربك . فقال : حسبي من سؤالي علمه بحالي . فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم »

وفي هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم . إذن يعطينا الحق في القصص القرآني المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر ونستفيد منها ، لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس؛ لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجعلناها منهجاً لنا في حياتنا .

وقد ابتلى الحق إبراهيم في أول حياته في نفسه ، وابتلاه في أخريات حياته في ابنه ، ونجح إبراهيم في الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شيء ، وحين يتقدم في السن ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من الأبناء فيبتليه الله في ابنه .

لم يقل له : إن ابنك سيموت وعليك بالصبر . ولم يقل له : إن واحداً سيقتل ابنك وعليك بالصبر؛ بل يأمره بذبح ابنه ، تلك قمة الابتلاء . لأنه لم يأت بوحى مباشر كالنفس في القلب أو الكلام من وراء حجاب أو يرسل له الله ملكاً يبلغه ما يريد ، بل برؤيا منامية : { قَالَ يَا بَنِي إِبْرَاهِيمَ أَرَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها في المنام . والرؤيا عند الأنبياء حق .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل على أبيه بأن هذه المسألة هي مجرد رؤيا؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده على غرة دون أن يقول له؟ .

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن الثواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امتثالاً لأمر الله ، فقال إبراهيم : { يَا بَنِي إِبْرَاهِيمَ أَرَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى } [ الصافات : 102 ]

وها هوذا قول إسماعيل : { قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [ الصافات : 102 ]

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ولكنه قال : { افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } أي أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل أخذه كأمر من الله . ولو أخذه أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدي على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآتي من السماء؛ والشأن في حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل خير بعد مماته؛ لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله؛ فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان في الزمان الأبقى والزمان الأخلد في الدار الآخرة؛ حتى نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لقضائه وقدره ، ويقول الحق : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [ الصافات : 103 ]

هذا شرف الامتثال في التسليم لله . ففي البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فنال الاثنان منزلة الشرف في التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان في الاختبار ، فقال الحق : { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [ الصافات : 104-105 ]

لقد أنقذ الحق إبراهيم وابنه من مسألة الذبح ، ولهذا نقول دائماً : لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يطيلون أمد القضاء على نفوسهم هم الذين لا

يرضون به . وأتحدى أي إنسان أن يكون الله قد أجرى عليه قضاء مرض فيرضى به ويعتبر أن ذلك صحة اليقين ، ولا يرفع الله عنه المرض . فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله .

فقد حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعديني . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده!! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ » من إذن يجروء على الزهد في معية الله؟ وعندما يعرف المريض أنه في مرضه الذي يتأوه منه هو في معية الله لاستحى أن يقول : « آه » ، ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول « آه » ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول : « ولكن عافيتك أوسع لي » .

وقول الحق : { فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } هذا القول يدلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فلنعلم أنه لم تكن ولن تأت عليه لحظة لرضي فيها بالقضاء . ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يُفد إسماعيل فقط بذبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر اسمه إسحاق : { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ } [ الصافات :

[ 112

وها هي ذي لقطة أخرى نأخذها من القصص القرآني مع سيدنا موسى؛ لتبين ماذا يصنع المنهج الإيماني فيمن اقتنع به ، وحدثت هذه القصة في وقت تهيئة سيدنا موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن فطرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صنعه على عينه ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفتاتين تذودان وتطردان الماشية عن الماء ، فماذا دار بينه وبينهما من حوار؟ . وكيف كانت رؤيته لهما أولاً : { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [ القصص : 23 ]

وفي قول المرأتين : { لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } قدر من المبادئ فخرجهما من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنهما في ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أنثى يجب أن تُحترم أنوثتها فقالتا : { لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ } أي أنهما ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذت بنتا شعيب الضرورة في حجمها ولم تتخذ إحداها من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزاحم للوصول إلى البئر . فماذا حدث من موسى؟ . { فسقىهُمَا } .

تلك المهمة الإيمانية التي وُجدت في موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان : كيف أكون مثل رسول من عند الله؟ .

كأن المهمة الإيمانية التي وصفتها تلك اللقطة القصصية توظف مسؤولية كل مؤمن ليسلك مثل هذه السلوك . فعندما يرى امرأة قد خرجت عن محيط بيتها لأي عمل ، فعليه أن يقضي لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتخذ من ذلك ذريعة ووسيلة إلى أمر ينزل بهمتته وينال من مروءته .

ولو انتشرت بيننا تلك المهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة في الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من الستر ، فتقول واحدة من المرأتين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجزيه أجر ما سقى لهما : { يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [ القصص : 26 ]

كأن المرأة لا يحل لها أن تتحرك في الكون هذا اللون من الحركة الواسعة ، ويسمع شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابنتان ، فيفكر شعيب ويعثر على الحل الصحيح بفطنة إيمانية ، فيستدعي موسى ويقول له : { قَالَ إِبْنِي أَرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِيْحَدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَاجٍ } [ القصص : 27 ]

وفي مثل هذه الحالة سيكون موسى متزوجاً بواحدة ومُحَرَّمًا على الأخرى .

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لتتلم منها الفطنة الإيمانية . وها نحن أولاء مع موسى وقد ناداه الحق ليجعله رسولاً ، ولنر صفاء النفس الإيمانية وهي تتلقى مهمة الرسالة؛ إن موسى يرغب في أن يكون أداؤه للرسالة كاملاً؛ لذلك يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون : { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِيْنِي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ } [ القصص : 34 ]

هو يرشح معه هارون للرسالة لأنه حريص على النجاح في دعوته لأن لسانه ثقيل لرتة ولثغة وتردد في النطق من أثر الجمرة التي أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعدة أخيه ولم يستنكف ذلك . فما بالنا بما هو حادث وحاصل في أيامنا ، حين يختار الحاكم رئيساً للوزراء فلا يطلب معاونة الأُكفء ، بل قد يخشى أن يكون له نائب له كفاية عالية فوق كفاءته .

واللقطات القصصية في القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت بها للأمة المحمدية دقة المنهج الإيماني ، فمادام قد أرسل لنا منهجاً لنعلمه ، فهو يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه في حياتنا . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود في قصص الرسل الذين علموا المنهج فطبقوه في ذواتهم أولاً؛ لأن الآفة أن نعلم العلم ولا نطبقه .

وفي زماننا يقال ويشاع : إن التعليم الديني في المدارس لا يأتي بثمار طيبة في سلوك الطلاب . ونقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعليم الديني؛ فتعليم الدين لا يمكن أن

يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق في المجال الهندسي ، ولكن لم تطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه في الحياة بأن ترشده في السلوك اليومي : افعَل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل في حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الديني ، ولا يفعل الأشياء المنهي عنها . والصعب في التعليم الديني هو التطبيق العملي . عندما لا يرى التلميذ التطبيق العملي من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطالب : الدين ينهى عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رائجة في المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصلي أمامه أو يجد من يصلي ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهي عن المنكر ، إذن فشل التعليم الديني لا يأتي من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملي للسلوك الديني .

ونعود للقصة القرآني . جاء القصص ليوضح لنا التطبيق للجانب النظري من الدين ، وطَبَّقَهُ الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذي حدث في موكب الرسالات كلها وتطبقوه في ذواتكم . هذا هو معنى قوله الحق : { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ } . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة . ويقول قائل : ومن هو الرسول؟

يقول العلماء : هناك رسول وهناك نبي . وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم : كل رسول نبي ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأي : لو نظرنا إلى المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ }

[ الحج : 52 ]

إذن فالنبي أيضاً مرسل من الله ، وعلى ذلك فكلاهما - النبي والرسول - مرسل من عند الله ، لكن يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكن موجودة في الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتي إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء في الرسالات السابقة ، فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد في مهمة الرسول .

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية

فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتي إلا في الأمم التي لها سجل في المكابرة مع الرسل .

ولذلك نجد أن اللجاجة دفعت بني إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتي لتشفي الناس مما بهم من داءات؛ فعندما نقول عن إنسان إنه أكثر الناس تردداً على الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة .

وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم . بل تدل على كثرة أمراضهم . إذن فالرسول والنبى كلاهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سماوي ليبلغه ويطبقه ، والنبى مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحياً؛ فهو الموحى إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه . ويذيل الحق الآية : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } ؟ .

ونقول : الوحي الذي يوحي الله به لأنبيائه هو الوحي الاصطلاحي الشرعي الذي نتكلم عنه دون الوحي اللغوي الذي سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التي يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه ، فقال : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ } [ الشورى : 51 ] إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء؛ إما أن تكون بالوحي ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحي ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وحي خاص ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل في إطار الوحي { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا } .

أي ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقذفاً في القلب ، أو يكلمه { مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحي بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقتين ، أولاً : بالطريق الذي أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذي بدأ به موسى بالوادي المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا؟ . لأن مطلق الوحي بأي وسيلة سماه الله كلاماً . إذن فالنفخ في الرُوع كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحي كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحي في صورته الثلاث كلاماً { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ } .

والخفاء في الوحي إما أن يكون خفاء في الأسلوب ، أي لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام في رُوع الرسول وقلبه وهو يؤدي مؤدي الكلام أي الدلالة على ما في نفس المتكلم الذي يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق : إنه « تكلم » مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو يرسل الحق رسولاً بالكلام الموحى به . وحين قال سبحانه : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } إنما يبينها إلى أن الوحي لموسى ليس من الكلام الذي قسمه الحق في قوله : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا } ؛ لأن الله قال في كلامه لموسى : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } .

ووقف العلماء هنا وقفة عقلية وقالوا : كيف يتكلم الله إذن؟ . ونقول : إن كل وصف لله ويوجد مثله لخلقه إنما نأخذه بالنسبة لله في إطار : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } فإن قلت : إن الله وجوداً ، وللإنسان وجوداً ، فوجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن قلنا : إن الله علماً ، وللإنسان علماً ، فعلم الإنسان ليس كعلم الله ، وإن قلنا : إن الله قدرة ، وللإنسان قدرة ، فقدرة الإنسان ليست كقدرة الله ، وإن قلنا : إن الله استواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسي ، فاستواء الله ليس كاستواء الإنسان . إذن فلا بد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التي يوجد مثلها في البشر في إطار قوله : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [ الشورى : 11 ] . وبذلك ينتهي الخلاف كله في كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وله وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، بل نأخذها في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } وكذلك وجه الله . ومادمننا نأخذ صفات الله في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } فلا داعي للمعركة الطاحنة بين العلماء في الصفات وفي تأويل الصفات ، ولا داعي أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤول الصفات وعالم لا يؤول؛ لاداعي أن يقول عالم : إن يد الله هي قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : لا . إن لله يداً ويسكت . ونقول للعالم الذي لا يؤول : قل : إن لله يداً وهي تناسب قوله « { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } . وإذا كنا نحن قد عرفنا في عالمنا أن الأشياء تختلف مواجبتها في الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثيل له .

وعلى سبيل المثال : يتلقى الإنسان دعوة لمائدة عمدة قرية ما ، فيقدم له ألوان طعام تناسب مقام القرية ومنصب القيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محافظ مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس الدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيبة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العمدة في قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان البشر يوجد الشيء الواحد وهو

ملون بألوان مقامات المخلوقين فكيف لنا بمقامات الخالق؟! { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } .  
 فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً في قصة الوادي عندما آانس موسى ناراً وذهب  
 إلى النار . فقال الحق : { إني أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى \* وَأَنَا اخْتَرْتُكَ  
 فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى \* إني أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَا فَاعْبُدني وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي \* إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ  
 أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى \* فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى  
 {

### [ طه : 12-16 ]

قال له الحق كل ذلك ، وبدأه سبحانه بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحي على طريقة مجيء  
 الوحي للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم على شتى ألوان الوحي . فقد جاء الوحي  
 لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحي لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحي لرسول الله من خلال  
 رسول .

ومثال الوحي إلهاماً هو الحديث القدسي ، وكذلك التشريع النبوي الذي تركه لنا الرسول صلى  
 الله عليه وسلم ، ومثال الوحي من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة  
 بواسطة جبريل ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل في نقاش لا جدوى منه حول : أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه  
 رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه . لا داعي للخوض في أمر لم يخبرنا الله  
 عن كفيته ، والأدب مع الله يقتضي ذلك . قال تعالى : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } .  
 وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحي إلا بإرسال رسول ، فكل وحي القرآن جاء  
 بواسطة جبريل ، فلم تأت آية بالنفخ في الرُّوع . إنما جاء بالنفخ في الرُّوع الحديث القدسي؛ لأن  
 النفخ في الرُّوع قد يتصور واحد أنه خاطر من الجن أو أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية  
 بواسطة جبريل؛ بمقدمات بدنية ، ويحدث تغير كيميائي في نفس رسول الله فلا يشك أبداً في أنه  
 جبريل . وأراد الحق أن يكون الوحي بالقرآن بطريقة لا شك فيها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الجرس؛ وبعد ذلك يتفصد جبين  
 الرسول عرقاً ، ويثقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهي تنط وتتن ويثقل عليها وتكاد  
 أن يمس بطئها الأرض . وإن كان رسول الله يلاصق فخذه فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرض  
 فخذ الصحابي ، وتلك علامات مادية كونية ، لا يمكن أن يحدث فيها لبس .

ولقد قالوا من قبل استناداً إلى ظاهر قوله : { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا  
 أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نُّدَلَّ وَنُخْزَى } [ طه : 134 ]

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للعلماء : لنفهم هذه المسألة حتى نوضح لكم أنكم تختلفون في أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أبالعقل يعلم الإنسان مطلوب الله منه؟ أم أن العقل يهديني إلى وجود قوة أعلى خلقت هذا الكون وتدبره؟ . وما اسم هذه القوة؟ . وما مطلوب هذه القوة؟ . أيعرف العقل ثواب من يتبع المنهج وعقاب من يخرج عن المنهج؟ . كل هذه أمور لا يعرفها العقل ، فالعقل حجة في الإيمان بقوة عُليا فوق ذلك الكون وهي التي خلقتة وتدبره وتديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التي أرسلت والشرائع التي يجب أن يسير على هداها الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرأيين .

واسأل : من الذي اكتشف الكهرباء؟ . إنه العقل البشري الباحث وراء أسرار الله في الكون ، ولا أحد يجهد هذه المسألة . وكذلك أسأل : من أول من تكلم في النسبية؟ إنه أينشتين . وإن سألنا : من أول من تكلم في الجاذبية الأرضية؟ . إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً في الكون صرنا نعرفه . والذي صمم توليد الكهرباء التي تنير وتضيء وتدير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القدرات المالية ليشتري الإنسان مصابيح تنير حيناً محدوداً ، ومصانع تعمل في خدمة الإنسان .

أبالله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائي ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التي تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يدع أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار في الكون إلا ومعلوم من أبداع هذا الابتكار . فالذي صنع المصباح إنما ينير به حيناً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائري معلوم يتلاشى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالناس بالشمس التي تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، وتحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج ينكسر وبغيره مثلما نعمل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشري أن يفهم أن هذه الكائنات التي في الكون لها صانع يناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق ويسكت عن حقه في صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس في بعض الأحيان تدعي ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا؟ . إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض؟ هذه هي مهمة العقل أي أنه يهتدي إلى القوة التي تخلق وتدبر أمر هذا الكون ولا يغني العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن في القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذي طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مطلوب القوة في « افعل » ، و « لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسيء . لذلك

لابد من وجود رسول .

إن الحججة - إذن - تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو في الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثاني الخاص بالرسول هو الإيمان بالبلاغ عن الله اسماً وصفة ومطلوباً وجزءاً ، وهكذا نرى فاتفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف .  
أقول ذلك حتى لا يتمادى الذي يتصيدون لدين الله وأضيف : اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات؛ فالرسول هو الحججة في الأشياء التي لا دخل للعقل فيها .

ونعرف تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتخذ عدداً ضيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هي أم العلوم مجتمعة ، فالهندسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .  
لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب العملية أن الفلاسفة يدخلون في متاهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العلمية التطبيقية ، تركوا الفلاسفة وأسسوا العلوم التجريبية منفصلة عن الفلسفة . وأنتج العلم التجريبي لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التي تسهل علينا الحياة ونستفيد منها .

لقد ظل الفلاسفة على حالهم يبحثون في النظريات بعيدين عن مجال التجارب العلمية التطبيقية . ولا تلتقي مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى؛ لأنهم يختلفون حيث الجهل طبيعة مسيطرة على الغيب الذي يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار الغيب ، إنما الغيب يبلغ به الرسل .  
والمثال الذي أضربه دائماً وأكرره حتى يستقر في الأذهان : لنفترض أننا نجلس في حجرة ثم دق الجرس ، هنا تستوي عقولنا جميعاً في أن طارقاً بالباب ، ولا نختلف في هذا الأمر . لكن عندما ندخل في تصور من الطارق؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثاني يقول : « الطارق امرأة »  
وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير »  
وسادس يقول : « نذير » ، يحدث ذلك لأننا دخلنا إلى متاهات التصور . وأقول : هذه الأمور لا تُترك للعقل ، فلو أردتم راحة أنفسكم لآمنتم بالتعقل ، تعقل أن هناك طارقاً بالباب ، ثم تتكون للطارق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان وأسمي كذا وصفتي كذا وجئت إليكم من أجل كذا ، وبذلك نتفق جميعاً .

لكن الفلاسفة أدخلوا التصور في التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لأبد أن يبلغ عن نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا الكون العظيم لا بد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا عن نفسها؟ . وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحل اللغز الوجودي الذي يعيشه البشر فيبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت

تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يفرح بمجيء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه؛ لأن الرسول إنما جاء يحل اللغز الشاغل للنفس البشرية من تفسير من خلق الكون بهذه الدقة ، وما هي مطلوبات هذه القوة؟

ويجسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللغز الشاغل للبال . ولذلك نرى الإمام عليا - كرم الله وجهه - أمام سؤال من أحدهم :  
- أعرفت محمداً بربك؟ أم عرفت ربك بمحمد؟ .

فأجاب الإمام عليّ وكان باب العلم : لو عرفت ربي بمحمد لكان محمد أوثق عندي من ربي ، ولو عرفت محمداً بري لما احتجت إلى رسول ، ولكني عرفت ربي بري وجاء محمد فيبلغني مراد ربي مني .

هكذا حدد لنا سيدنا عليّ المسألة . . فالعقل الفطري يؤمن بقوة مبهمة وراء هذا الكون هي التي خلقت وهي التي رزقت وهي التي أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تجيء الرسل من أجل تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل في الحجة ودور الرسول في الحجة ، عليهم ألا يتوهوا في متاهات نحن في غنى عنها؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لا بد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التفلسف الطريق المسدود .

لكن عندما نعلم أن الحق قد صنع كل رسول على عينه معصوماً ليبلغ ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة في ثلاث وعشرين سنة ليتمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله ليهدي أمته إلى كيفية عمل الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث . وخلق الله محمداً على خلق عظيم . وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من ضرورة البحث عن اسم القوة الخالقة ومطلوبها فأرسل الرسل .  
ويقول الحق من بعد ذلك : { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . . . } .

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا  
(165)

نعرف أن البشارة تكون بأمر سار يأتي من بعد . والندارة هي إخبار بأمر مسيء يأتي من بعد . والعزيز سبحانه لا يُغلب . والحكيم سبحانه وضع كل شيء في موضعه ، لماذا؟ . لأن الرسل يبشرون وينذرون بأن هناك جنة وناراً وحساباً ، فإياكم أن تظنوا أن الذي كفر بقادر على أن يصنع شيئاً لنفسه؛ والله عزيز وغيث عن خلقه جميعاً .  
ونعلم أن الحق لا يجرم سلوكاً إلا بنص ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد التي لا يصح الخروج

عنها . وحين يقول الحق : { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } فعزته وحكمته هي التي أتاحت لنا أن نعرف منهجه . ويقول الحق من بعد ذلك : { لكن الله يَشْهَدُ . . . } .

**لكن الله يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)**

وساعة نسمع « لكن » فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : { لكن الله يَشْهَدُ } نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصوصاً يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيانتته . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما في كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرَسُولٍ خَاتَمٍ ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً . لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذي لا تخفى عليه خافية ، وهو الذي خلق كل الخلق ويعلم - وهو العليم - ما يصلح للبشر من قوانين . وفي أعرافنا البشرية نجد أن الذي يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدي مهمتها كما ينبغي ، كذلك الله الذي خلق الإنسان ، هو سبحانه الذي وضع له قانون صيانتته ب « افعل » و « لا تفعل » . ولذلك يقول الحق : { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [ الملك : 14 ]

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إنَّ العبث الذي يوجد في العالم سببه أن الناس قد استقبلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحد أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقننوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يضع لكم قانون صيانة الإنسان ب « افعل » ولا « تفعل » وإن أردتم أن تشرعوا ، فلتشرعوا في ضوء منهج الله ، وإن حدث أي عطب في الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن؛ لأن المتاعب إنما تنبع من أن الإنسان يتناسى في بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أن يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله ، والذي يزيل متاعب الإنسانية هو أن تعود إلى قانون صيانتتها الذي وضعه الخالق تبارك وتعالى .

{ لكن الله يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ } والملائكة تشهد لأنها نالت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسبون حسابات العمل الصالح أو الفاسد للإنسان ويكتبونها في صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما في اللوح المحفوظ وبلغوا ما أمروا بتبليغه وهم يعرفون الكثير { وكفى بالله شهيداً } لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهوداً؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعزيراً لشهادته .

ونحن لا نأخذ شهادة الملائكة تعزيراً لشهادة الله وإلا كانت الملائكة أوثق عندنا من الله .  
وسبحانه يؤرخ شهادة الناس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله .  
ومن بعد ذلك يقول الحق : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . } {

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا (167)

إنَّ كُفْرَ الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكفر والإيمان ، لكن أن يصد الكافر  
غيره عن الإيمان فهذا ضلال متعمد؛ لقد ضل في نفسه ، وهو يحاول أن يضل غيره؛ لذلك لا  
يحمل وزره فقط ولكن يحمل أوزار من يضلهم .

وكيف يكون الصدّ عن سبيل الله؟ . بمحاولة أهل الضلال أن يمنعوا آيات الهدى من أن تصل إلى  
آذان الناس ، فيقولوا ما رواه الحق عنهم : { لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ } {

[ فصلت : 26 ]

ولو فهموا معنى هذه الآية لما قالوا ما جاء فيها ، فقولهم : { لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ } {  
أي اصنعوا ضجة تشوش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى  
الأسماع فإنه يبلغ الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما قالوا ذلك ، إذن هم يعترفون بأنهم  
يُغْلَبُونَ عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعويين إلى الهداية .

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا } . كان يكفي أن يقول الحق {  
قَدْ ضَلُّوا } ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدي { قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا } أي إنه الضلال بعينه ،  
وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر في كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشيء البعيد هو الذي بينه وبين مصدره مسافة  
زمنية طويلة . والذي يضل قصارى ضلاله أن ينتهي بانتهاه حياته ، لكن الذي يعمل على  
إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أي أن الضلال سيأخذ في هذه الحالة زمناً أكبر من حياة  
المُضِل ، ويتوالى الضلال عن المضلين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً .  
والضلال المعروف في الماديات البشرية هو - على سبيل المثال - أن يسير الإنسان إلى طريق  
فيضل إلى طريق آخر . وقصارى ما يضل فيه هو أن يذهب إلى مفازة - أي صحراء - ولا يجد  
ماء ولا طعاماً فيموت . لكن الضلال المضل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون  
ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . } {

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ  
فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169)

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا } . والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشري لا يؤدي لهم متاعاً ولا سعادة في حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة .  
والذي كفر ستر وجود الله وحرّم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذي يأتي به الله إنه بذلك قد ضلّ ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل : { فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [ طه : 123 ]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق : { فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [ البقرة : 38 ]

والذي يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكا ضيقة شديدة . ولا يظن ظان أن الذي يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا؛ لأن الذي يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم؟ . كل واحد منهم الظالم . وكل واحد منهم المظلوم؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفي حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازى بين الملكات لتتساند في النفس البشرية ، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى . { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً \* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } [ النساء : 168-169 ]  
هذا هو حكم الحق في الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً . ويقول الحق بعد ذلك : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ . . . }

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)

فبعد أن وصف لنا - بإيجاز محكم - سلسلة المعارك التي نشأت بين الرسول واليهود مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هو ذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ، ليصفي مركز منهج الله في الأرض ، فيقول منبهاً كل الناس : لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفية لكل الرسالات التي سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن يميزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ، الذي يرجح ما هو عليه صلى الله عليه وسلم على ما هم عليه

، والنور الذي يهديهم سواء السبيل .  
لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَلٍ وعلى أديان ونحل شتى ، فجاء البرهان بأن الإسلام قد جاء ناسخاً وخاتماً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلتها ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذي يهدي الإنسان إلى سواء السبيل ، وهذه تصفية عقديّة شاملة ، أو كما نقول بالعامية « أوكازيون إيماني » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ } والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فإذا ما رأيتم جميعاً حادثه واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم فأخبر بما إخبار صدق فلن تختلف رواية الحادثه من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لهم أن يتزبدوا في الحادثه فكل واحد سيحكي الحادثه على لون مختلف عن بقية الألوان ، وقد يسافر خيال أحدهم في شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذي لا يتغير في الحق هو أن يحكوا جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا ملايين الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحسنته له وأغرته به لاختلفت الرواية؛ لأن الكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم إليه من أي لون ، سواء في العقديّات أو في العباديات أو في الأخلاق أو في السلوك . وستجدون كل شيء ثابتاً لأتّه الحق .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً في هذا الحق : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } [ الرعد : 17 ]

كل وادٍ يأخذ ماء على قدر حجمه ، وساعة ينزل السيل من الجبال يحمل معه التراب والقش والأشياء التي لا لزوم لها ، وهو ما نسميه « الرجم » وهو الزَبَدُ الرابي . وكذلك الحديد أو النحاس أو الذهب الذي نضع منه الحلبي أو أدوات المتاع ، وعندما نضع هذه المعادن في النار ، نجد الزَبَدُ يفور على سطح هذه المعادن عندما تنصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبث .